أبيع أنا...
ولا يشتري!!

علياءُ هلال

الروايةُ الفائزةُ بجائزةُ إحسان عبد القدوس ٢٠١٨

الكتـــــاب	أبيع أنا ولا يشتري
النــوعيـــة	رواية
اسم المؤلـف	علياء هلال
تصميم الغلاف	محمد محسن
المراجعة اللغوية	أ. عبد الواحد الحسيني
الطبعة الأولى	يناير ٢٠١٩
رقــم الإيــداع	٢٠١٩/٣٩٨٢
الترقيم الدولي	٩٧٨-٩٧٧-٦٥٣٤-٧١-١
إشراف عام	رباب الشهاوي
مديرة النشر	هند عبد الله (نور مانجا)
لطلب الكتاب	**01022897649 - 01126652278**

ويمكن طلبه عن طريق موقع جوميا من **Elfoad Publishing Marketplace**



Alfouad_publishing@hotmail.com

facebook.com/fouadpublishing

أبيع أنا ... ولا يشتري!!

علياء هلال

الرواية الفائزة بجائزة إحسان عبد القدوس ٢٠١٨



إهداءٌ إلى

أ. د/ محمد عدلي
الطبيبِ الذي خفف عني آلامَ الجسدِ- بإذنِ اللّهِ-
كي أسطرَ حروفَ روايتي

وإلى
تويا..
والأرواحِ الثائرة.. والقلوبِ الطيبةِ..
والعيونِ المشتعلةَ بالحياةِ.

شكرٌ خاصٌّ وتقديرٌ

إلي:

أسرتى الطيبةِ (أبى، أمى، رشدى وآلاء)

وخالتى صاحَبةُ القلبِ النقىِّ

سارة صديقتى، والصحَبةِ الخيِّرةِ (إسلام، هشام، ندي، علاء، ياسر، كريم)

وشكرٌ خاصٌّ إلي د. حسام عقل وملتقي السردِ العربىِّ.

المدخلُ..

انهالتْ دموعي دون صوتٍ، لن يثنيَني عن قراري أحدٌ. فككتُ ضفائرَ شعرِي لتسقطَ جدائلُه حرَّةً مسترسلةً تلامسُ خاصرتِي، ومزقتُ قميصي، خلعتُ عنه أكمامَه.
خطوتُ بجسارةٍ خارجَ حيزِ موطني، أرى وجهَها يطاردُني، يحاولُ أن يقهرَ عزيمتي..
أنظرُ إلى عينيها بثباتٍ. أجيبُ:
النتيجةُ واحدةٌ، لكن بيدي لا بيد القهرِ. أوشكتِ أن تفعليها بي سابقًا دون علمي، فما الجديدُ إن فعلتِها الآنَ بملء إرادتي الحرَّة؟!!
تلقفني سوقُ النخاسةِ بانشراح، فاليومُ يومُ عرسِه. بسطَ"الكِليم" الأحمرَ الذي يسيلُ له لعابُ الشارينَ، وجُهِّزَت المنصةُ وسطَ الباحةِ، والبضائعُ متكدسةٌ في الخيام.. جلجلَ صوتُ الناقوسِ في الميدان. اشرأبتِ الأعناقُ كلُّها تتطلعُ إلى البضاعةِ المنتقاةِ. وانطلقَ نداءُ النخاسِ يُدوي..
انتهى الأمرُ..
تقدمتُ.
بحق عزيز الذي كانتْ الطيبةَ كلُّ ذنبِهِ
تقدمتُ.
وحلمٌ وديعٌ لم يكملْ قصتَه لي.
تقدمتُ.
سأذهبُ إلى الضياع بنفسي.. لن أنتظرَه حتى يأتيَ إليَّ..
تقدمتُ..
إلى المجهول.. إلى قلب الخوفِ.. وأحشاءِ الموتِ..
لايهمُّ أيُّ شيءٍ..
تقدمتُ..
لم يعدْ لديَّ ما أبكيه..
الكلُّ يُباعُ ويُشترَى..
يعودُ وجهُها يدسُّ نفسَه وسطَ الزحامِ، يرمُقُني بنظراته الحادَّةِ اللائمةِ : " لن تعودي، لن تخرجي منها سالمةً"

أحسمُ الأمرَ بكلمةٍ واحدةٍ: لا يهمُّ
أنا قادمةٌ إليكَ في عقر داركَ
أيها الضياعُ.. انتظرني
لا تهربْ مني..
ليسَ بعدُ أن واتتني الشجاعةُ كي أغزوَكَ.

*****

الفصل "١"..
ذروةُ العقلِ أم في قاعِ الجنونِ؟

في إحدى المناطقِ الهادئةِ المنعزلةِ نسبيًّا- تحديدًا في بداية طريقِ إسكندرية الصحراوي- توقفتْ سيارةٌ متهالكةٌ أمامَ البوابةِ الخارجيةِ للقصر. توقفَ محركُ السيارةِ، لكن لم يترجلْ سائقُها. أشعلَ سيجارتَهُ في توترٍ بالغ. وأخذَ أنفاسًا عميقةً متتاليةً منها في نَهَمٍ. مسمرةٌ نظراتُه تراقبُ بوابةَ القصرِ.. ينتظرُ خروجَها بحرقةٍ. مضى أكثرُ من نصف ساعةٍ في هذا الانتظارِ المحرقِ للأعصاب، قبلَ أنْ يظهرَ شبحُ امرأةٍ يَعْبُرُ من فُرْجَةٍ يسيرةٍ في البوابة، لم يكنْ عسيرًا عليه أنْ يستنتجَ أنَّها هي.. لكنْ حينَ حاولَ أنْ يقرأَ تعبيراتِ وجهِها كي يطمئنَ قلبُهُ، لمْ يفلحْ. فلمْ تَدَعْ لهُ ظلمةُ الليلِ، ولا إضاءةُ الشارعِ الخافتةِ أيَّ فرصةٍ لذلكَ.

أدارَ محركَ السيارةِ، جلستْ بجواره دون أنْ تُحْدِثَ صوتًا. دون أن يتبادلا حرفًا. انطلق يعود بها.

كانَ قدْ مضى بالفعل أكثرُ من ثلاثة أشهرٍ على آخر مكالمةٍ بينهما، يتذكرُ نبراتِ صوتِها حينَها، وهي تكادُ تقفزُ من فرط نشوتِها والفرحةِ، وضحكاتِها السعيدةِ، وهي تهاتفُهُ، كانتْ عباراتُها كلماتٍ مبعثرةً غيرَ مفهومةٍ. لكنْ نغمُ الفرحةِ كانَ كافيًا لإيصال المغزى. وبقيتْ آخرُ كلماتِها محفورةً في ذاكرته، لا تُنْسَى:

-" لقدْ وجدتُه، ووجدتِني"

كانتْ، بالنسبة إليه، مفاجأةً من العيار الثقيلِ، لمْ يكنْ ليتوقعَها قطُّ. بالرغم من أنَّهُ بالطبع سعيدٌ من أجلها، المفاجأةُ جعلتْهُ يعيدُ حساباتِهِ في كثيرٍ من الأمورِ.. يحاسبُ نفسَهُ على سنوات العمرِ المهدورِ تحتَ عجلاتِ يأسٍ مهترئةٍ.

لوهلةٍ كادَ أنْ يصدقَ أنَّ المستحيلَ جائزٌ، عليك فقط أن تدفعَ الثمنَ كاملًا ومقدمًا.

ظلتْ تلك النشوةُ الروحيةُ تعانقُ روحَهُ المتعبةَ طيلةَ ثلاثةِ الأشهرِ الماضيةِ حتى أفاقَ من نومه على صوت رنينِ الهاتفِ المتواصلِ. وصوتُها المتهدجُ، يبعثرُ عباراتٍ غيرَ مكتملةٍ، تتكسرُ أحرفُها على أسِنةِ شهقاتٍ متواليةٍ. حاولِ تهدئتَها كي يستوضحَ الأمرَ، لكنَّه فشلَ في ذلكَ. فقاطعَها بحزم سائلًا:

-هل أحضرُ كي أعيدكِ؟"..
فأجابتْهُ متوسلةً:
-أرجوكَ.. أسرعْ..
أيقنَ أنَّ النهايةَ الحتميةَ المتوقعةَ قدْ وقعتْ أخيرًا.
لمْ يحتملْ بكاءَها وصوتَ نحيبِها. فلمْ يدرِ بنفسه إلا وهو ينطلقُ بأقصى سرعةٍ تسمحُ بها سيارتُهُ المتهالكةُ عَبْرَ الشوارعِ التي تكادُ تكونُ خاليةً من زحام المارَّةِ والسياراتِ في تلكَ الساعةِ المتأخرةِ من الليل. طوالَ الشهورِ الستةِ الماضيةِ كانَ ينتظرُ ذلكَ الاتصالَ، ما دامَ قدْ اعتبرَ أن ذلك تلك هي النتيجةُ الطبيعيةُ لتلك التجربةِ العجيبةِ التي كانتْ قد قررتْ بمحض إرادتها أنْ تخوضَها.. تجربةٍ ساعدَها هو في تنفيذها، ألقى بها بنفسه في غِمارها.. وهو ليس لديه أدنى شكٍّ في النتيجة الوعْرةِ التي ستجنيها على نفسها، والخسارةِ الفادحةِ التي ستلاحقُها باقي عمرِها.. ورغمَ ذلك وافقَ على مساعدتها، على أن يلقيَ بها في الجحيم، بينما يظلُّ هو منتظرًا،بجوار الهاتف، مكالمةً تعلنُ النتيجةَ المنطقيةَ الوحيدةَ، فيأتي كما يأتي الآنَ، كي يحملَ الجثمانَ ويعودَ به.
لذلكَ حينمَا رنَّ الهاتفُ لأول مرةٍ منذُ ثلاثةِ أشهرٍ ليعلنَ نشوتَها وانتصارَها.. أقرَّ لنفسه بالهزيمة.. ولمْ يحتملْ ذلكَ.
فهل أعادَ اتصالُها الليلةَ ثقتَه بنفسه؟ هل أعلنَ هزيمتَها وانتصارَه؟
لمْ يشعرْ به كانتصار.. فإن كانَ فوزًا حقًّا فَلِمَ يشعرُ بمرارةٍ لا توصفُ تتصاعدُ من جوفه، ويبتلعُها مرغمًا؟!!
أتكونُ صحوةَ الضميرِ؟!..
أوشكَ على الاقتراب من ميدان التحريرِ بوسط القاهرةِ، حتى صارَ لا مفرَّ الآنَ من السؤال:
-إلى أينَ؟
سألها في حيرةٍ وشفقةٍ..
أجابتْهُ بعيونٍ تملؤها الدموعُ، وصوتٍ ضعيفٍ:
. لا أدرى، لابيتَ ليَ الآنَ.
و عادَ الصمتُ من جديدٍ، حتى قطعتْهُ قائلةً في استسلامٍ مريرٍ منها لقدَرٍ مزعومٍ:

-وصلْنِي إلى ريهام، بيتُها قريبٌ من هنا.
انفعلَ بشدةٍ، وفارتْ الدماءُ في عروقه حينَ سمعَ الاسمَ، وصرخَ في وجهها دون مبررٍ واضحٍ:
-كفاية، كفاية.. أرجوكِ. ألا يكفيكِ ما أنتِ فيه بالفعل؟ أليستْ هي السببَ؟ ماذا تريدينَ هذه المرةَ؛ أن تغرقي بجد وبلا أي أملٍ في العودة؟! يبدو أنكِ فقدتِ عقلكِ تمامًا.
شعرَ بالندم سريعًا إزاءَ طريقتِهِ الفجَّةِ، حاولَ أنْ يُلَطِّفَ منها قليلًا دون أنْ يتراجعَ عن رأيه، فاستكملَ حديثَهُ قائلًا:
-دُرَّة، كفاية لعبة واحدة، ربنا وحده يعلم هل ستنتهي على خير أم... العمرُ لا يحتملُ أكثرَ من ذلكَ.
أنهى جملتَهُ السابقةَ بزفيرٍ حارٍّ، وعادَ ليكملَ بنبرة صوتٍ خفيضةٍ هادئةٍ:
-ستقيمينَ عندي حتى تستريحي ثم تعودي إلى أهلكِ.
-لا.. بالطبع لن أعودَ.
فضَّلَ ألا يجادلَها الآنَ، إشفاقًا عليها من شدة الهوانِ البادي على ملامح وجهها. فتراجعَ قائلًا:
-على العمومِ هذا الكلامُ سابقٌ لأوانه، استريحي أولًا. سأوصلُكِ إلى منزلي، وسأبيتُ عندَ أحدِ معارفي. أيناسبكِ ذلكَ؟"
لمْ تجبْهُ بشيءٍ. واصلَ طريقَه إلى البيت.

أدارَ المِفتاحَ في "كالون " بابِ الشقةِ. لمْ يكنْ ينوي أنْ يدخلَ معها كي لا يوترَ أعصابَها أكثرَ، لكنَّ حالتَها المُزْرِيةَ جعلتْهُ يترددُ في الذهاب..
أضاءَ نورَ الشقةِ، ليكشفَ عن صالةٍ متواضعةِ الأثاثِ. وارتمتْ هي على أقرب كرسيٍّ.
-سأذهبُ لشراء عَشاءٍ، هل تريدينَ أي شيءٍ أحضرُهُ لكِ؟
لمْ تجبْهُ، لمْ تنظرْ حتى إليه. كادَ أنْ يتحركَ لولا أنْ شعرَ بيدها الواهنةِ المرتعشةِ تُمْسِكُ بيده. ركعَ على ركبتيه أمامَ الكرسيِّ، فحاذَى وجهَها، يسألُها بنبرةٍ خفيضةٍ هادئةٍ، يحتملُها جسدُها الواهنُ:
-هل تريدينَ أن تخبريني بشيءٍ قبلَ أنْ أذهبَ؟

لمْ تدرِ بِمَ تجيبُهُ، لمْ تستطعْ أن تتمالكَ نفسَها أكثرَ.. اندفعتِ الدموعُ غزيرةً تحتشدُ في مقلتيْها حتى انفجرتْ بالبكاء، واختنقتْ الكلماتُ والعباراتُ بداخلها. أرادتْ أنْ تعترفَ لهُ أنَّها قدْ انهزمتْ بالفعل، لكنْ ليستِ الهزيمةَ التي يظنُّها. أرادتْ أنْ تخبرَهُ بانتصارها في معركتها، وأنَّها قدْ حققتِ الهدف.
لكنَّ حالتَها الراهنةَ شديدةُ الإعياء، لمْ تكنْ لتساعدَها على الكلام..
شعرتْ بأفكارها وكأنَّها كلابٌ مسعورةٌ تكالبتْ عليها تنهشُ لحمَها..
مشاعرُها المتناقضةُ تعصفُ بكيانها الهزيلِ..
يداها ترتعشانِ بشدةٍ
البردُ يزحفُ إلى أطرافها..
شفتاها ترتجفانِ..
أهو الخوفُ؟
أم الحبُّ؟
أم لهيبُ الشوقِ تراه قدْ اندلعَ من الآنَ؟
لاتدري..
أم تُراهُ الندمَ، والحسرةَ ؟
راحتْ تتمتمُ:
"ماذا فعلتُ بنفسي؟"
اشتعلَ السؤالُ يُجْهِزُ على البقية الباقيةِ منها.
-هو..
هى..
" بل أنا المخطئةُ.. "
ارتجفتْ حروفُها بينَ شفتيْها..

غالبتْها الدموعُ، ورغمَ أنَّ السؤالَ يُدْمِي، فإنَّها سألتْهُ بصوتٍ مرتعشٍ:
-هل صرتُ عاهرةً؟!
-بالطبع لا.. لا.. لا تقولي هذا أبدًا.
اندفع في الإجابة، وقلبُهُ يتمزقُ من حالها، ودَّ لو انشقتِ الأرضُ الآنَ وسحبتْه إلى جوفها؛ كي لا يراها هكذا.. ولا يسمعَ منها أكثرَ من ذلكَ..
-ارتاحي أرجوكِ، أنتِ أعصابكِ مرهقةٌ..

لا يعرفُ ما القولُ الصائبُ الآنَ الذي يمكنُ أنْ يريحَها به ليقولَه. اقتربَ قليلًا منها في خطواتٍ حذرةٍ، كي يبثَّ الطمأنينةَ في كِيانها المرتجفِ. ثم سألَها:
-هل................
قطعَ السؤالَ بحزمٍ صوتُ ارتطامِها بالأرض، لحظةَ أنْ فقدتِ الوعيَ.

***

جفوني ثقيلةٌ..
وجدتُ صعوبةً بالغةً في تحريكها، كي أفتحَ عينيَّ، حاولتُ عدةَ مراتٍ بلا فائدة، حتى استجابتْ لي في المرة الأخيرةِ.. فاصطدمتُ بسحبٍ بيضاءَ كثيفةٍ تُغَلِّفُ كلَّ ما حولي. ثم بدأتْ رويدًا رويدًا تنقشعُ وتتلاشَى، حتى السحابةُ الأخيرة التي وقفتْ في مرمى بصرِها مباشرةً، تحجبُ رؤيتي، أغلقتُ عينيَّ وفتحتهما عدةَ مراتٍ متتاليةٍ علَّها تنقشعُ هي الأخرى، لكنَّها لمْ تتبددْ.. دققتُ فيها، فإذا بها يعادُ تشكيلُ خلاياها لترسمَ وجهًا مألوفًا.. حققتُ أكثرَ في ملامحه. نعم، إنَّهُ هو.. بوجهه الوسيمِ، وقامتهِ الممشوقةِ، وجاذبيتهِ التي لا تُقَاوَمُ، والشعورِ الغريبِ نفسِهِ الذي ينثرُهُ دومًا فيمن حولَهُ، ربما جاذبيةٌ.. ربما راحةٌ تتسربُ إلى نفس من يراه.. ربما شيءٌ آخرَ.. لا أدري كُنْهَهُ.
أظنُّها أُلْفَةً..
نعم، هي الألفةُ.. كانتْ أولى مشاعري وخواطري حينَ صادفتُهُ لأول مرةٍ.
وفجأةً انقطعَ هذا الحبلُ الروحيُّ بنبرة صوتِهِ العاليةِ، لن أنسى مطلقًا ذلك الصوتَ المتهكمَ الساخرَ الذي بَدَّدَ نبلَ الصورةِ وجمالَها، وتلاشتِ السحابةُ ليحلَّ محلَها بشخصه، بلحمه ودمه..
دون تحيةٍ أو سلامٍ، سألني في غطرسةٍ وجفاءٍ:
-ما اسمكِ؟
قالَها وهو يدورُ من حولي بطريقةٍ استعراضيةٍ فجةٍ، ممسكًا بالسيجار بينَ أطرافِ أناملِهِ، وينفثُ الدخانَ في بطءٍ ليصنعَ غيمةً غبراءَ من حولِهِ. عيناهُ الودودتانِ استحالتَا وقحتيْنِ، تعمدتَا إهانتي بنظراتهما الفاحصتيْنِ دون خجلٍ.. شعرتُ كأني عاريةٌ تمامًا أمامَهُ. وخجلتُ من نفسي، بل اشمأززتُ من حالي. لوهلةٍ كدتُ أنْ أُنْهِيَ كلَّ شيءٍ، وأتراجعُ.
لكنْ، لا.. ليسَ أمامَ تلكَ العيونِ الوقحةِ..
-ها.. أنتِ، أَ لمْ أوجهْ إليكِ سؤالًا؟ أم أنكِ صمَّاءَ؟

رمقْتُهُ بنظرةٍ ناريةٍ حانقةٍ. ولا أدري لِمَ سعِدَ بها، فأكملَ حديثَه بالنبرة التهكميةِ نفسِها، قائلًا:
-إذنْ، أنتِ خرساءُ؟!
امتعضَ وجهي وتكرمشتْ ملامحي، وأنا أستنجدُ بعقلي صارخةً فيه: "لِمَ لا تسعفُنِي بإجابةٍ أُخْرِسُ بها هذا الحيوانَ؟! "
-أليسَ عيبًا في حقكَ ألا تكونَ على درايةٍ باسمي؟!..
انطلقَ السؤالُ وحدَه من فمي وبنبرةٍ تشبهُ نبرةَ صوتِهِ الساخرةِ..
فتبسمَ لي ضاحكًا، وقال في سرعة بديهةٍ وسلاسةٍ:
-أنا لايعيبُني شيءٌ على الإطلاق. في المرة القادمةِ حينَ أسألكِ سؤالًا، أتوقعُ أنْ تتخليْ عن نصاحتكِ تلكَ وتجيبي إجابةً بسيطةً واضحةً، مفهوم؟
صفعَها ردُّهُ الوقحُ. منْ هذا الكائنُ كي يتعاملَ معي بتلك الطريقةِ؟ من يحسبُ نفسَهُ؟!
-الآنَ، سأعيدُ السؤالَ مرةً أخيرةً؛ لأتأكدَ مِنْ أنكِ تفهمينَ كباقي البشرِ متوسطي الذكاءِ. ما اسمكِ؟
و بمنتهى العجرفةِ، أضافَ:
-بماذا أناديكِ حين أرغبُ في ذلكَ؟
" إنَّهُ الشخصُ الأفظعُ على الإطلاق على وجه البسيطةِ، أظنُّ أن هولاكو بجواره يصبحُ ملاكًا " حدثتُ نفسي بهذا. رغم ذلك يمنعُني كبريائي من الانسحاب.
"تبًا، لعنادي، وتجربتي اللعينة. هو يريدها حربًا، فله ما يريدُ. ".
أجبتُه بنبرةٍ طائعةٍ مفتعلةً:
-دُرَّة، اسمي دُرَّة.
-ثلاثي، ألمْ يعلمكِ مدرسُ الابتدائي أصولَ الإفصاحِ عن اسمكِ،أنْ تجيبي به ثلاثيًا؟!
قالَ عبارتَه السابقةَ بنبرة صوتٍ هادئةٍ، تُقَطِّعُ الكلماتِ كَمَنْ يلقنُ، طفلًا صغيرًا، الدرس.
ابتلعتُ إهانتي بصعوبةٍ بالغةٍ، ثم أجبتُ:
-دُرَّة عزيز الجواهرجي.
فأومأَ برأسه، قائلًا:

-جميلٌ، اسمٌ مميزٌ!
-اسمٌ على مُسمًّى، هكذا أنا أكونُ.
تحدثتُ بثقةٍ، وبنبرة تحدٍ.
-ربما، لكنهُ الآنَ ماضٍ. لومي غباءَكِ أو غرورَكِ، ربما لديكِ حالةُ تخلفٍ عقليٍّ في مراحله المتأخرةِ. مهما كانَ السببُ الذي دفعكِ لتلكَ الحماقةِ. لمْ يعدْ يهمُّ؛ لأنكِ الآنَ هنا، وملكي أنا. تكونينَ كيفما أريدُ.. وقتما أريدُ.. بمزاجي.. أنا.
رغمَ غضبي الشديدِ منهُ، ورغبتِي العارمةِ في أن أصرخَ في وجهه: " إنَّهُ ليس غبائي هو الذي قادني إلى هنا أيها الأحمقُ بل لأني ثائرةٌ.. ثائرةٌ على أمور لا يفهمُها أمثالُكَ. أبحثُ عن معانٍ لا تستوعبُها تلكَ الصفيحةُ الفارغةُ التي تقعُ أعلى كتفيكَ".
حاولتُ أن أضبطَ أعصابي قدْرَ المستطاعِ، وأنا أصححُ له :
-يبدو أن محاميكَ لم يُفْهِمْكَ شيئًا مُهمًّا، أنا هنا كي أكونَ ما أريدُ وليسَ ما تريدُ. هذا هو الغرضُ الرئيسُ من كلِّ هذا.
ثم غمغمتُ : "أيها الغبيُّ"
-دعْكِ من هذا الكلامِ المُنَمَّقِ. اشتريتكِ أم أنا مخطىءٌ؟!
أذهلتني وقاحتُه، وتلك البساطةُ المستفزةُ التي يتحدثُ بها، أعجزتْني عن الردِّ. فاستكملَ نيابةً عني، قائلًا:
-ماذا توقعتِ مني أنْ أقولَ؟ هذه هي الحقيقة.. أنتِ هنا ملكي.. بتعبيرٍ أدقَّ جاريتي.
-لمدة عامٍ واحدٍ فقط.
اندفعتُ قائلةً بحزمٍ، انفجرَ معه ضحكاتُه:
-وهذا يكفيني.. بل أكثرُ من كافٍ..
-أنتَ مستفزٌّ.
انزلقتْ مني الجملةُ دون تفكيرٍ. فكفَّ عن الضحك مرةً واحدةً مثلما بدأ.
وقالَ بنبرةٍ هادئةٍ تمامًا:
-وأنتِ بلا صبرٍ ؟ توقعتكِ مثيرةً وجريئةً أكثرَ من ذلك؟
قالَها وهو يتحركُ مبتعدًا، وقبلَ أن يختفيَ تمامًا من المشهد، حانتْ منه التفاتةٌ، ألقى إليها نظرةً أخيرةً، وأضاف قائلًا بصوتٍ مشحونٍ بخيبة أملٍ حقيقيةٍ:

-فعلًا توقعتكِ مثيرةً أكثرَ من ذلك. يبدو أني سأسأمُ منكِ سريعًا.
ألقى تهديدَه الأخيرَ، وتبخرَ تمامًا.
وقعتُ على الكرسيِّ.. تغلي بداخلي كلُّ الأفكارِ وتتصارعُ المشاعرُ المتناقضةُ كافَّةَ.. بينَ عجرفةٍ ووقاحةٍ لم أعتدْ عليهما، وبين حلمٍ وتجربةٍ لستُ مستعدةً بعدُ أن أتراجعَ عنها.
ما هذا الكائنُ البلاستيكيُّ المشاعرُ اللزجُ؟!
كيفَ جرؤَ على التحدث معي هكذا، منْ أينَ ابتاعَ كلَّ هذا الكمِّ من الوقاحة؟
بأيِّ عقلٍ استطاعَ أن يجردَني بكلمةٍ من حريتي، ويهينَني بنظراته الوقحةِ. ثم يتركَني في النهاية خائفةً فزعةً من أن أفقدَ تلك العبوديةَ؟!!..
ما هذا؟ أهو بشريٌّ مثلُنا؟!!..
شعرتُ لحظتَها أني طفلةٌ عنيدةٌ تشبثتْ بقطعة حلوى لزجةٍ بينَ أصابِعها، الكلُّ يشيرُ لها مُحذِّرًا من العاقبة، لكنها تنظرُ إليها باشتياقٍ غريبٍ، لا تقوى على إفلات تلك المغامرةِ. " اعترفتُ لنفسى بهذا".
رغمَ غضبِي وتيهِي، فإنني لا أستطيعُ التراجعَ عن غايتي، بل سأضيفُ لها رغبةً أخرى، سأعمل جاهدةً على تحقيقها، وهي أن أكسرَ أنفَ هذا المغرورِ المتغطرسِ أيضًا.
لكن أبدًا لن أعودَ من حيثُ أتيتُ.

*****

الفصل "٢"
البداية..

للوهلة الأولى حين تُلقي نظرةً عابرةً على تلك البقعةِ السكنيةِ التي أقطنُ فيها، وعادةً لا يحتاجُ الناظرُ إلى التفكير طويلًا، أو إلى اختلاس النظر مرتينِ، كي يطلق حكمًا عامًّا - لا ألومُهُ عليه، بل أظنُّ مثلَه كثيرًا:

" هؤلاء الساكنونَ لا يعيشونَ، فقط يأتونَ إلى الدنيا يكدُّونَ ويكدحونَ. وعادةً ما يعملُ جميعُ أفرادِ الأسرةِ حتى يوفروا الفتاتَ لأنفسهم، ثم فجأةً يرحلونَ، لا يبكيهم أبناؤهم، لا يحزنون. الحزنُ رفاهيةٌ لا يملكونَ ثمنَها. وشعورٌ.. ربما جائزٌ لأصحاب القبورِ، أما هم.. فلا. لا يقامُ لهم وزنٌ.. لايشغلونَ أذهانَ الناسِ عادةً.. لا يهمُّ إنْ كانتْ المياهُ تصل إلى بيوتهم أم لا؟! إن كانتِ الكهرباءُ تنيرُ بيوتهم أم هي معتمةٌ؟ !.. بل راحَ البعضُ يتفلسفُ قائلًا: إنَّ انقطاعَ النورِ عنهم رحمةٌ لا عقابٌ، فربما لو أبصرُوا أعشاشَهم وأحوالَهم لَماتُوا من الغمّ. لا أحدَ يشغلُ بالَه كثيرًا، إنهم يعيشونَ بينَ أكوامِ الزبالةِ، بل يتخذونَها معْلَمًا، يميزونَ به بيوتَهم.

***

" بعدَ أن تعبرَ الكوبري، امشِ في الطريق على طول، ستجدُ مقلبَ زبالةٍ على يمينك، تجاوزْهُ ببضعِ خطواتٍ، ستجدُ كومةً صغيرةً أخرى على يمينك، عندئذٍ سيكونُ بيتُنا على اليسار".

هذا صوتُ أمي تصفُ العنوانَ لقريبٍ لنا، لن يأتيَ لزيارتنا أبدًا. ورغمَ علمِها بذلك فإنها تعيدُهُ باستمرار في كلّ اتصالٍ هاتفيٍّ، وفي كلّ مناسبةٍ اجتماعيةٍ تفرضُ على الأقارب الاتصالَ.

"يا هانم، تعاليْ ضعي هذا الوردَ في الزهرية، رائحتُه زكيةٌ جدًّا ومميزةٌ اليوم".

يناديها بالهانم صفةً وليس اسمًا. ويُقَرّبُ بوكيه الوردِ من أنفه، ويأخذُ نفسًا عميقًا في استمتاعٍ جليٍّ، ومستفزٍّ، في الوقت نفسِهِ، لأمي، مرددًا "الله"!

هذا كانَ صوتُ أبي الغالي.. عزيز الجواهرجي..

هو أحدُ الأشخاصِ الذينَ تربُّوا في بيوتٍ واسعةٍ جميلةٍ، وحيٍّ نظيفٍ تظللُهُ الأشجارُ وترفرفُ فيه نسائمُ الهواءِ، تزورُهُ الطيورُ طوالَ النهارِ. حيٌّ جميلٌ من أحياء حدائقِ القُبَّةِ متوسطُ الحالِ، لكنْ ما كانتْ تملكُهُ تلك البيوتُ وقتَها كانَ يكفيها عن طيب خاطرٍ. تربَّى أبي في نعمة السترِ والعزةِ. لم يتطلعْ يومًا إلى نعمةٍ في يد الغيرِ، أرادَ السترَ لنفسه ولأولادهِ فقط، ولا شيءَ أكثرَ من ذلك.

لكن اضطرتْهُ الظروفُ إلى التنازل عن ذلك القليلِ؛ لأنه ببساطة رجلٌ مسالمٌ لا يقاتلُ..

تركَ شقةَ عائلتِهِ التي نشأَ فيها- وأقامَ بها بعدَ الزواجِ- لصاحب البيتِ بعدَما كسبَ القضيةَ جورًا، وأجبرَه على الإخلاء الفوريِّ؛ بحجة أنه ينتمي للإيجار القديمِ. وبالطبع لم يكن ليرضيَهُ أيُّ زيادةٍ في الإيجار عرضَها عليه أبي. فصاحبُ البيتِ لديه مطامعُ عظميةٌ تتعدى حدودَ ميزانيتِهِ الشهريةِ المتواضعةِ.

وإن كانت في يوم ما تكفي، عن طيب خاطر..

لم يتبرمْ أبي كثيرًا، بل نزح بعروسه إلى حيِّ الهوامشِ، وهو حيٌّ قريبٌ ومجاورٌ لحينا الأصليِّ. يفصلُ بينَهما فقط كوبري مشاةٍ علويٌّ، ومسافةٌ لا تستغرقُ أكثرَ من ١٥ دقيقةً سيرًا على الأقدام. ليلتَها بكتْ أمي بحرقةٍ، وندبتْ حظَّها العاثرَ الذي ألقى بأبي في طريقها. لم يغضبْ عزيز من نُواحها بل حاول استرضاءَها، قائلًا:

-لن يختلفَ الوضعُ هنا كثيرًا عمَّا اعتدْنَا عليه. ويا ستى حين ترغبين في التمشية. اذهبي إلى حينا القديمِ واستمتعي بالخضرة والذكرياتِ الحلوةِ. من يدري ماذا يحدثُ في الغد؟ ربما يفتحُ اللهُ علينا قريبًا، حينَها سأشتري لكِ شقةً فاخرةً في أرقى منطقةٍ بالحدائق، سأكتبُها باسمكِ أيضًا، كي لا يخرجكِ أحدٌ من بيتكِ مرةً ثانيةً، ولا حتى أنا.

قالَها بصدق، ونيةٍ طيبةٍ.. وقبَّلَ رأسَها.

و أتيتُ أنا إلى الدنيا..

دُرَّة عزيز الجواهرجى..

ولدتُ لأنتميَ لتلك الشعبةِ التي خُلِقَتْ حديثًا.

نزحتُ من رحم الغلاءِ والأسعارِ المتزايدةِ، ومظاهرَ شكليةٍ زائفةٍ لتقذفَنَا خارجَ أسوارِ الحديقةِ الوسطى. نقفُ على أعتاب بابِها، متشبثينَ بالأسوار. لا طاقةَ لدينا للبعد، ولا مالَ نملكُهُ للاقتراب. نصلي كلَّ ليلةٍ آملينَ في العودة إلى جنتها يومًا ما.
ويبقى السؤالُ الصامتُ يُطبخُ كلَّ يومٍ ويُقَدَّمُ على العَشاء:
" يا تُرى إلى متى يمكنُنَا الصمودُ ؟ أم ستأتي رياحٌ أخرى تجرفُنا أبعدَ إلى الوراء؟
الغريبُ فعلًا أنَّ كلَّ ما حدثَ لم يغيرْ في أبي شيئًا، لم ينلْ من روحه الحالمةِ، ولا نفسِهِ الراضيةِ. ولم يشعرْ قطُّ بحاجةٍ إلى بذل المزيدِ من الجهد للارتقاء بأسرته. كانَ راضيًا.. لم ير فرقًا كبيرًا في تقلُّب الزمانِ عليه. احتياجاتُه من الدنيا قليلةٌ، يكفيه أقلُّ القليلِ ليرضى.. يجوز أنَّ ذلك جعلَهُ مستسلمًا، لم يحدثْ أن كانَ متنازلًا عن كلِّ شيءٍ. عكس والدتي التي أ فزعَها ما حدثَ وغضبتْ شهرًا في بيت أهلِها، ولولا خبرُ الحملِ لكانتْ طلبتِ الطلاقَ. كنتُ لها كصاعقةٍ أفسدتْ عليها حياتَها وأتلفتْ جميعَ مخططاتِها، وأرغمتْها على العودة إلى أبي دونَ جهدٍ أو محاولةٍ حقيقيةٍ للصلح معه.
قالتْ له يومَ عودتِها وهي مغتاظةٌ:
-محظوظٌ أنتَ يا عزيز، كأنَّ اللهَ يرتبُ لك أمرَك؟
-نعم، أنا محظوظٌ بكِ، وببنت أصولٍ مثلِكِ.
قالَها وصمتَ، ثُمَّ خشيَ أن تظنَّ أنَّهُ يسخرُ منها، فأردفَ سريعًا:
-أنا أعني ما أقولُ.
بعدَ شهورٍ قليلةٍ، كنتُ أنا على الباب وأعراضُ المخاضِ تُداهِمُ أمي دونَ سابقِ إنذارٍ. شلَّتِ المفاجأةُ تفكيرَ أبي، وأصرَّتْ أمي على انتظار أُمِّها حتى تأتيَ وتسعفَها. لم تكنْ تثقُ بصورةٍ كافيةٍ في أنَّ أبي يستطيعُ تدبيرَ الحالِ. لكنْ حينما وصلتْ جدتي إلينا، كانَ رأسي بالفعل قد غادرَ الرحمَ وينتظرُ أحدًا كي يتلقَّاهُ.
صرختْ جدتي في وجه عزيز:
-أفقْ من غيبوبتك، وساعدني في نقلها إلى الداخل.
وبدون إضافةِ كلمةٍ أخرى. كان عزيزُ قد حمل أمي على ظهره في حركةٍ مفاجئةٍ للجميع، بحيث كان ظهرُها مسنودًا إلى ظهره.

وأسرعتْ جدتي تسندُ رجليْها خشيةَ أن أنزلقَ في أيِّ لحظةٍ.
و ركض خارجًا كي يقصدَ المستوصفَ، ويُحْضِرَ أيَّ طبيبٍ. لكن جارتَنا المخضرمةَ استوقفَتْهُ، قائلةً:
لن تجدَ هناك أحدًا، أسرعْ إلى الداية.
و دلَّتْه على عنوانها.
وحينَ عادَ بها كنتُ بالفعل أملأُ دنياهُ صراخًا ممتزجًا بالزغاريد.
نزلتْ دموعُ أبي ساخنةً على وجنتيه من الفرحةِ واندفعَ إلى غرفة النومِ ليطمئنَ على والدتي فوجدَها بالطبعِ خائرةَ القوى تمامًا هامدةً لكنَّها بخيرٍ..
هكذا أخبرَتْه جدتي التي كانتْ تحملُني كأول حفيدةٍ لها من ابنتها الوحيدةِ الغاليةِ، سلمتني إلى أبي بعدَ أن طبعتْ قبلةً طويلةً على وجنتيَّ البنفسجيةِ اللونِ:
-سلمْ على العروسة، ودعْ أمَّها ترتاحُ.
تلقَّاني عزيز بينَ ذراعيْهِ، وأنا ملفوفةٌ في " فانلاته " البيضاءِ الداخليةِ. لم تسعْهُ الدنيا من الفرحة. انتفضتْ كلُّ أعصابِهِ ومفاصلِهِ ترتعشُ من فرط الفرحةِ. جلس على الكرسيِّ المجاورِ للفراش، وراحَ يداعبُ أناملِي الصغيرةَ:
-دُرَّة!
نطقَ بالاسم، وسمعَهُ الجميعُ عدا هو.
-دُرَّة!
نطقتْ أمي بالاسم في استهجانٍ شديدٍ. ثم أضافتْ معاتبةً:
-لقد اتفقْنَا أن نسميَهَا آمال، وأنتَ وافقتني.
بالفعل هذا كانَ الاتفاقُ، بل كانَ اقتراحَ عزيز في الأساس، أن يسميَنِي آمال على اسم جدتي "والدةِ أمي"، كنوعٍ من ردِّ الجميلِ لأهلها ولأمِّها بالأخصِّ؛ شكرًا لها على معونتها الشهريةِ الدائمةِ، والتي تأتي دونَ طلبٍ.
لكنَّ شيئًا ما قد تغيرَ، لحظةَ ما رآني.. هكذا حكى لي عزيز عن يوم ولادتِي.
أقسم لي أنه سمع من يوشوشُ باسمي. أخبرَني أنَّهُ حينَ ضمَّنِي بين ذراعيه. وجدَ أنَّ كلَّ شيءٍ فيَّ يتلألأُ؛ شعري كما قرصُ الشمسِ الساحرِ بلونه المتوهجِ، وبشرتي الحمراءِ المشتعلةِ. شعرَ بشعورٍ غامضٍ تجاهي وإنْ كان ساحرًا ممتعًا.
قال: "إني دُرَّتُهُ النفيسةُ، لا أنتمي لهذا العالمِ.. بل جئتُ زائرةً بأعجوبةٍ ما.. ".

"دُرَّة.. هكذا نطقَ بها لساني دونَ أن أختارَ.. دونَ وعيٍ.. "
بكتْ أمي بحرقةٍ، فأقسمَ لها أنَّ المولودَ القادمَ سيسميه "آمال" أيًّا كانَ جنسُهُ.

***

سنواتُ طفولتي المبكرةُ يمكنُ تلخيصُها في جملةٍ واحدةٍ "أنا وعزيز"، تشكلتُ على يديه، رأيتُ الدنيا بعينيه هو.. وسجلتُ أولى انطباعاتي عن الحياة بكلمته الحالمةِ المسالمةِ..
كان هو عكسَ كلِّ شيءٍ يحيطُ بنا..
عكس الحي المتهالك وبيوته المترنحة، عطره الدائم الذي يغطي على روائح القاذورات التي تحيط بنا من كل صوب.. عذوبة صوته ومعسول كلمته كانت لنا كروان الصباح وأغنية المساء.
عكس السباب وقذائف الشتائم التي يتراشقها الجميع هنا، كان لسان عزيز الذي يقطر حبا وغزلا على الدوام. عكس خشونة الناس من حولنا، كان غزل عزيز لفتاته التي هي أمنا، رغم تململها معظم الأوقات منه:
-لا آخذُ منك سوى الكلام.
ورغم صدها له فإنه لا يتراجع، يميل عليها ويحضنها بقوة، ويضمها إلى صدره، فيتورد خدها من حمرة الخجل، قائلة:
-العيال يا عزيز.
لا يأبه لحديثها، ويستمر..
عكس السلاح الأبيض الذي يتقاتل به شباب المنطقة كل ليلة في شجاراتهم الدائمة على أي سبب تافه غير ذي بال. فقط ليثبتوا لأنفسهم أنهم أحياء. وسرعان ما كانت تفرغ ساحة القتال من اليافعين لتبدأ أمهاتهم اللائي توافدن على عجالة يهرولن من كل حدب وصوب بعدما طار خبر بَدء الاشتباك في الجو. ليبدأن جولة أخرى حيث التشابك الحر بالأيدي وقذائف "الشباشب "المنزلية.
وعند تلك النقطة ينتظر الجميع حضور الأزواج كي يلموا نسوتهم من الباحة، لكن عادة ما يتلكأ الزوج القديم من ذوي الخبرة في الحضور، حتى تفرغ الزوجة شحنتها من تلك الطاقة الفتاكة.

وحده الرجل حديث العهد بالزواج هو من يأتي مسرعا لإنقاذ عروسه، والتي غالبا ما شاركت مجاملة لجارتها. وسريعا ما يندم حينما يعود بها ومازالت شحنات القتال تجري في عروقها.
كانت أوتار العود تدندن في بيتنا كل مساء.
عكس الفحم الذي يوقد في " الغرزة " لتنصهر عليه كل ما تطوله اليد من مخدرات. كان الفحم يُوقد كل ليلة فوق سطح بيتنا كي يسوى الشاي في تؤدة ومهل. يتربع ثلاثتنا – أبي وأمي وبالطبع أنا جالسة في حضن عزيز- على الحصيرة، نسمع لعزيز وهو يدندن على العود وضوء القمر ينير ليالينا. وبعدما يفرغ من وصلة العود، كان يضعه جانبا، ويأخذ رشفات طويلة من كوب الشاي ثم يشرع يحكي لي عن كل شيء. حكايا الشرق والغرب، القريب والبعيد.. حكايات الراحلين والباقين. أقاصيص ونوادر لا تنفد جَعبته منها. لم أكن أفهم الكثير مما كان يقول لكني كنت أعشق سماعها. ثم يصمت فجأة ويطيل النظر إلى النجوم، ويشير لي أن أفعل بالمثل. وأظل أمثل أني أفعل مثله حتى أغفو في حجره.
عكس دوران الساعة، وعجلات الحياة.. كان عزيز..
صديقي، معلمي الأول.. أكسير الحياة..

***

مضت ثلاث سنوات سريعا من عمرنا، ثم حل علينا الضيف الأول.
أختي "آمال"..
لم تأخذ حيزا كبيرا من اهتمام عزيز مثلما فعلت، ولم يهملها كذلك. لكنها كانت محور اهتمام أمي وجدتي، وحديث ساعاتهما. أغدقا عليها كل الحب والحنان والدفء. وتركوني أنا لعزيز الذي تشبث بي أكثر من أي وقت مضى. صرنا نقضي أمسياتنا الساهرة وحدنا، بعدما امتنعت أمي عنها متعللة بآمال الرضيعة التي تخشى عليها من لفحة هواء الليل.
اعترف لي ذات ليلة، بسر تعلقه الشديد بي بأنه حين انتابه الشعور الغريب إياه يوم مولدي " بأني زائرة، لا أنتمي لهذا العالم" خشي عليَّ بشدة، وأتاه هاجس أقلق منامه بأني عما قليل سأرحل سريعا..
ولم يكن يدري أن العكس تماما هو ما يخبئه القدر لنا..

فبعد أن تسللت أختي الصغرى "جميلة" إلى الحياة، "على سهوة" كما قالت أمي عنها. ولم يكن قد مضى سوى بضعة أيام على عيد ميلادي السابع.

و دون أي سابق إنذار..

دون مرض..

دون وجع عدا وجع الأيام..

غادرنا أبي..

فارقنا عزيز، في هدوء تام.. ودون وداع..

كأنه قد أنهى دوره الذي قد خلق خصيصا من أجله. أتى بنا إلى الدنيا ورحل.

لم أبكِ حينها.. بكيت كثيرا بعدها وبعد مرور سنين طوال.

ابتسمت..

وقطعت صرخات أمي المتواصلة وعويلها الذي كاد أن يشق آذان السماء، قائلة:

-كفى.. لقد ارتاح.

قلتها بحزم وفي شبه صرخة لا تتناسب مع سنوات طفولتي البريئة..

وعدت أكررها في هدوء عجيب:

-عزيز ارتاح.. وتركني هنا وحدي..

لم أبكِ.. إنه القدر..

مات عزيز.. صديقي الأول.. وربما الأخير.

*****

الفصل "٣"

الكابوس

غابت دُرَّة عن الوعي أكثر من ثماني عشرة ساعة متواصلة مما استدعى قلق هاشم بشدة، الأمر الذي دفعه إلى أن يظل بجوارها، ويستدعي أخته رقية لرعايتها.

-هل أوقظها؟

سألت رقية أخاها في شك من عدم صواب هذا الأمر.

-أعتقد أنه من الأفضل أن نتركها ترتاح. ربنا العالم بما مرت به.

و أطلق هاشم تنهيدة حارة بعدما ألقى بجملته، لعله يفرغ ما به من قلق وحيرة.

-ماذا حدث لها؟

فوجئ بسؤال رقية المباشر، لم يرحْها بشيء. فاسترسلت:

-سمعت أنها سافرت الخليج من كذا شهر.

حاولت أن تستشف من ملامح أخيها أي دلالة. لكنه بقي على تجاهله. فأضافت، تأكيدا لموقفها وصحة كلامها:

-أنت تعرف أختها آمال، هي من أخبرتني بذلك. أليست غريبة أن تأتي إليك، ولا تعود لأهلها، أكيد قلقون عليها جدًّا. واجب نطمئنهم.

حينها فقط، أصرخ في وجهها:

-لا تتدخلي فيما لا يعنيكِ. هذا أمر لا يخصنا في شيء. الست مريضة وتحتاج إلينا بجوارها. لا تريدين المساعدة، على راحتك.. انصرفي في الحال.

و لعن هاشم لحظة الضعف التي انتابته، وجعلته يستعين بأخته.. وهو يعلم جيدا فضولها الأنثوي الجامح وثرثرتها اللامتناهية..

أشعل سيجارة، ولكزها قائلا:

-فِزّي، اعملي لي شاي.

استجابت لطلبه، وتوجهت إلى المطبخ بعد أن رطنت بعدد من كلمات الاعتراض غير المسموعة. بينما خرج هو إلى الشرفة يستنشق الهواء، يفكر في حل لتلك الورطة. ودَّ لو عرف الأحداث التي ورطت نفسها فيها. ربما يساعده

هذا في تقدير الموقف. خطر بباله أن يتصل به، يستفسر منه الأمر، لكنه لا يعرف كيف جرت الأمور بينهما؟!! قطع حبل تفكيره فجأة صوت رنين المحمول، الشاشة تضيء تعلن عن اسمه. ابتلع ريقه بصعوبه قبل أن يحمل الهاتف ويجيب، حاول تصنع الصوت المحايد الذي لا يعلم شيئا، لكن طارق لم يعط له فرصة اللف والدوران، وقاطع سخافات هاشم قائلا بحزم:

-أكيد هي عندك، أعطني العنوان في الحال.
-طارق باشا، أنا لم أر دُرَّة منذ أن وصَّلتها للقصر عندك؟
-لا وقت عندي لمزاحك السخيف. هي أكيد عندك، لن تذهب إلى بيت أهلها في منتصف الليل، وفي حالتها تلك. وبحثت عنها في كل الفنادق، ولم تستخدم "الفيزا".. إذن أين تكون قد ذهبت؟ لا تعرف أحدا سواك.
لم يعطه فرصة للتفكير أو الإجابة، مكملا:
-أخبرنى عنوانك حالا.
تلجلج هاشم أمام حزم وقوة طارق، وخشي بالفعل أن يؤذيه خاصة أنه يمكنه بسهولة شديدة معرفة العنوان. وحين فتح فمه ليمليه عنوانه، دوَّى صوت صرخة عالية قادمة من الغرفة التي تنام فيها دُرَّة.. وتوالت الصرخات، الواحدة تِلْوَ الأخرى دون انقطاع.. حتى سمعها طارق، وسأل مستفسرا عن الصوت، لكن هاشم كان بالفعل قد ألقى بالهاتف من يديه، وركض إلى غرفة النوم..
أضاء نور الغرفة ليجد دُرَّة تصرخ، غارقة في عرقها.. تنقبض ملامح وجهها بشدة وتتحرك أطرافها كأنها تقاتل وحشا خفيا. ركع هاشم بجوار السرير وحاول أن يفوِّقَها من ذلك الكابوس الجاثم على صدرها. وأسرعت رقية خلفه تحمل زجاجة ماء أفرغتها على وجه دُرَّة مرة واحدة. انتفض جسد ها في عنف، وأفاقت مفزوعة.. احتضنتها رقية حتى هدأ صراخها تماما، وعادت للنوم ثانية دون أن تقول شيئا.

***

رمقتها ريهام بنظرة وقحة من نظراتها الجريئة التي لا تتناسب مطلقا مع كونهما صديقتين، بل كانت دُرَّة حتى وقت قريب جدا تعتبرها صديقتها الوحيدة وشقيقة روحها. في مكان ما غير معلوم الملامح خرجت ريهام تمشي في تؤدة وخطوات واثقة، تقترب شيئا فشيئا من دُرَّة تلك التي شعرت بأنها تقف مشلولة مسمرة في الأرض، لا تقوى على الحراك، حنجرتها خالية من الأصوات، فلا تقوى على الصراخ.. وريهام مازالت ترمقها بتلك النظرات المتفحصة الغريبة، تدور من حولها كأنها تعاين بضاعة ما. ثم مالت على أذنها تهمس:

-لم تدركي أبدا قيمة جسمك هذا وجمالك الطاغي، أعيريني جمالك ليلتين وسأريك ماذا سأجني به.

وانفجرت ضحكات ريهام المجنونة تجلجل في المكان، انتفض لها جسم دُرَّة، وحاول الهروب أو الصراخ لكن دون فائدة تُرْجَى.. فهي مكبلة تماما إلى الأرض..

شعرت رقية -التي آثرت المبيت مع درة- بانتفاض جسدها مرة أخرى، وحركاته العصبية المرتجفة، فاقتربت منها وأحاطتها بذراعيها حتى تطمئنها. هدأت قليلا.. وعادت للسكون والاستغراق في النوم.. لتجد الكابوس في انتظارها..

" تحوم ريهام حولها ثانية، ومعالم المكان المحيط تتغير وتتبدل في سرعة لا تستطيع معها الاستدلال عليه. صوت طرقعة الكئوس تجلجل في الخلفية، وتختلط مع ضحكات ماجنة، ووجوه رجال لا تعرفهم تتكاثر من حولهما.. تفوح منهما روائح الخمر والعطن الذي يزكم الأنوف، تشمئز منه بينما يبدو على ريهام الاستمتاع.

يرتجف جسم دُرَّة بعنف تلك المرة، وتتشنج حركاته بين ذراعي رقية، تلك التي تقترب من أذنيها تتلو بعضا من آيات الله.. لعلها تهدأ..

النظرات الوقحة تغزو الكادر، والأيادي الوقحة تمتد لتلامس أجسادهما "دُرَّة، ريهام" على حد سواء. تبتعد دُرَّة بكل حيلة تستطيع، بينما ريهام تنزلق مستمتعة، تترك الأيادي تنزع عنها ملابسها قطعة قطعة حتى جردتها تماما، لتقف عارية وسطهم تتراقص من النشوة، والشفاه الغليظة تزمجر من حول ريهام يسيل منها اللعاب يسقط ليغرق جسدها.

ودون سابق إنذار تنبش مخالبهم في جسدها العاري فتدميه بلا هوادة، تصرخ ريهام صراخات مدوية مستغيثة بدُرَّة التي لا زالت عالقة في سلاسل إلى الأرض.. لا تقوى على الإفلات مهما بذلت من جهد.

تنفلت من حنجرتها صرخات مكتومة تنطق باسمها "ريهام.. ريهام.. ريهام" بعد "معافرة" شديدة وجهد.. " دُرَّة.. أفيقى".

صوت رقية التي انتابها القلق والفزع، حاولت أن توقظها من الكابوس الذي يبدو أنه لا يكف عن مطاردتها.. وفجأة تُدَوِّي صرخاتها من جديد، ينزاح الغطاء من عليها من أثر ركلاتها العنيفة له.

تتحرر السلاسل التي تكبلها إلى الأرض، فتطلق ساقيها للريح تاركةً ريهام تغوص في وحل من الطين، تغطس بداخله. والأيادي التي استحالت إلى ثعابين تزحف لا تكف عن مطاردتها، وفي كل مرة توشك على ملامستها.. تصرخ بشدة منتفضة لترى رقية ما تقاسيه.

اندفع هاشم مقتحما الغرفة على صوت الصراخ. رفعت رقية رأسها تنظر إليه قائلة:

-يجب أن ننقلها حالا إلى المستشفي

أطلق هاشم زفرة حارة في الهواء بينما يستدير خارجا من الغرفة كي يدبر أمر المستشفى. فإذا بصوت واهن خفيض ينبعث من الأسفل، قائلا في وهن شديد:

-أنا حامل.

كان هذا صوت دُرَّة التي فتحت جفونها لثوانٍ معدودة بصعوبة بالغة كاشفة عن عينين بلون الدم، ووجه شديد الشحوب كأنها خرجت لتوها من القبر.. ألقت القنبلة، وعادت لتغيب بعدها عن الوعي.

خرست على أثر المفاجأة جميع الأصوات في الغرفة، صوت واحد عنيد انطلق في إلحاح، صوت رنين الهاتف، وشاشته الخضراء تكشف عن اسم المتصل بوضوح..

.. " طارق باشا"..

****

الفصل "٤"
"ريهام.. !"

لاندرى حقا كيف تجاذبنا ؟!.. كيف تقاربت عوالمنا ؟!.. فكل واحدة منا تنتمي إلى عالم مختلف، وتتبنى في الحياة فلسفة مختلفة، رغم أن عنوان كل مقاصدنا واحدة. نرتاد نفس الجامعة.. بل نذهب إلى نفس الكلية لنتلقى نفس المواد الأساسية.
كلانا يسكن "حي الهوامش"..
نذهب إلى جامعة القاهرة.. كي نتشارك في محاضرات كلية الاقتصاد والعلوم السياسية..
ولكي تحكم الغرابة قبضتها..
لم نتقابل من قبل في بيئتنا الأولى " حي الهوامش". بل كان لقاؤنا الأول تحت القبة في السنة الجامعية الأولى. بالتحديد يوم تقديم الملفات الدراسية، اليوم الذي يتجمهر فيه الطلاب حديثو العهد بالجامعة وتبدأ رحلة التيه الأبدية، لإتمام الأوراق والمستندات المطلوبة، وبالطبع سداد المصروفات..
في ذلك اليوم، بالتحديد أمام شباك الخزينة، وسط زحام تسديد الرسوم، ما أغبى طلبة السنة الأولى الذين يخشون التأخر في السداد، ويحسبون أن ذلك سوف يودي بهم إلى التهلكة.. وربما يتسبب في الحرمان من الجنة – هكذا كنا نفكر- لذا عادة ما يحرص الطلبة على تسديد الرسوم وَفْقًا للجدول الزمني المعلن عنه. وعلى النقيض تماما يأتي طلبة السنة الأخيرة، الذين لا يسددون المصروفات إلا صباح يوم الامتحانات النهائية.
كنت كأي كائن في السنة الأولى يتبع القطيع وأنفذ ما يملى عليَّ، خاصة أني هادئة أمتثل للتعليمات عادة. لكني للأسف، لست ماهرة في فنون "الطوابير"، فن التدافع والزحام؛ لذا لم أستطع الصمود كثيرا تحت وطأة زحام الطلبة، ووجدت نفسي ملقاة خارج الصف..
عدت في اليوم التالي، لأكرر نفس المحاولة.. وألقى نفس المصير..
يومها رأيت.. "ريهام"..

طوال سنوات الدراسة لم يكن لي أصدقاء على الإطلاق، لم أشعر قطٌّ بأني في حاجة لواحدة. لم يكن يؤرقني أن أجد الجميع يلعبون ضمن مجموعات وشلل. وأبقى بمفردي. عادي لم أستغرب حالي لكن أمي بالطبع فعلت، خاصة أن أخواتي البنات مختلفون عني تماما..
كنت أتعجب كثيرا أتساءل لم الأصدقاء؟.. ما الفائدة من وجودهم في حياة الإنسان؟. كان رأيي أنهم مضيعة للوقت، بدلا من أن يجتهد المرء طوال الوقت يضيع وقته في التسالى مع الأصدقاء !! إما بالحديث عبر الهاتف وإما بالتلاقي والادعاء أنهم يستذكرون دروسهم معا.. كما أرى أخواتي يفعلن، بل كثيرا ما كانت تشب الخلافات والمعارك بينهما وبين أصدقائهما، وحينها يحدث ما لا يخطر على قلب بشر.. فكأن الحرب العالمية الثالثة قد اندلعت في بيتنا..
أولا تطبق الأحكام العرفية.. يجب أن تقاطع الأخت جميع الأصدقاءالذين قد تشاجرت معهم أختها. كنوع من التآزر والتعاضد الأسري. ونظرا لتقارب عمر الأختين كانتا تتشاركان نفس الشلة ونفس الأصدقاء. وبالطبع لا أدري من سنَّ تلك القوانين، لكن هكذا كنت أسمعهم يتحدثون.
ثم ترد الأخت (موضوع النزاع) جميع الهدايا وخطابات الحب التي قد تلقتها من الصديقة (المغضوب عليها)، وتجبر الأخت الأخرى على فعل المثل.
بعدها تبكي الأخت (موضوع النزاع) طوال الليل؛ لأنها تفتقد صديقتها؛ لأنها ببساطة تحبها. بينما تبكي الأخت الأخرى بسبب القهر الإنساني الذي يمارس عليها.
لا تذاكر طوال أسبوع على الأقل؛ لأنها ببساطة مكتئبة وتشتاق إلى صديقتها..
تعزف عن الذهاب إلى المدرسة بدعوى المرض. والحقيقة أنها لاتريد رؤية تلك الخائنة – صديقتها التي تحبها، والتي قد جرحت إحساسها..
الكارثة إذا تصادف بَدء امتحانات الشهر أثناء تلك القطيعة والخلاف، فإننا نعلم جميعا بأن الأختين ستتمارضان ويفعلان المستحيل كي لا تذهبا للامتحان، وذلك لأنهما ببساطة لم تستذكرا دروسهما.

كل ماسبق لا يعني أمي في شيء ولا يحرك لها ساكنا.. لكن عندما يصل الأمر إلى الامتحان، هنا فقط يتحرك الوحش الجسور الذي بداخلها لتبدأ وصلات الأمومة الطبيعية، بَدءًا من الصراخ المعهود في كل بيوت مصر، وصب اللعنات على رأس آمال وجميلة، ورغم أن جميلة عادة ما تكون مغلوبة على أمرها في تلك المعمعة فإنه لا يصح أن تقول ذلك للوحش الجسور أثناء المشاجرة.

فتبكي آمال بحرقة وتأخذ الدنيا على أعصابها، بينما تتسلل جميلة (أختنا الصغرى) فرحةً تتحدث إلى الصديقة (موضوع النزاع)، معتبرةً أن صراخ أمي وشجارها ينهي القطيعة ومن ثم تضع الحرب أوزارها.

انتهزت فرصة أن آمال تنام بجواري ذات ليلة –على غير العادة- سألتها مباشرة السؤال الذي طالما حيرني وأثار فضولي :

-مادمتِ تتشاجرين مع صديقاتك ثم تصابين بالحزن والاكتئاب، ولا يمر أسبوع على الصلح ثم تعاودين الكرة مرة أخرى. ما متعة الصداقة إذن؟ أظنه وجع دماغ لا طائل منه!!

سألتها بفضول حقيقي، وشعرت بصدق السؤال. لذا اعتدلت من نومتها حتى تواجهني، وتنظر إلى وجهي وهي تحدثني، وأجابتني بتلك النبرة الهادئة الحكيمة التي شعرت معها بأن جدتي آمال هي من يتحدث، وليس أختي الصغرى:

-هكذا هي الدنيا، لو ابتعدنا عن كل شيء نحبه فقط؛ لأنه يسبب لنا مشاكل ويصيبنا بالإحباط في بعض الأحيان، سنجد أنفسنا نترك كل شيء خلفنا، سنتخلى عن أحبابنا واحدا تِلْوَ الآخر.. سنترك أحلامنا حلمًا تِلْوَ الآخر، شيئا فشيئا سننسحب من الدنيا. دون أن نشعر بذلك.. نجلس منزوين في ركن قصي، نشفق على الآخرين، بينما نحن من يستحق الشفقة..

-آمال.. من أين لك هذا؟

قلتها بجدية تامة وانبهار حقيقي:

-متى هبطت عليك هذه الحكمة والعقل الرزين؟

فردت عليَّ بمزاحها المعتاد:

-أنا عارفة كل حاجة، لكن مدكنة.

و أعقبت ردها بقهقهة عالية..

حقا أصابتني دهشة حقيقية من جمال ردها، وروعته والمنطق الذي لم أعهده مطلقا في أختي ولا في تصرفاتها، أظن أنه نتيجة احتكاكها الدائم بجدتنا "آمال".. ضحكت للفكرة، وقلت في نفسي: أخيرا، ظهرت على آمال الصغيرة آثار مواعظ جدتي الدائمة.

قطعت آمال الصمت بيننا فجأة، بعدما حسبتها قد غَفَتْ بالفعل، وقالت:

-أنت عارفة يا دُرَّة، عندما نغلق على أنفسها، ولا نسمع لنصح الآخرين. ممكن نأذي أحبابنا ونظلمهم معنا.. ونبرر أخطاءنا بشماعة القدر والأيام. تماما مثلما فعل بابا معنا..

صدمتني جملتها بشدة، ولولا يقيني من أنها تردد كلمات سمعتها، لا تدرك معانيها لكنت ضربتها حتى البكاء:

-من قال لك هذا؟

شعرتْ بانزعاجي الشديد وحِدَّتي. وأدركت في التوِّ أنها وقعت في المحظور، تمتمت بكلمات الأسف وهي تسحب الغطاء على رأسها كي تنام:

-آسفة، لم يكن من المفترض أن أقول لك هذا الكلام. لقد حذرتني جدتي من أن أذكر بابا بأي سوء أمامكِ. أرجوكِ لا تقولي لماما ولا لجدتي..

-لا تقلقي، لا أخبر أحدا بشيء. لمَّا تكبري سوف أحكي لك عن عزيز الحقيقي. تصبحين على خير.

-وأنت من أهله.

ونمت ليلتها أبكي عزيز، وأبكي لأول مرة وحدتي المريرة..

***

"ريهام".... بلطجي صغير..

للوهلة الأولى، حين رأيتها أمام شباك الخزينة، شعرت أنها نِعْمَ التجسيدُ لحي الهوامش بكل ما في الكلمة من معنى ودقة. هكذا بَدَتْ لي ريهام، ولم يختلف رأيي فيها بعد أن تعمقت علاقتنا وتوطدت منذ ذلك اليوم. رغم التناقض الصارخ بين شخصياتنا. لكن أليس معروفا أن المتضادات يتجاذبن أسرع من أي شيء آخر؟.

حينما أُخْرِجْتُ من "الطابور"، وشعرت بعجزي عن الدفاع عن مكاني بينما هي بالفعل كانت قد أنجزت المهمة من بدري، وظلت كي تتعرف إلى باقي أفراد الدفعة، وتُكَوِّنُ صداقات.

تقدمت نحوي في ثقة، وعرفتني بنفسها، وعرضت عليَّ المساعدة. سحبتني من يدي ومشيت وراءها، ثم دنت من الشاب الواقف في أول الصف أمام الخزينة مباشرة. مالت عليه، وهمست له ببعض الكلمات وابتسمت في براءة. والتقطت أذني كلمة " تأمريني" يقولها الشاب في منتهى الود والبسمة تكسو وجهه. فدفعتني كي أتقدم وأقف أمامه في الصف، لأصبح أول واحدة في الطابور. نظرت إلى ريهام مذعورة، أسألها بنظراتي المتشككة: "أأنت واثقة من ذلك؟!".

-أنت شكلك مستجدة في الدنيا، وليس فقط في الجامعة.

أنهت ريهام تعقيبها بضحكة عالية ساخرة من سذاجتي. وحينما علت الاعتراضات من الواقفين في الطابور. أشار الشاب لريهام بأنه سوف يتولى هو الرد، فوجئنا به يقول في حركات تمثيلية لخطبة متقنة:

-ياعالم، زميلتنا وأُصيبت بضربة شمس من الوقفة في الطابور. الواجب أننا نساعدها. خلاص، نزعت من قلوبنا الرحمة.. نكفر بالله.. الناس ضمائرها انعدمت، هنأكل بعض..

و أتبعها بعبارات استغفار، والدعاء على أصحاب القلوب الغليظة منعدمة الإنسانية، والتحذير بأن الأيام دوراة... إلخ. بطريقة درامية زائدة على الحد، لكنها نجحت وعن جدارة في إخراس الجميع. بل وبثت الرعب في الباقين من محاولة التفكير في الأمر، ومدى صوابه.

ابتسمت خفية، ولم أجد غصة في نفسى في أخذ دور ليس من حقى. رغم تعجبي الشديد لما حدث للتو، لكنني كنت سعيدة به، ولا أدري لم؟!!..

سددت الرسوم. وكانت تلك الواقعة هي بداية التعارف وتوطد العلاقة بيننا، "ريهام وأنا.. والشاب المشاغب الذي ساعدنا، هاشم.. "

ثلاثية ساخرة ثائرة..

من كان يصدق ذلك؟!.

لا أحد.

***

لقاؤنا الثانى..
أمام شباك تذاكر المترو، صرخت من الدهشة، وأنا أخبط على كتف ريهام، قائلة:
معقولة، مرة ثانية !.. وأمام شباك أيضا..
استدارت ناحيتي، وهتفت قائلة:
هذه علامة يا مارد.
و ضحكت بشدة، رغم أنني لم أفهم مغزى الجملة لكني ضحكت مثلها. ثم توجهنا تجاه رصيف المحطة بعد أن قطعنا التذاكر. وهي تمسك بذراعي كأننا صديقتان منذ زمن بعيد. ودون أن تهدر ثانية من وقتها، راحت تمد شراع شخصيتها الطاغية، والتي تؤثر فيمن حولها، تفرض حضورها على المشهد. تتحدث وكأن الكون كله يسمع..
تضحك ملء الوجدان.. وكأن ضحكتها تحيي من لايسمع..
كل كلمة تقولها تجسدها بكامل جسدها، كأنها تمثل، لا تتحدث.. لا أظن أن هناك منْ يملُّ حديثها، وقفزاتها المجنونة بين المواضيع، والضحكات الرنانة سواء كانت تعبيرا عن الفرح أو السخرية التي تلقي بها هنا وهناك. هكذا هي..
تلفت الأنظار إليها أينما ذهبت..
تعلن عن وجودها بوضوح جلي..
أخذتني إلى حيز الضوء.. حيث تعيش هي، وحيث لم تطأ قدماي من قبل.
لم أجد بأسا في ذلك، بل وجدتها التغيير الذي كنت أبحث عنه. مؤكد أني لا أريد أن أماثلها، لكني أريد أن أجاورها.. وأرى الحياة بعيون مختلفة، أكثر شراسة.. أكثر جرأة. في سياق حديثها، شعرت برغبة عارمة بداخلها كي تبدأ حياتها العملية، تعجبت من ذلك كثيرا، حاولت أن تقنعني بأن الحياة هي المدرسة الحقيقية، وأن ذكاء الشوارع – ذلك النوع الذي يكتسبه المرء من كثرة الخبرات والتجارب التي يمر بها- هو ما يصنع العظماء. " انظري لأصحاب الإمبراطوريات في مجال المال والأعمال، ستجدين كثيرا منهم لم ينل شهادة عليا، بالكاد حاصل على بكالوريوس من كلية ليس لها علاقة بمجال عمله اللاحق. وأن أصحاب الشهادات وأوسمة العلم هم من يعملون لديهم، يصنعون لهم مجدهم الخاص. ذكاء الشوارع، عزيزتي لن تجديه في الكتب ".

دهشت من فلسفتها تلك التي تتعارض مع الكلية التي انتسبنا لها للتو؛ كلية الاقتصاد والعلوم السياسة.. المكان الذي يصنع فيه القادة، ومن يُرسمون الغد. أناس عقيدتهم العلم ولسانهم دبلوماسي واثق. هكذا كنت أعتبرها، ولهذا اخترتها دون أي كلية أخرى.. كي تصنعني..

***

فوجئت بريهام تخرج "طرحة "من حقيبة يدها، وتغطي بها شعرها. وسط نظرات دهشتي التي تسمرت تتبع حركاتها. فقالت بنفس النبرة الواثقة بينما تعدل من هندامها في المرآة:

-لاتعليق.

بالفعل لم أعلق، لم تكن لديَّ نية من الأساس للتعليق. لكني تعجبت منها بشدة، لاتبدو أنها من تلك الشخصيات التي تخشى من والديها أو تقيم وزنا لمخلوق على وجه الأرض. إذن لم هذا الانفصام في الشخصية؟! لم أجد تفسيرا بعد..

حينما خرجنا من محطة المترو معًا. سألتها عن وجهتها، لأفاجأ للمرة الألف في هذا اليوم أنها تسكن معي في حي الهوامش.. أو بالأحرى، أسكن أنا معها. فهي أصيلة في المكان.

و حينما عدت إلى البيت، تملؤني الفرحة بالتجارب الجديدة التي قد مررت بها اليوم، سعيدة سعادة جمَّة بصداقتي مع ريهام، اندفعت أحكي لأمي عنها. واسترعى الحديث انتباهها حين أخبرتها أنها جارة في المنطقة، وبادرتْ بالسؤال عن العنوان تحديدا، أو عن اسم عائلتها. لم أكن أعرف اسم ريهام كاملا لكن حينما وصفت لها عنوان بيتها، ذلك الذي يبعد قليلا عن بيتنا، عرفتْه في التو، وعرفتْ أهلها، وثارت في وجهي صارخة بهستيريا لا مبرر لها وغير معهودة في علاقتنا معًا، وأمرتني دون نقاش أو إبداء تفسير أن أقطع علاقتنا. شعرت بأن هناك شيئا غامضا في الموضوع، أبعد من كونها تكره فكرة أن تكون لي أنا أو أخواتي صداقات من تلك المنطقة. لكن لم أنجح في استخلاص أي معلومة مفيدة، تعزز من طلب أمي. رغم إحساسي بأن أمي على حق ولديها دافع قوي لطلبها هذا،

لكنَّ شوقي للحياة كان أقوى..

و رغبتي في المغامرة كانت قد استعرت في التو.

الفصل "٥"
الشيطان الذي يسكننا.. ؟

تتوالى أيام الدراسة.. وتمرق السنة الجامعية الأولى في لمح البصر.. دون أن نشعر بأن لها أدنى أثر يذكر..
لم ترو ظمأي..
حتى عندما ظهرت نتيجة الامتحانات، وفوجئت كثيرا بأني الأولى على الدفعة.
لكن لم يغير هذا إحساسي بخيبة الأمل، ولو قِيد أُنْمُلة واحدة.. فما أتيت من أجله لم أجده!
هل هو الطابع التلقيني الذي طغى على كل شيء هو ما يفقدني شغفي بالدراسة؟
أم أن شعوري بأن المواد من التراث العتيق، البعيد كل البعد عن واقعنا اليوم؟
لا أدري ماهية شعوري، وسببه..
لكن في المجمل يمكن وصف حالتي بأنها "متلازمة خيبة الأمل". سعيت طوال الصيف كي أعلاجها وأداوي الشغف الحارق الذي يسكنني بمزيد من الاطلاع والقراءات. وكانت هذه هي الحسنة في كونى طالبة جامعية أني عرفت المكتبة المركزية بالجامعة، ويا له من مكان يبهر العقل! قضيت هناك معظم صيفي.. أبحث عن شيء.. أنا نفسي كنت أجهله..
رحت أنقب عنه.. وبعزم..
اشتقت لريهام طيلة أيام الأجازة السنوية، تشوقت لمقابلتها. أيام الداراسة هي التي كانت تجمع بيننا.. أنا لا أغادر البيت إلا كي أقصد الجامعة. وريهام تحرم على نفسها دخولها أيام الأجازة. لذا مكثنا فترة طويلة دون أن نتقابل.
وكم فوجئت هذا الصباح، حينما دخلت الكافيتريا لأجدها هناك، ويجلس معها هاشم. رحبت بهما في شوق خالص، وصدمني رد فعلها. برود لم أعهده في علافتنا. في حقيقة الأمر لم يكن ترحيبها هو المختلف، لكن كان كل شيء فيها تقريبًا مختلفًا. لم أشعر أنها في كامل وعيها.. عيناها الحمراوان.. لسانها

الثقيل، السيجارة المشتعلة في يدها الأخرى. رجاني هاشم كي أجلس معهما، وقال هامسًا "إنها ليست في وعيها، بعدما شربت كثيرًا طوال الليل".

لم أكن أعرف أنها تشرب.. وأشفقت على حالتها التي يرثى لها، وعرضت عليها أن أصحبها إلى البيت. قاطعتني في عصبية:

-بالطبع، لا..

ساد الصمت بيننا عدة دقائق، قبل أن تقطعه ريهام دون مقدمات، وهي شاردة عنا:

-لماذا نحن شعب منافق حتى النخاع؟! كل واحد منا يستعرض عضلاته وهو ينظر في حياة الآخرين، يعيب على هذا ويحاسب ذلك.. ويمثل الطهر ونبل الأخلاق. إذا تحدث تجلى كأنه ولي من أولياء الله الصالحين. وحينما تدور الرحى، ويُوضع في خانة الفاعل تجده أدنى وأحقر عملا من الشيطان ذاته.

شعرت من نبرات صوتها كأنها ذُبِحَتْ لتوها، ومازالت تفرفر.. نيران تستعر بداخلها. لذا لم أعلق بشيء. وتركت لها الساحة تخرج ما بجوفها. واستكملت حديثها قائلة:

-هذا الحيوان مثلا..

قالتها في هدوء ويسر كأنها تناديه باسمه، مشيرة إلى هاشم:

-هذا الحيوان، وعدني بالزواج، واليوم جاء يقول لي آسف، الموضوع خارج عن إرادتي وإرادتك.. أكبر مني ومنك..

كلام.. وكلام.. وكلام..

جبان..

لو سألتني: هل يحبنى؟؟

سأقول: نعم، واثقة من ذلك. لكني أعشق جبانا.. أتى اليوم يقول لي كلمات مزخرفة بالديكورات.. حتى الحقيقة لا يستطيع أن يواجهني بها..

كانت تسأل وترد على نفسها. ثم استدارت فجأة لترمق هاشم بنظرات نارية غاضبة، فأبعد عينيه عنها وتحاشاها قدر الإمكان، وسألته مباشرة:

-هل تملك الشجاعة الكافية لتقول لنا الحقيقة الآن؟
أجابها بالصمت الذي استفزها أكثر، فمدت يديها نحوه تجذبه من ياقة القميص بعنف، صارخة فيه:
-أجب، كفي جبنا، اعترف بالحقيقة كرجل.
شعرت بأنني لا بد أن أتدخل كي أهدئ الموقف، وندمت أني فعلت، قلت لها:
-اهدئي يا ريهام، لا يصح ذلك، نحن في الجامعة.
فما كان منها إلا أن نهضت من فوق الكرسي صارخة بصوت عالٍ:
-لا أحد يقول لي اهدئي، كيف أهدأ؟ ومن يطفئ النار التي تكوي قلبي؟ ومن يعوضني عن أحلام وأيام بيننا عشمني فيها بالبيت والحب والأسرة.. وكل هذا الهراء الفارغ ؟ الذي مهما كانت البنت متيقنة من أنه كلام وتمثيلية حقيرة تظل تقع في أسرها، يظل فيها جزء صغير جدا وتصدق أنه من الممكن أن يكون حقيقة، اليوم فقط جئت تقول لي آسف.. نحن لا نصلح لبعض.. !!
الغريب في الأمر، رد فعل هاشم.. رغم ثورتها وصراخها في وجهه، إلى أنه لم يحرك ساكنا، لم يكذبها.. لم يحاول أن يبرر أو أن يتنصل من الذنب.. كأنه يعترف به بل يعطي لها الفرصة كاملة لتنتقم منه وتخرج شحنتها فيه، كأنه أبسط تعبير عن أسف حقيقي. شعرت أن في صمته أكبر دليل على صدق حبه الخالص.
و في تلك اللحظة، نهض هاشم وأحاطها بذراعيه. وقبل رأسها وقال لها بنبرة ترجٍ:
-أرجوك اهدئي، أرجوك.. من أجلك أنت؟ أنا خائف عليك والله..
نفضت ذراعيه من حولها، وردت عليه بحدة:
-حيوان.. أنت حيوان.
عاد ليطوقها من جديد، وهو يقول:
-قولى مابدا لك، لن أمانع، لكن اهدئي واجلسي كي نفكر أرجوك..
شعرت بأنها تجاهد كي تتمالك أعصابها. وحكت تفاصيل ما دار بينهما بالأمس. وكيف أنها باحت له بكل شيء عن تفاصيل حياتها وأسرتها، ولم تخف عنه شيئا. كانت تتوقع منه أن يتفهم ذلك ويعده جرأة تحسب لها لا عليها. فور علمه بمهنة والدها، تعفر وكأن لسعته عقربة. لم تحاول أن تنكر سوء أبيها، لكن وما ذنبها هي؟!!.

استهجنت بشدة رد فعل هاشم، خاصة أننا جميعا ننتمي لأسر متواضعة، ولا مجال بيننا "للفشخرة" الكاذبة. ولُمْتُ هاشم على ذلك. لكنه حاول أن يفسر لي بكلام مستتر مبررا موقفه، دون شرح مستفيض- كي يحفظ ماء وجهها- بأن أباها لم يكن ليعيبه شيء في أن يكون عاملا بسيطا في مصنع أو حتى حِرَفيا يعمل باليومية. ومحال أن يوافق أهله على ذلك.

وسط نظرات الحيرة والتعجب، تلك التي ارتسمت على ملامح وجهي، باحت ريهام بالحقيقة كلها ورفعت الحرج عن هاشم:

-أبي، وظيفته أن ينفذ أوامر الكبار، ذلك النوع من التعليمات التي لا يستطيع فعلها أصحاب البدل والياقات البيضاء. يأتيه الأمر فينفذ دون سؤال أو تفكير.. أطلقي لخيالك العنان، أي شيء مقزز، كريه ستجدينه في سابقة أعماله. هو ليس بلطجيا لكنه اليد المنفذة للأعمال القذرة لذوي السلطة والمقام الرفيع. " احرق، اصعق.. كهرب.. " هي أبسط أعماله الروتينية اليومية..

باختصار شديد هو عبد للسلطة والنفوذ..

وآخر الليل يبلع البلابيع المخدرة كي يغط في النوم..

حينما سألته مرة: هل ضميرك مرتاح لما تفعله؟

أجابني في يسر: أنه عمل مثل أي عمل. وهو مجرد منفذ.. وهم الأكابر. إجابة بسيطة لكنها تكفيه كي لا يترك الساقية.

أنهت حديثها، وصمتت طويلا، ولم يعقب أحد. شعرنا جميعا أن الكلام قد نفد. وهدأت نبرات صوتها تماما وهي تختم حديثها، قائلة:

-معك كل الحق يا هاشم. لو كنت مكانك لن أوافق أنا الأخرى.

ثم أضافت بنبرة تهكمية ساخرة:

-هذا زواج ونسب.. عائلات.. والعرق دساس –على رأى المثل- حوارات كبيرة، أنا كنت غبية، ولن أحملك ذنب غبائي..

أنهت جملتها، ثم خطفت حقيبة يدها، ورحلت في لمح البصر. حاولت اللحاق بها لكني فقدت أثرها وسط زحام الجامعة. وعدت إلى هاشم لم يتحرك قِيدَ أُنْمُلة عن موضعه. شعرت بحاجته إلى أن أجلس معه. آثرت الصمت حتى يتحدث هو. ومرت نصف ساعة ساد فيها الصمت تماما قبل أن يقول بنبرة صوت حزينة:

-مجنونة هي.. ! لكني أعشقها بجنون، أعشقها حتى النخاع..
وجدتها فرصتي كي أعبرعن رأيي بصراحة، وقلت له:
-إذن، لماذا تعذب نفسك وتعذبها معك؟ تزوجا.. وانتشلهامن هذا العالم. هي لم تخترتلك الدنيا بمزاجها..
لم يعقب على رأيي، وأكمل حديثه كأنه في عالم آخر:
-الغريبة أنني لا أحكم عليه. ولا أنظر له نظرة دونية مثلما تتهمني ريهام. بالعكس تماما، أنا حزين عليه، وسعيد أني لست مكانه، ولم أوضع في هذا الاختبار القاسي. لا أحد يعلم لو كنت في مكانه ماذا كنت سأفعل. نحن لسنا شرفاء كما ندعي ولا ملائكة، نحن بشر لم نُختبر بعد. لذلك ليس من حقنا إصدار أي أحكام على أي أحد.
رمقتُه بنظرة دهشة. حاولت أن أستوعب ما يقول، بينما هو يفيض شرحا:
-أترين تلك الفتاة التي تجلس هناك؟
سألني وهو يشير إلى طالبة واقفة على بعد عدة خطوات منا، يبدو عليها أمارات الوقاروالحشمة التي تزيد من جمالها.
-ملامحها ملائكية، يبدو عليها الرقة وأنها لا تقدر على إيذاء بعوضة، أتوافقينني على ذلك؟
أومأتُ برأسي موافقة.
-تفتكري، ماذا ستفعل إذا طلب منها صاحب نفوذ عليها أن تسرق مثلا أو أن تقتل؟ ماذا سيكون رد فعلها حيئذ؟
أجبته دون تفكير، قائلة:
لن تفعل بالتأكيد-
-إجابة خاطئة. العلم هو الذي يقر بخطأ إجابتك، أو لستِ من محبي العلوم؟ إذن، فأنت مخطئة وبلا شك..
جميع التجارب التي أجراها علماء النفس على البشر لتحليل السلوك الإنساني في العصر الحديث، أثبتت أن بداخل كل واحد منا وحشا.. شيطانا.. يحتاج إلى أن تتاح له الفرصة كي يصعد على السطح، ويتسلم عنا زمام القيادة.
هل سمعتِ عن العالم ميلغرام؟ تجربته ونتائجها تلك التي أذهلت العالم كله، وصدمت الجميع بنتائجها التي تؤكد أن أي أي شخص يبدو عاديًا

محترما يمكنه أن يرتكب أفعالا شنيعة ومخالفة لضميره تجاه شخص بريء لا يعرفه من الأساس، ويصل به إلى الحدود القصوى من التعذيب فقط إذا شجعه أحد ذو سلطة أو نفوذ على ذلك الأمر.
أي أن تلك الفتاة الوديعة من الممكن أن تتحول إلى وحش في ثانية، وتفعل كل الشنائع لو وجدت الدافع الكافي والمثير الصائب لها. صدقيني، ليس فضلا من أحد منا ولا تكرما على البشرية أنه لايزال قادرا على ضبط أعصابه والتحكم في نفسه، ولم يرتكب جريمة بعد. نحن فقط محظوظون أننا لم نصادف المثير المناسب حتى الآن. لم أبالغ حين قلت إني أشفق على والد ريهام، بالطبع لا أحاول أن أبرر أفعاله وأن أبرئه من وزرها. كل ما أحاول قوله أنه ليس من حق البشر أن يطلقوا أحكاما على تصرفات الآخرين وحياتهم.
إذا كان هو عبدا للسلطة والنفوذ، فيا عزيزتي كلنا عبيد..
لكننا لم نشعر بذلك بعد.
و خذيني مثالا حيا لذلك: أنا لا أمانع أن أتزوج من ريهام رغم كل شيء. لكن الموضوع ليس بيدي، أهلي سيرفضون الأمر تماما، ومهما حاولت أن أقنعهم.. لأنهم ببساطة يتبعون المنطق العام والأفكار الجاهزة التي تملى عليهم. ولئن طلبت من أحدهم أن يشرح لي سببا منطقيا واحدا، فسيعجز عن تكوين جملة واحدة واضحة. سيتهمونني بالجنون لمجرد تفكيري في الأمر. وبالطبع لن أستطيع أن أخفي الأمر عليهم، فمثل تلك الأمور لا تتوارى.. سرعان ما ستتكشف للجميع.
-مادمت بتلك العقلية المتفتحة، لماذا إذن لا تحسم الأمر لصالحك وصالحها وترتبطان؟ أستغربك بشدة؟!
-الإجابة سهلة، أعترف بأني جبان مثلما وصفتني ريهام، أجبن من أن أقف وأدافع عنها وعن حبي لها. أنا أجبن من أن أدافع عن منطقي.. عن وجودي نفسه.
ألم أقل لكِ إننا بصورة أو بأخرى عبيد، لكن بعضنا مازال لم يدرك الأمر بعد.

***

لم يغمض لي جفن ليلتها.. وظللت طوال الليل أراجع شريط الأحداث، وأعيده مئات المرات، لعلني أفهم.. وأجد تفسيرا منطقيا لذلك.
أثار حديث هاشم فضولي كثيرا، وأردت أن أتحقق منه. فكتبت على محرك البحث جوجل "تجربة ميلغرام" لتصدمني نتائج البحث بتفاصيل مثيرة عن تلك التجربة الشهيرة التي أجريت عام ١٩٦١، وكان المغزى منها دراسة طريقة استجابة البشر إلى السلطة. الكل كان يتوقع أنه ربما ٣ أفراد فقط من أصل ١٠٠ فرد هم من سوف يمتثلون للسلطة، ويقدمون على إيذاء شخص بريء تماما ويصلون به للحدود القصوى من التعذيب بالصعق، لكن جاءت النتيجة صادمة؛ إذ إن ثلثي المشاركين قد استجابوا بالفعل، رغم عدم تعرضهم للتهديد. ٦٥% من المشاركين انتهزوا الفرصة كي يخرجوا الوحش القابع بداخلهم.
صعقت بتلك التجربة وصدمتني نتائجها. ثم توالى أمامي العديد من نتائج البحث في أمورٍ وتجاربَ مشابهةٍ عديدة..
"تجربة المصعد" التي تثبت سهولة ويسر انقياد الإنسان نحو المجموع دون تفكير حتى لو في أمر بسيط بديهي، كالأمر الذي حدث بالتجربة، حين يدخل مجموعة من الأفراد إلى المصعد، ثم يديرون ظهورهم إلى الباب– أي عكس المألوف.. وينتظرون رد فعل الشخص العادي محل التجربة، والذي عادة لا يستغرق أكثر من ثوانٍ إلى دقائق معدودة حتى ينصاع للمجموعة، ويقلدهم دون تفكير..
أي أنه بسهولة يمكن أن يتطوع مجتمع بأسره، وتجرجره بعيدا تماما عن هويته وإنسانيته بتلك الحيل الخبيثة..
إذن ما الأمان؟و أين يجده الإنسان؟
وما أدراني أن هذا لا يحدث الآن؟
أما تلك الممثلة الشابة الصربية "مارينا أبراموفيتش"،فقد استوقفتني كثيرا تلك التجربة المثيرة للجدل.. تلك الممثلة التي نعتها الجميع بالجنون وقفت ست ساعات متواصلة بدون حراك أمام الجمهور، وتركت لهم الحرية ليفعلوا بها ما يشاءون، وقد وضعت بجانبها طاولة بها أدوات للاستخدام: سكين، أزهار، مسدس... وغيرها.

في البداية كان الجمهور مسالما لم يفعل شيئا، يرمقها بنظرات الاستغراب، ولم يدم الوضع هكذا طويلا، فما إن أدرك الجميع أنها لن تصدر أي رد فعل، انهالوا عليها، وعنفوها.. مزقوا ثيابها حتى إن البعض تحرش بها..
وبعدما انقضت الساعات الست إذا بهم يفرون من أمامها كالجرذان الخائفة لمجرد أنها بدأت في التحرك!!
ماهذا القرف الإنسانى؟!
طنَّ السؤال برأسي كأزيز دبور لعين.. وحدثت نفسي بصوت عال:
محال أن تكون تلك النتائج صائبة. أكيد، هناك شيء ما خاطئ..
أغلقت اللاب توب بعنفٍ في وجه النتائج. وأنا أردد:
محال أن نكون بتلك الوضاعة..
أكل تلك الطاقة الشيطانية تسكننا، نتحين فرصة غياب الرقيب كي تطفو على السطح؟!!!.

*****

الفصل "٦"
على شفا الهاوية.. !

فتحت دُرَّة عينيها لتجد نفسها ممددة على فراش أبيض، تخرج من يديها خراطيم تنقل لها المحاليل المعلقة. شعرت بدوار عنيف عندما حاولت أن ترفع رأسها قليلا.. فعدلت عن ذلك، وأراحت رأسها ثانية على الوسادة. انتبه من معها بالغرفة لحركتها، فنهض مسرعا إليها، قائلا:

حمدا لله على سلامتك. -

تجاهلته، فاستكمل حديثه:

-الحمد لله، الدكتور طمني جدا. ستكونين بخير، إجهاد عصبي وجفاف على سوء تغذية. يومين راحة في المستشفى، وسترمحي مثل الحصان..

أنهى جملته، وهو يسحب كرسيا ليجلس بجوارها.. لكنها لازمت الصمت..

تحير هاشم في السبيل لفتح الموضوع معها. لكن لا بد من الحصول على إجابة شافية منها. طارق لا يكف عن مطاردته. وهذا كفيل بأن يحطم أعصابه. لذا أخبرها مباشرة:

-طارق يتصل بي في اليوم أكثر من مائة مرة.

لم تعلق، فتابع حديثه:

-هو متأكد من أنك عندي. هو فعلا قلقان عليك.

لم تعقب.. فقال منفعلا:

-دُرَّة، أنت تدركِين أنها مسألة وقت ويعرفون أين نحن بالتحديد؟ سيصلون لعنواني بسهولة شديدة.. ولن يسامحوني على إنكار وجودك عندي أو المماطلة..

-هذا لأنك تعمل لديهم، أليس كذلك؟!!..

خرجت أولى كلماتها في ضعف شديد ونبرة غاضبة في الوقت نفسه، ثم فاجأته :

-لماذا لم تخبرني من قبلُ؟

أطرق برأسه، ولم يدرِ بأي شيء يجيب..

-لماذا تماديتَ في الأمر، وأوهمتني أنك راسلت مجموعة مختارة بعناية من رجال الأعمال والمجتمع، وأن هذا الاختيار كان الأفضل لي على الإطلاق؟!!
لماذا لم تخبرني الحقيقة ببساطة؟!!..
-وما الفرق عندك؟ طلبك ونفذته بالضبط. ما الجرم الذي تلومينني عليه؟ وعلى العكس مما تتصورين، لقد حافظت على حياتك ولم أعرضك لخطر حقيقي. جنونك وتهورك الشديد كان من الممكن أن يودي بك إلى التهلكة.. حققت هدفك، وهيأت لك بيئة لتجربتك المجنونة وفي الوقت نفسه آمنة.. مضمونة. ما الجرم الذي ارتكبته؟
لم تجد في ذهنها إجابة واضحة تفسر بها سبب هذا الغضب الذي يستعر بداخلها.
و قطع حديثهما رنين المحمول.. ألقى هاشم نظرة خاطفة عليه، ثم رفع نظره إليها مستفسرا:
-هل أجيبه؟
فهمت دُرَّة في التو أن طارق هو المتصل. فأدرات رأسها إلى الناحية الأخرى كي لا يلمح هاشم الدموع الحارة الساخنة التي انحدرت على وجنتيها. ناولها منديلا، وحاول تهدئتها بعد أن أغلق المحمول. حاولت أن تتمالك أعصابها قبل أن تسأله:
-لماذا لم تتصل بي ليلتها؟ أو في أى ليلة أخرى بعدها ؟ ألم يساورك القلق؟!!
فوجئ بالسؤال، وتوقيته. وعرف أنه سيفتح الباب على مصراعيه كي تفرغ مشحون ستة أشهر ماضية. مؤكد أن بها أحداثا وحكايات لا تروى.. وهي في أمسِّ الحاجة الآن إلى أن تطلق سراحها كي تهدأ وترتاح..
قالت له، والدموع تنساب من عينيها :
-أتذكر يومها. في أول أسبوع من يناير، كان يوما ممطرا عاصفا بشدة. كأنه كان الأمس..
شردت عيناها تسبح في الذكرى.. ذلك اليوم بأحداثه وتفاصيله نقش بذاكرتها وطبع على الروح..

***

في بداية هذا العام، تحديدا منذ ست أشهر.. انطلقت بنا سيارة هاشم، تطوى الأسفلت تحت عجلاتها المهترئة. نبهته عدة مرات كي يخفف من سرعته. ولم تمضٍ دقائق معدودة على اجتيازنا بوابات إسكندرية، حتى انعطف فجأة في طريق جانبي متخفٍ، لن يلحظه من لا يعرفه مسبقا.. مدق ترابي غير ممهد، مشينا فيه عشر دقائق قبل أن ينعطف مع الطريق إلى مدق آخر، مضينا فيه دقائق معدودة أخرى قبل أن تتوقف السيارة أمام أسوار عالية فخمة مُشَيِّدَة بعيدا عن الأعين والعمران.. تخفي ما وراءها بإحكام شديد..

رمق البوابة، وأطلق بوق السيارة، ليظهر لنا البواب، الذي بادر بفتح البوابة على مصراعيها في اللحظة التي لمح هاشم، والذي استدار نحوي يسألني:

هل أنت واثقة مما تريدين فعله؟ إذا تقدمنا الآن لن نستطيع التراجع بعد ذلك..

رغم حالة الخوف التي انتابتني حين رأيت المكان، وشعرت بمدى جدية الأمر، وأنه دقائق ويفوت آوان العودة، قلت له بنبرة قاطعة كي لا يسترسل أكثر، ويؤذيني تردده وارتعاشه:

-نعم امض، لم أكن أمزح معك محدثة نفسي :"لن أخسر شيء"..

حقا، ليس لدي ما أخسره، وليست تلك الممثلة الصربية"مارينا أبراموفيتش" التي بذلت المستحيل كي تحصل على أجوبتها أفضل مني.

أعطاني هاشم خطا جديدا للهاتف المحمول، حتى أستخدمه في حالة الطوارئ. ثم مضى عابرا بالسيارة البوابات قاطعا علينا المزيد من التفكير والتردد.

فتحت لنا باب القصر، خادمة في كامل هندامها، من قميص أبيض ناصع البياض، وتنورة تعلو الركبة، وشعرها مربوط فوق رأسها يحزمه التاج الأبيض القماشي. يبدو من ملامحها أنها من شرق آسيا. كنت أظن أن تلك المظاهر قد انقرضت من زمنٍ طويل مضى حينما انقرض فكر العبودية من العالم بأسره.. هذا ما دار بخَلَدى حينما رأيتها. قادتنا إلى الداخل، ثم توقفت أمام باب أول غرفة قد صادفتنا على اليمين وطرقت بلطف على بابها. ليجيبنا صوت من الداخل، ويأذن لنا بالدخول.

اصطدمت بوجه عابس منفر الملامح يجلس خلف مكتب شديد الفخامة، قد برز في صدر الغرفة يشغل كثيرا من مساحتها. ارتجفت كل عضلة في جسمي حينما خطر ببالي أن هناك احتمالا أن يكون هذا الشخص الكريه هو الشخص المختار. وكدت أن أطلق ساقيَّ للهروب لولا أن شعر بي هاشم وأمسك بيدي يدعوني للثبات في موضعي. مضى رَدْح من الوقت لم ينطق بشيء، لم يعرف نفسه، بينما يسدد لي نظرات فاحصة شعرت معها كأنه يعريني ويجردني تماما من آدميتي. تحديت نظرته الوقحة بأن حملقت في شيبته، وعلامات الشيخوخة التي قد استبدت بملامحه دون رحمة. ولم أبذل أي جهد في إخفاء اشمئزازي منه. حينها حسم الموقف وقطع الصمت، وعرفنا بنفسه "أستاذ خالد محامي العائلة والمستشار القانوني لشركاتها". شعرت بارتياح كبير لذلك. ثم أشار لنا بالجلوس.

انصرف عنا كلية، منشغلا بمراجعة العديد من الأوراق الموضوعة أمامه. ورغم أني شعرت بأنه يتباطأ متعمدا الإهانة بذلك فإنها كانت فرصة لي كي أتحرر قليلا من توتري الطاغي، وأستجمع شجاعتي الكافية كي أواجه هذا الكائن الذميم حينما يشرع في فتح فيه مرة ثانية. والذي لا شك لدي أنه سيحاول أن يستفزني لأقصى الحدود. دون أن أجد مبررا ليقيني هذا.

ناولني نسخة من العقد، مشيرا لضرورة قراءتي له بإمعانٍ قبل أن أوقعه. وأنه سوف يمضيه نيابة عن الباشا وبموجب توكيل رسمي منه بذلك، أظهره لنا.

حاولت أن أقرأ أول سطوره لكني شعرت بالحروف تتسرب من تحت نواظري، أكاد لا أعرف كيف أجمع أشلاءها كي أُكَوِّنَ الكلمة وأدرك مغزاها.. شعرت بتشتت أفكاري بصورة لم أعتد عليها قط، لم يسبق أن خذلني عقلي على هذا النحو. فملت على هاشم أطلب منه أن ينوب عني في مراجعة العقد ويطمئن إلى أن البنود مكتوبة كما اتفقنا عليها مسبقا، فمن المؤكد أنه الآن أفضل مني حالا.

-أنت دكتورة في الجامعة، أهذا صحيح؟

قاطعنا المحامي فجأة بسؤاله، مستخدما نبرة شك تهكمية، شعرت معها أنه لا يصدق أن هناك إنسانا عاقلا وصل لتلك المرتبة من العلم، يقدم على تلك الخطوة المجنونة المتهورة. ودون أن يكون له غرض آخر مشبوه.

أظن بالفعل أن ما يغيظه لتلك الدرجة أنه لم يستطع بعد كشف النقاب عن نواياي الحقيقية. وأظنه لن يرتاح باله مطلقا.. فأمثال أولئك لا يمكن أن يصدقوا أن البعض شرفاء، ولا يوجد لديهم أجندة خفية، وأن مطلبي في العقد هو بالفعل غايتي الحقيقية. راقتني تلك الفكرة كثيرا أن أرى نظراته الفاحصة تبحث عما هو جلي.. أظنه لن ينام تلك الليلة، ولا في الليالي القادمة، وهو يجهد عقله كي يفهم سري.. وبالطبع لن يصل إلى شيء..
وقعت العقد، النسختين منه، في سرعة أدهشت المحامي. وأنا أتحاشى كلية أن ألمح كلمة به. حتى اسم الطرف الثاني لم أحاول اختلاس النظر إليه.
-اسمحي لي أقول لك أنت جريئة جدا؟
عقب بها المحامي وقت توقيع العقد.
-ليتني كنت.
أجبته في سرعة دون تفكير ثم ندمت على تلك الإجابة التي محال أن يفهم مغزاها الحقيقي. أردت في تلك اللحظة أن أصرخ في وجهه ووجه العالم أجمع، أن أقول كم أنا غاضبة من الدنيا. كأن نارا تلتهمني من الداخل.. تحرق كل ما في ما الدنيا؟ ما عدت أملك لها خريطة.. سقطت كل معانيها.. تذكرت عزيزا وهو يخبرني عن شعوره يوم حملني أول مرة عند ولادتي بأني دخيلة، زائرة من عالم آخر. كيف تسنى له أن يعرف أن هذا سيصبح شعوري في يوم ما..
بأني سأكون زاهدة في الدنيا..
أردت أن أدافع عن نفسي قائلة: أنا لست بجريئة مطلقا، أنا زاهدة فيها.
لم أقل شيئا بالطبع؛ لأن لا أحد كان سيفهم.
-طوال حياتي المِهْنية لم أر حالة شبيهة. أي مجنون هذا الذي يتنازل عن ملكية نفسه لآخر، مهما كان الدافع؟!.. سأتفهم جيدا الأمر إذا تراجعتِ الآن؟
سألني المحامي، فأجبته بنبرة قاطعة:
-ألم نوقع العقد بالفعل.. !!
بدا واضحا أنه يماطل معنا. لم يفلح في إخفاء رغبته الشديدة في أن أنهار في أى لحظة، وأهرب..
-إذن، يتبقى أمر واحد فقط

رن الجرس، فدخل في التو رجل مفتول العضلات، ملامحه صارمة، يرتدي بذلة كلاسيكية أنيقة شديدة السواد، لا تدع مجالا للشك في أنه حارس شخصي. ومعه آخر يرتدي ثيابا عادية متواضعة الشأن، ويحمل حقيبة يد جلدية. جلس الأخير أمامنا على الفوتيه المقابل، وأخرج من حقيبته عقدا آخر، ناولني نسخة منه والأخرى سلمها إلى المحامي.
نظرت إلى المحامي مستفهمة. فأجابنا في التو:
-هذا عقد زواج مدني، يسجل في الشهر العقاري. وذلك كي نستكمل الشكل القانوني للموضوع.
هنا ثارت ثورتي، قائلة:
-لكننا لم نتفق على ذلك.. لم نناقش تلك النقطة من قبل.
-والله هذا شرط أساسي لإتمام العقد. لست على استعداد أن أعرض موكلي لأي خطر. الخلاف وارد.. وعقد الزواج يحمينا جميعا أمام القانون، ما الذي يغضبك منه؟!
تلعثمت فجأة أمامه. لم أعرف تحديدا ما الذي أغضبني، خاصة أن بالفعل هذا العقد يحيمني أنا كذلك. حينها أنقذني هاشم بسؤاله:
-لكن العقد الأساسي مدته عام واحد. ونستطيع فسخه في حال عدم تنفيذ بنوده. في حين أن عقد الزواج يضعنا تحت رحمته.
-أنا آسف. هذا شرطنا كي أؤمن موقف موكلي وأحمي مصالحه، ربما يحدث خلاف –لاقدر الله- هذا أمر وارد. أليس كذلك؟
صمت قليلا وهو يستطلع ملامحنا، قبل أن يكمل قائلا:
-هذه الورقة فقط، كي تحمي موكلي إذا ما وصل الخلاف -مثلا- إلى المحاكم. عدا ذلك لا أظن أنه سيكون لموكلي أي مطامع أخرى.
لم تخلُ نبرات صوته من السخرية المستفزة. غبي هذا المحامي بشدة، ألا يعرف قانون المرأة "لا تتحدَ امرأة غاضبة (ثائرة) قط، فلا يمكن أن يُحسم القتال لصالحك".
هذا ما دفعني إلى التوقيع مباشرة على العقد الثاني، وأنا أرمق هذا المحامي بنظرات التحدى والشماتة في خيبة أمله. التي بدت واضحة جلية على ملامحه حينما دفعت بالعقد ليد موظف الشهر العقاري. أكاد أقرأ أفكاره من تلك النظرات النارية التي راح يرمقني بها، كأنه يسأل:

أي لعبة قذرة محكمة أخفيها في جعبتي ؟!!..

و ددت لو قلت له: " مت بغيظك، لن أريحك مطلقا".

ووقع العقود هاشم، والحارس الشخصي باعتبارهما الشاهد الأول والثانى.

وقضى الأمر..

وفر الجميع في ثوانٍ من أمامي. تركوني وحدي في غرفة المكتب.. لم يودعني هاشم، اختفى فجأة.

استعر السؤال بداخلي:

" هل أنا على قمة الهداية أنشد غاية سامية أم في قاع الجنون أطلبه بفلسفة زائفة؟!!"

سمعت صوت جلبة يقترب، ومقبض الباب يدور.. يوشك أن ينفتح. ولأول مرة أشعر بخوف حقيقي يندفع إلى صدري، وينطلق في ثوانٍ إلى عروقي كافة..

"يكلبش" جميع مفاصلي..

فتربصت عيني بالباب، تترقب الآتي.

*****

الفصل "٧"
الحديقة السرية

حينما اقترب الصوت من الباب، فوجئت بالخادمة تدخل وهي تجر عربة الشاى المحملة بأطباق الحلوى. ويبدو أنها قد استغربت انصراف الجميع وبقائي وحدي. سألتني عن عدد ملاعق السكر التي أحب أن أتناولها، اعتذرت لها مبتسمة بأني لست راغبة في تناول شيء الآن. فتركت كل شيء وانصرفت في الحال.

طالت جلستي وأنا أكاد لا أحرك ساكنا. لا أدري تحديدا كم مضى من الوقت وأنا على هذه الحال، مسمرة إلى الكرسي. تجولت عيناي في الغرفة، تشاغل عقلي بتفاصيلها الدقيقة عن الحرب الضروس التي تدور طواحينها على أرضه. تدمي القلب بأشلاء القتلى المحتملة.. وخيبات أمل منتظرة. راقني المكتب بشدة، بكل ما فيه من عراقة القدم والأصالة، بلونه البني القاتم، والحلي النحاسية دقيقة الصنع. أكاد أجزم أن من ريشة فنان أصيل هي من رسمت تلك الرسومات الناعمة على سطحه بلونها الذهبي الراقي. اندهشت من وجود حاسوب متنقل يحمل شارة التفاحة المقضومة الشهيرة "أبل" في أحد زوايا المكتب، تنافرت حداثته مع جو الغرفة العتيق. وتربعت في الصدارة خلف المكتب مباشرة لوحة زيتية ضخمة تخطف العين بهالتها الباهرة، جمال المرأة التي شغلت معظم حيز اللوحة تجعلك تظن أنها أميرة من زمان مضى. تغمرك إشراقة الحياة التي تطل من عينيها، تكاد تعبر حاجز الزمان وتخترق إطار اللوحة كي تخترق الحاضر بإشراقتها الملهمة. ونظرة عينيها المتوقدتين تنم عن ذكاء مخيف. طلَّت بفستان "سهرة" بلون الليل المرصع بالألماس، وقد انحسر عن كتفيها ليكشف عن جمالها الأخاذ، ويبرز عنقها الطويل وقد تجمل بقلادة نفيسة مرصعة بالياقوت الأحمر افترشت صدرها وحتى ملتقى النهدين. جلست على فوتيه وثير من الأحمر القاني، بينما وقف بجوارها رجل مهيب تبدو أمارات الوقار والعمر طاغية على ملامحه، يرتدي بذلة "سموكن" سوداء، ويلامس كتفيها براحتيه. استغرقتني كثيرا تلك التحفة الفنية الراقية، ووددت لو أعرف أكثر عن صاحبتها.

بينما على الجدار الآخر المجاور للمكتب تراصت العديد من الإطارات الفاخرة فضية اللون التي تحمل صورا تذكارية، تتفاوت في الأزمنة والأماكن، أغرتني كثيرا بأن أنهض وأقترب أكثر كي أطالعها.. ومعظمها جمع بين نفس الشخصين في اللوحة في مواقف عديدة ومتنوعة، بعضها وسط عمال وآلات مصنع، وأخرى في حفلات رسمية ومع شخصيات تبدو هامة. صورة متنافرة تماما مع المشهد المتناسق، تقف على استحياء في زاوية منفردة جمعت بين المرأة والرجل أنفسهما، وبينهما وليد تضمه المرأة كي تطبع على وجنته قبلة، وعيناها مازالتا ترمقان الكاميرا بنظرة أنثى، تدرك كم هي فاتنة.
أعجبت كثيرا بغرفة المكتب بكل ما فيها من تحف وأنتيكات وُضعت بعناية مختارة. لكن أظن أنه طال بي الوقت كثيرا، وأنا متروكة هكذا هنا.. وحدي.. ملأتني الدهشة، وحار عقلي في الفعل، أيعقل أن ينسوني ها هنا؟!!.. ".
حتى الخادمة اختفت تماما ولم تظهر من جديد، ولا أشعر بأي حركة في الخارج، أو أى صوت يرن هنا أو هناك، كأن المكان مهجور، خالٍ من البشر!!..
زقزقت أمعائي من الجوع، رغم ذلك لم أطق أن أضع لقمة في معدتي.. !!
اقتربت من الباب، وتذكرت حينها أن لا أحد طالبني بملازمة الغرفة وعدم المغادرة. أحسب أنها عادة الإنسان الذميمة أن يضع لنفسه عراقيل وهمية كأن العراقيل الحقيقية لا تكفيه.
لم أنتظر أكثر..
فتحت الباب مرة واحدة، واندفعت إلى الخارج.
وجدت نفسي في بهو متسع، مفروش بأثاث عصري، وإن كان لا يخلو من لمسات الأناقة والرقة. غرفة معيشة من الجلد الأبيض الناعم، مفروشة على سجادة من "الشمواه" الأحمر توسطت البهو. بينما تفتحت زهور اللوتس الحمراء والبيضاء في فازة من الكريستال النقي اللامع.
لفت انتباهي وجود سلم يصل إلى دورٍ علوي. بينما تستقر غرفة السفرة أسفل منه، جذبني شكلها المميز، بقوائمها المعدنية التي تنتهي بأربع رءوس سود تحمل قرصا زجاجيا بيضاوي الشكل. ويمتد القائم المعدني بعد ذلك على شكل ذيل أسد متقن الصنع.

نسمة هواء هبَّت على من حيث لا أدرى، تحمل معها روائح عطرة، خُيل إليَّ من روعتها أنها مسك خالص، لم أشم مثيلا لها في حياتى. حتى أني تبعت ريحها الطيب، فزاد عبيرها قربا، وخُيل إليَّ بأن شالا من الحرير المخملي الخالص قد طوقني وحملني عاليا من خاصرتي، بروائحه الخلابة. تلك التي تفتحت لها كل مسام جسمي، وسرى تيار من الدغدغة اللذيذة يداعب أوتاري كافة. يحرر توتري.. لم تترك "إنش" في جسمى حتى زارته.. وارتوى بعبيرها. وطفت محمولة على بساط النشوة وعطور الشذى، غير حذرة.. عابرة رواقا طويلا، انتهى بباب حديدي، فتح على مصراعيه.. فإذا بي في الجنة..

"ياالله.. ما هذا الجمال!! "

شهقت حين رأيت الجمال ماثلا أمامي مجسدا في كل تفصيلة أراها..

للحظة آمنت بوجود عوالم غير عوالم بني الإنسان !!.. أهو الجان من حل على تلك البقعة كي يبذر بذور نباتها ويقلم الألوان؟!!..

حديقة خلابة تلك التي خطفت قلبي بجمالها الباهر، بستان من الزهور فائقة الجمال وتناسق الألوان.. تتمايل في دلال، تتداخل سيقانها كي تتمازج الألوان وتصنع لوحة فنية محال أن ترسمها ريشة فنان.

حديقة داخلية بل سرية محظورة على الأعين، يتعانق فيها كل شيء.. تغمرها الحياة بربيعها الدائم رغم أننا في الشتاء.. لا تكفي الكلمات لوصف روعتها. لا تحتاج لافتة كي تعلن عن مكانها، فعطورها الفواحة تخطفك أينما كنت.. تسحرك.. تسلب لبك.

حقا.. إنها واحة للذة.. كأنها قطعة من الجنة..

داعبت أناملي خدود كل زهرة صادفتها في الممشى. حاولت أن أقدر مساحتها، لكن خانتني عيناي، والذاكرة. كل ما أعرفه عن تقدير المساحات هي مساحة الستين مترا، تلك التي أسكن فيها مع أسرتي، بيتنا في حي الهوامش. أحسب أن تلك الجنة هي ١٠ أمثال بيتنا.. وربما أكثر.. لم يسعفني الخيال.

رسمت على شكل دائري، تحدُّها الواجهات الزجاجية، وتحيط بها من كل الجهات.. وتعلو تلك الأسطح الزجاجية على شكل قوسين يتقاربان دون أن يتماسا. مكونين فجوة في السقف، خمنت أنها لعبور قرص الشمس مباشرة، ولتجدد الهواء.

وراحت أشجار الزينة بديعة التكوين تتماوج غصونها فيما بينها، وتتضفر جدائلها الخشبية، كي تصنع ضفائر حورية تطل علينا من أساطير الإغريق، وتجعلها سورا حاميا للحديقة، يحيط بها ويبطن الجدران الزجاجية من الداخل على شكل نصفي دائرة، يفصل بينهما ممران. أحدهما الذي قد أتيت منه لتوي والآخر يقع في الجهة المقابلة له مباشرة.

و بين ذراعي تلك الضفائر الجدائلية تسكن الزرع والأزهار المتلألئة والورود بألوانها الخلابة المبهرة تصطف على شكل أنصاف دوائر على اليمين وعلى الشمال من كل صنف ولون.. حتى القوس الأخير سكنته أعواد الريحان بعطرها الحالم "طبيب الأرواح" كما أسميتها في زمن الصبا..

بينما في نقطة المنتصف تربعت نافورة المياه الراقصة، لتضفي بقطرها المتناغم لحنا وسيمفونية حالمة.. ثلاثة مجسمات لحوريات البحر، حائرات الوجدان، تائهات النظرات، صنعت من المرمر ناصع البياض، يرفعن بأذيالهن الذهبية طستا شديد الاتساع من البلور الزجاجي النقي. تخترقه من أسفل لأعلى "ماسورة" من الذهب الخالص ينفجر منها شلال مياه، ينحدر مندفعا غير عابئ بتلك الحوريات العطشى، اللائي يرمقن المرء في نظرة اشتياق. لكنه يتركهن وينساب إلى الحوض الرخامي، والذي يرتفع قليلا عن مستوى الأرض. وتخرج منه مزاريب تصرف المياه في متاهة من القوارير الزجاجية الملونة.

ذهلت من جمال النافورة، وجلست على دكة رخامية، صُبت في مواجهة النافورة كي تسمح للزائرين بالجلوس والتنعم بتلك الجنة. أستمع إلى نغمات القطر يتساقط.. يتسابق.. كي يعزف لحنا حالما، يضفي سحرا خاصا على تلك الروضة. حانت لحظة توهج لأشعة الشمس، سطعت في كبد السماء أجبرتني على أن أغمض عيناي فجأة، ثم أفتحمها لأشهق من روعة المشهد الذي أراه..

إذا بقوس قزح الناري.. يشتعل محيطا بالنافورة من كل مكان بألوانه الباستلية المتوهجة. ذلك حينما مرت أشعة الشمس الحامية عبر الطست الزجاجي، والبلورات الزجاجية النقية. فانعكست كقوس ناري من الألوان الخاطفة للأنظار والعقول معا.

صرخت صرخة طفولية، وأنا أصفق بيدي:

"عزيز.. كم أهواك.. !"

وعاودتني ذكرى ذلك الصباح البديع، حين صعدنا إلى سطح البيت معًا " أنا وعزيز" في يوم شتوي، كانت قد ارتفعت فيه الغيوم لعنان السماء، وحجبت السحب الكثيفة أشعة الشمس المباشرة. وما إن وطئت قدماي السطح حتى اندفعت أصرخ صرخات طفولية، وجريت نحو السور المتهالك منتشية بالمشهد، لولا أنه لحق بي عزيز في الحال، وأمسك بي بقوة من خاصرتي، ثم طوقني كي أسكن حضنه لكنت سقطت يومها. ومن كثرة ما كررت تلك الفعلة أسمانى " مجنونته الحلوة".

في هذا الصباح كنت فرحة لرؤيتي السماء مفروشة بألوان عديدة ومشتعلة. أشرت لعزيز كي يلاحظها هو الآخر، ضحك وأخبرني أنه قوس قزح الناري بألوانه السبعة وأخبرني كذلك أنني سوف أدرسه في المدرسة. حاول أن يبسط لي معناه وكيفية تكوينه. وأخبرني أن ما نراه الآن هو نوع خاص، يسمى قوس قزح الناري، يتكون فقط في ظروف معينة كتلك التي تحدث الآن، حين تكثر الغيوم في السماء، وتتواجد بلورات ثلج سداسية الشكل وسط تلك الغيوم. حين تتعامد عليها أشعة الشمس، ينكسر الضوء بداخلها، ويرسم لنا لوحة فنية ملتهبة الألوان.. كتلك التي نراها.

ثم سألني هل فهمت كلامه أم لا ؟ أومأت له برأسي بالإيجاب رغم أني لم أفهم كلامه كاملا. وبقي هذا الصباح لغزا من ألغاز عزيز، تلك التي حيرت طفولتي لسنوات تالية حتى تكشفت معانيها.

ولم يبق عالقا في ذاكرتي من هذا الصباح، سوى أمر واحد لم تفلح السنون في تبديل معناه أن:

"كلما غابت الشمس عن السماء، وكثرت الغيوم. حتما ستأتي إليَّ ألوان مشتعلة بالبهجة ساحرة كي تلون طعم فرحتي".

*****

الفصل "٨"
سيدة القصر

هبت نسمات لافحة تحمل بين طياتها لسعات برد قارصة. عقدت ذراعي أمامي وانكمشت على حالي، لعلني أستمد بعض الدفء، لكن هيهات.. هيهات.. إذا بتيارات الهواء تشتد، والأشجار تتمايل من قوتها، لتعلن عن اقتراب غياب الشمس عن الأفق. وموعد الفقرة الاستعراضية الأخيرة للنافورة الراقصة، التي تختتم بها يومها الحاشد، حيث انطلقت المياه على ارتفاع عشرين قدما تطير في الهواء مندفعة من منتصف الحوض مباشرة ثم انقسمت إلى خطين منفصلين، يتقاطعان أحيانا.. يتماسان كثيرا.. يتلويان، والأضواء تسطع من القوارير الزجاجية في المتاهة أسفل النافورة لتؤدي دورها في الاستعراض. وأخيرا انضم لهما "كورال" من رشقات الماء التي اندفعت من الصنابير الجانبية المتراصة على حافة الحوض. راقبت المشهد وأنفاسي مخطوفة من شدة الانبهار، والماء يرتفع ويعلو للآفاق ليتلوى في رقصته الأخيرة مع آخر نغم لقرص الشمس الراحلة ثم يسقط فيغوص في مصبه بعد ذلك في ثبات عميق.

تركت مقعد المتفرج أمام النافورة. ومضيت في طريقي.. بعدما شيعت البستان بنظرة أخيرة، وأخذت نفسا عميقا من تلك الأنفاس الشتوية الباردة..

انطلق في جسدى كالهشيم في النار.. أشعل جميع خلاياى لتقف على أطراف أصابعها مشرئبة الأعناق متطلعة لما هو آت..

***

تلقاني ممر طويل، فُرش بالبساط الأحمر.. وتزينت جدرانه بلوحات زيتية فائقة الجمال، تبرز أشخاص في غاية الأناقة يتراقصون ويتسامرون في حفلات العشاء والسهرة. شعرت بألفة كبيرة مع اللوحات والشخوص.. دققت قليلا.. ليتضح لي أن تلك اللوحات تجسد نفس الشخوص والأحداث، بل هي بعينها الصور الفوتوغرافية التي رأيتها في الصباح.

فنان حقيقي من استطاع تجسيدها في لوحات زيتية وبلمسات من فرشاته السحرية أضاف عليها رونقا ساحرا، عبر بها حدود الزمن، ليسكنها على شريط الزمان في وقتٍ يسبق زمنها الفعلي بكثير، ليشهد كل من يراها أنها خرجت لتوها من عصر ملكي مضى برونقه الألق.

لم أفهم المغزى من ذلك؟ لكني لم أستطع أن أكتم صيحة إعجابي

وكما الحال في الصور طغا حضور المرأة في تلك اللوحات أيضا. لتصبح سيدة المشهد الأولى.. تخطف عينيك حين تراها.. بعدما أضفت عليها ريشة الفنان أناقة الزمن الملكي وبهاءه، وهالة السلطانات ورقيهن. فدعوتها سيدة القصر، قبل أن أعرف فيما بعد أن هذا هو بالفعل لقبها الأصلى.

وعلى النقيض من كل شيء كانت هناك أيضا تلك الصورة الفوتوغرافية التي تتنافر مع كل ما يحيط بها، هذه المرة يطل منها شاب دون تكلف بمظهر عصري، يرتدي ملابس شتوية، بنطال وبلوفر ويحيط عنقه بكوفية.. جالسا على الرمال الصفراء يتأمل البحر في بساطة ساحرة، ونظراته الشاردة تخترق الأفق المشوب بالحمرة لحظة غروب الشمس.

سرت بجسدي قشعريرة لذيذة حين عبر ببالي خاطر "أيكون هو الشخص المنشود"؟!!..

نفضت رأسي سريعا كي أطرد منها هذا الأمل الواهي. لكن ما لم أستطع طرده عن بالي هو إحساسي بالألفة الشديدة معه. كأني أعرفه بل عاشرته من قبل.. !!!.

***

عالم أسطوري لا أدري كيف نفذت إليه؟!!..

قصر ملكي ربما أو سرايا آمرة.. !!..

هذا ما خطر ببالي حين انتهى بي الممر إلى عالم آخر لا يشبه عوالمنا.. يأتي وصفه مباشرة من كتب التاريخ التي طالعتها –هاهي الآن تنفعني بشيء- عن يميني كانت هناك قاعة كبيرة على الطراز المغربي كسيت جدرانها بالمرايا والبلاط القيشاني، وبركة ماء في وسط القاعة تزينت برءوس الأسود على حوافها، تتساقط المياه من أفواهها.

"تفضلي معى".

إنتبهت على هذا الصوت، الذي يشير لي أن أتبعه. أول صوت أصادفه منذ وصولي لقد كدت أنسى أن هناك من يسكن في هذا القصر الفاخر. التفت إلى مصدر الصوت فإذا خادمة أخرى لكن تلك المرة بملامح أفريقية خالصة، وبشرة سمراء داكنة.

قادتني عبر ممرات عديدة، يفضي كل واحد منهم إلى قاعة منفردة بشخصيتها، تضاهي أختها في الرونق والجمال، تجسد حقبة تاريخية مختلفة، تنقل تفاصيل فنها بزخرفة ولمسات تميزه عن غيره. حتى انتهى بنا المطاف في قاعة دائرية مفروشة بالرخام المرمري ناصع البياض وتتخلله خيوط ذهبية اللون دون انتظام، زينت الجدران والسقف بزخارف هندسية ونقوش مذهبة، إلى جانب الكتابات القرآنية بالخط الكوفي، و تابلوهات الزينة وُضعت بعناية ودقة على كل جدار. وتدلت الستائر من سقف شاهق الارتفاع لتضفي تألقا غير عادي على القاعة. وقد انتصب في وسطها تمثال نحاسي مشوب بحمرة لنمر شرس يقفز في الهواء، بينما فارسة مقاتلة ملثمة الوجه تجلس على صهوته، قابضة بيمنيها على حربة.

" ما أروع ما رأته عيناي اليوم!!، لكن أَ مازال هناك ثراء فاحش لهذه الدرجة؟!!!.. "

تساءلت، والدهشة والتعجب يملؤني.

" حقا، إنها أرض المتضادات.. !!"

" لقد استغرقتِ نهاًا بأكلمه كي تصلي إلى هنا.. ".

تجمدت في موقعي، وراحت مقلتا عينيَّ تفتش عن مصدر الصوت.. من أين انبعث فجأة؟، بحثت عن الخادمة، لكنها كانت قد اختفت بالفعل. ارتبكت خطواتي، لا أدري إلى أين أتجه؟ رغم أنها قاعة دائرية فإن اتساعها الشديد وأعمدتها الكبيرة جعلت من العسير أن أحدد الاتجاه الذي يأتي منه الصوت. تقدمت بعبثية في أول اتجاه صادفني، فاصطدمت بكرسي فوتيه لم ألمحه، حاولت أن أدركه لكنه سقط محدثا صوتا مدويا عنيفا، ظهرت على إثره الخادمة مرة أخرى، كي تقودني إليها.

بابتسامتها المريحة، قادت خطاي إلى ركن المدفأة. مدفأة عريقة تبدو نيرانها طازجة، وتراص حولها عدد من الكراسي ذات المخادع العالية المكسوة بالقطيفة الحمراء ذات النقوش المذهبة.

بديع هو إحساس الدفء الذي تسرب إلى من المدفأة. لكن سرعان ما تبدد على أوتار الصوت الرنان الآمر الذي انبعث من جديد يعقب:
- لا أدري أهذا أمر جيد أم دليل على انخفاض قواك العقلية؟ لا داعي للعجلة في الحكم، عما قليل سنكتشف الأمر! تقدمي حتى أراكِ..
ابتلعت تلك النبرة الحازمة متعجرفة الإحساس لساني، ولذت بالصمت. لكنها في الوقت ذاته دفعت وجداني لا إراديا، فتسللت على أطراف أصابعي طائعة دون تفكير كي أواجهها..
امرأة عجوز طاعنة في العمر، امتلأ وجهها بالتجاعيد، رغم ذلك لم تفلح في النيل كلية من جمالها الاستثنائي، نادرا ما قد تصادفك تلك البشرة الأوربية ناصعة البياض، وقد زادها تقدم العمر رقة وسطوعا.. ممتزجة مع الملامح الشرقية الخالصة، وقد انسابت بعض خصلات الشعر الكريستالية من تحت الوشاح الأخضر الحريرى، الذي لفته حول رأسها بينما تدلت من عنقها قلادة ماسية يخفي بريقها الساطع أثر تقدم العمر، تركت بداخلي انطباعا راسخا بأني أمام سلطانة عثمانية تطل عليَّ من أساطير التاريخ..
جلس أمامها على مقعدين منخفضين، لا يرتفعان إلا بقدر يسير عن الأرض، خادمتان تأخذ كل واحدة منهما إحدى قدميها تدلكه بالدهن الفواح.. وحين طرقت على الأرض بعصا الخيزران التي بيدها طرقتين متتابعتين اختفت الخادمات في التو. وتركوني معها بمفردي.
حانت منها نظرة إلى هذا المقعد الخفيض بإشارة إلى أن أجلس عليه. فأجبتها وأنا أبتلع إهانتي بصعوبة بالغة:
أفضل الوقوف..
أجابت في حزم وسرعة:
لست مخيرة..
أظنها شعرت بالدماء تندفع إلى وجهي ساخنة، فأضافت قائلة بنبرة فيها بعض اللين:
أريد أن أرى ملامح وجهك، وخشونة فقرات العنق تمنعني من أن أرفع رأسي، اجلسي..
جلست، ومالت هى للأمام تدقق النظر في ملامحي بعدما وضعت على عينيها نظارة طبية. وأخذت تتفحصني بشكل مستفز كأنها تثمن بضاعة ما

ثم عقبت قائلة:
-مش بطال.. معقول.. على العموم أفضل بكثير من الصورة. بل أفضل مما توقعت.. عظيم..
رغم أن كلامها يبدو مديحا فإنني تذوقته ذما وقذفا لا يحتمل. طال الصمت بيننا دون تعقيب مني، استفزها ذلك، فقالت:
-لا تقولي لي إنك خرساء.. هذا يمكن أن يؤدي إلى بطلان الاتفاق كله واعتبار العقد لاغيا..
نظرت اليها كالبلهاء.. لم أفهم حقا!.. فمالت نحوي أكثر وهي تكمل بصوت خفيض:
-هذا اسمه تدليس.. ذكرتِ في سيرتك الذاتية أنك لبقة ومتحدثة دبلوماسية بارعة، أليس كذلك؟
ثم انفجرت ضاحكة ضحكة ماجنة غير متوقعة على الإطلاق. كيف تخرج تلك الضحكة الوضيعة من امرأة تبدو على هذه الدرجة الرفيعة من الرقي كسلطانة ؟!!..
عقدت الدهشة لساني فلم أعد أدري بم أجيب؟ أو حتى عم أجيب؟..
ثم توقفتْ عن الضحك فجأة، وصاحت في وجهي صارخة:
-أجيبي؟ أم أن عاهاتكِ قد ازدادت واحدة أخرى.. ها أنت !.. صماء ؟!! هل ستتركينني أحدث نفسي طوال الليل؟
وسط عدم تصديقي، وعدم فهمي كذلك، انزلق رد من لساني:
-نعم.. !
تنفست العجوز الشمطاء الصعداء بطريقة تمثيلية واضحة وفجة، معقبةً:
-الحمد لله، ليست بطرشاء ولا خرساء.. يكفينا مرض الغباء ونظرات البلاهة التي تعلو وجهك منذ أن دخلتِ إلى هنا..
ازدردت ريقي بصعوبة شديدة، وشعرت بطعم مرارة يستوطن فمي. أنا لا أفهم لِمَ أتلقَ كل هذا القدر من السباب والإهانة؟!! وأي ذنب قد اقترفته كي أُعامل هكذا؟!!..
حقا، لا أدري ما قد فعلته بنفسي. بالطبع لم أتوقع كل هذا القدر من الإثارة والجنون..

ولُمْتُ نفسي في الوقت ذاته "فماذا كنت أتوقع وقد أقحمت نفسي في كل تلك المعمعة باختياري؟!!". نعم، أعترف بأن ما أقدمت عليه هو ذروة الجنون، لكنهم قد قبلوني وبشروطي، وهذا يجعلنا على قدم المساواة في الجنون وربما كذلك الغباء! لا حق لهم في إهانتي.. ولا حق لي في التذاكي عليهم.
غضبت بشدة وشعرت بالدماء الحارة الساخنة تندفع إلى وجنتيَّ، فنهضت في حركة فجائية سريعة لا قبل لها، وعيناي صوب طريق الخروج.. وقبل أن أفر استوقفتني، قائلة :
-دُرَّة، هل أدركتِ حقا أنك طفلة عابثة لاهية لا معنى لها؟ ها أنا قد عريتكِ أمام نفسك. فبعدما حصلت على مرادك وتحققت رغبتك المستحيلة ها أنت تتخلين عنها سريعا وبلا تفكير أمام أول عقبة بسيطة واجهتك..
تسمرت في مكاني، ونظراتي قد تأكلها من الغيظ.. صمتت قليلا ثم تابعت:
نعم، لا صبر عندك. لم تحتملي بضع كلمات لئيمة من عجوز خرفاء تتسلى بك؟ أنت طفلة مدللة تدعي الفكر والعمق الزائف.. ولا أرى فيك سوى تافهة أرادت أن تتسلى بحياتها الضجرة المملة كحيوات سائر أهلها...
انفجرت صارخة دون تفكير:
-أنت ! كيف تتحدثين معي هكذا؟ من أعطى لك الحق في ذلك؟
أكملت العجوز حديثها دون تغير في طريقتها أو نبرة صوتها الساخرة الهادئة:
-مؤكد أنك تنحدرين من سلالة مهمشة ضحلة الفكر والجمال مثلك. فأنت ناقصة تربية تحتاجين إلى التهذيب من جديد.. ماذا توقعت يا فارغة الرأس أنت؟ أن أستقبلك بالأحضان ونجلس نتسامر وأسألكِ عن العبقرية الاستثنائية التي قد تفيأت لنا بتلك الفكرة الشاذة أم أن أمدح شجاعتك المفرطة وجسارة جأشك، تلك التي دفعت بكِ إلى بيت الأغراب؟!..
مثلما توقعت.. غبية.. فارغة الرأس..
صدمتني كلمتها، وأخرست حنجرتي، فكانت كالرصاص رشقتني بهم رصاصة تلو الأخرى، لتتركني كمصفاة خلا ما فيها من كل شيء، من أفكار.. كلمات.. وردود نارية.. حتى المشاعر.. كل شيء. شعرت فجأة بخواء غريب موحش داخلي.. وفراغ رهيب.. كأن كل مافي قد توقف فجأة برصاصة منها..
هل أنا كما وصفتني فعلا.. غبية، فارغة الرأس؟!! كدت أسلم بذلك لوهلة، لولا عبارتها التي تبعت المعركة السابقة:

-ع العموم أنت لست موضوعي أنا.. وكلامك ليس معي، كلامك مع المتهور الغافل الذي وقع عقد الهراء معكِ، لكن مادمتِ في قصري فلتلزمي الأدب وأحسني اختيار كلماتك عندما تخاطبينني. وناديني دوما ب "شكرية هانم "، مفهوم؟
وجدتني أهز لها رأسي في إشارة إيجاب طائعة، فعقبت في غيظ:
-تحدثي، انطقي.. استخدمي لسانك، لا تشاوري كي لا يتأكد ظني فيك بأنك معاقة ذهنية، مفهوم؟
بدون تردد، أجبت في سرعة:
-حاضر.
قلتها في عجالة ثم تعجبت نفسي بشدة..
-شاطرة، الآن أنت مرهقة جدا تحتاجين إلى الراحة.
كدت أقاطعها موضحة أني لست بهذه الدرجة من التعب. وأنني لا أنام في تلك الساعة المبكرة - أحسب أنها لم تتجاوز التاسعة- لكنها لم تمنحني فرصة لذلك، وأكملت:
-يومك كان شديد الإجهاد، وأنا مقدرة ذلك، لذا سأغفر لكِ سوء خلقك اليوم. الآن، أين تفضلين الإقامة؟ هنا معي في القصر أم هناك في استراحة الضيوف؟
و بدون عناء في التفكير، أجابت في التو:
-هناك في استراحة الضيوف أفضل..
قلتها باندفاع؛ لأني بالطبع سأختار أي مكان أبعد في الوجود عن تلك المرأة "الحيزبونة" الشمطاء. لكني سرعان ما تداركت كم كانت كلمتي فظة، فاستتبعت حديثي ملطفة:
-كي لا أزعج حضرتك.
شوحت بيدها في وجهي في إشارة لي بأن أنصرف. وفي التو انطلقت ساقاي، دون محاولة لفهم المزيد أو حتى لاستيضاح مكان تلك الاستراحة.
و إذا بالخادمة تظهر من مكان ما، تلحق بي كي تدلني على مكان الإقامة.

***

-ليست غبية، بل إنها خبيثة ماكرة تعرف ماذا تريد وتخطط له جيدا.. وليس مستبعدا أيضا أن تعرف عنا كل شيء وتلعب بنا، بل ومدسوسة علينا..

خرجت تلك العبارات من المحامي خالد، والذي كان متواريا خلف الجدار يتنصت على الحديث الذي دار بين شكرية هانم ودُرَّة. ثم خرج من مخبأه في تو ما غادرت دُرَّة القاعة..

أراحت شكرية هانم ظهرها المتعب في الكرسى الوثير، قبل أن تجيبه في هدوء:

-اهدأ يا خالد، وكفى توترا..

أخذ نفسا عميقا من السيجار بعدما أشعله، وهو يقف بجوار المدفأة. واتكأ على حافَتها وهو يضيف:

-كيف أهدأ وأنت تعرضين كل شيء للخطر والضياع وتلعبين لعبة غريبة غير مفهومة؟ هذه الفتاة ليست سهلة ولا بريئة كما يبدو عليها.. إنها خطر، لقد حذرتك كثيرا..

-اطمئن، أتفق معك أنها ذكية جدا، ولكنها كذلك ساذجة وبريئة حتى النخاع. فليس كل الناس مثلك عزيزي خالد. مازال هناك بعض الصالحين يمشون على الأرض.

صدمه ردها. و غضب منه بشدة، ورد بانفعال:

-شكرية هانم، أنا لم أتوقع مطلقا أنك أنتِ بالذات، وبعد ثلاثين عاما، تفانيت في خدمتك وخدمة الباشا، تلمحين إلى أنني.......

قاطعته قبل أن يكمل جملته بهدوءٍ شديد ساخر:

-عزيزي خالد، كيف يمكن أن تغضب من مزاحي معك؟ لم أقصد سوءا. عنيت أن ليس كل الناس مخضرمة في الحياة مثلك، أنت عملة نادرة في الاجتهاد والتفاني.. وكذلك الذكاء

نطقت بكلمة "الذكاء" وهي تضغط على كل حرف من حروفها، ثم استطردت وهي تتكيء على "عكازها":

-هيا، كف عن الحديث وساعدني كي أصعد إلى غرفتي، لقد استكفيت من الحياة اليوم.

ألقى بسيجاره النفيس في المدفأة إثر طلبها المباغت، وأسرع في معاونتها على النهوض. حينها ظهرت خادمتها الخاصة، وسريعا حلت محله تسند سيدتها إلى جناحها الخاص..

بقى خالد وحده منقوعا في ذهوله وحيرته من كلمات شكرية هانم الأخيرة. رغم طول العشرة واعتمادها شبه الكامل عليه في إدارة الأعمال كافة لكنَّه ما زال يخشاها ويحسب لها ألف حساب.. وحده يعرفها جيدا، ويدرك جيدا أن تقدم العمر وأمراض الشيخوخة لم تنل من عقلها شيئا. ربما أرهقت جسدها وأتعبته، لكن عقلها.. هيهات هيهات..

إنها إمبراطورة الهواء، تملك حرفيا النفس الذي يتنفسه البشر. تبث الرعب في نفس جميع العاملين معها، والمنافسين بالطبع. وحدها صنعت مجد تلك الإمبرطورية العظيمة وأبقت عليها طيلة عقود عديدة رغم كل الصعاب والمعوقات التي تتحداها !! و رغم كونها ليست من نسل نبيل..

حرباء.. !

قالها صالح وهو يبصق في اشمئزاز على الأرض. ثم انصرف.

*****

الفصل "٩"
ليلتي الأولى..

حينما خيرتني شكرية هانم بين الإقامة معها في قصرها الباهر أو في استراحة الضيوف، بالطبع لم أفكر مرتين.. الأبعد عنها هو الأفضل دون حاجة إلى تبرير. قادتني الخادمة إلى الفيلا التي كنت بها في الصباح. لأعرف منها بعد ذلك أنها استراحة الضيوف بها جناحان للإقامة في الدور العلوي. ولقد جهزوا لي جناحا بالأمس.

غمغمت بكلمات غير مسموعة "تلك العجوز الشمطاء.. ليست سهلة على الإطلاق، كيف عرفت أني سأفضل الإقامة بالاستراحة؟.. استر يارب"

صعدنا إلى الدور العلوي، وأشارت لي في الاتجاه يسار الدرج، ثم قالت بعربيتها المكسرة المكتسبة حديثا وهي تدير "أوكرة"الباب:

-تفضلي معاليك.. هذا جناحك الخاص.

معاليك.. !!.. بالطبع في حياتي كلها لم ينادني أحد بهذا اللقب، بل لم أكن أتخيل مطلقا أن أُنادَى به في يوم من الأيام. والغريب أنني لم أستسغه على الإطلاق!!

لم أعلق.. تسمرت أمام الباب، وسألتها وأنا أرمق الجناح المقابل بنظرات الريبة:

ومن يقيم هناك؟-

ابتسمت لي في ود، وأشاحت بنظرها بعيدا عن الاتجاه الذي أشير له. وهي تقودني إلى جناحي الخاص، وأكملت حديثها متجاهلة، في أدبٍ، سؤالي:

-سوف تستمتعين كثيرا بالإقامة هنا.. أنا مكلفة بخدمتك ومسئولة عن راحتك.. أيًّا كان ما تبغينه في أي وقت تشائينه، استدعيني في الحال، تفضلي لأريكِ المكان..

استسلمت لها.. لغتها السهلة.. كلماتها المريحة.. ابتسامتها الهادئة.. كانت كافية كي تؤنس قلبي الذي كاد أن ينفجر من الغيظ والغل منذ دقائق قليلة. لم أشعر أنها خادمة، لا تملك تلك العين المنكسرة.

روحها الوثابة، تجعلني أشعر معها بالألفة وكأنها صاحبة البيت لا خادمة فيه، فيما بعد عرفت سر اختلافها عن باقي الخادمات التي يستقدمن عادة من شرق آسيا، فهي قدمت بغرض دراسة اللغة العربية وعلوم الشريعة الإسلامية، وتعمل هنا كي تسدد نفقات دراستها. شعرت بالغبطة تجاهها فتاة يافعة تطارد حلمها على بعد آلاف الكيلو مترات من موطنها.

قادتني إلى الداخل.. حقا كان الجناح أنيقا ومريحا بشكل رائع، فائق التنسيق والبساطة، وفي الوقت نفسه يخلو من التكلف والأناقة الزائفة..

امتاز الجناح بنفس الروح الموجودة في الفيلا - الاستراحة وفقا لمعايير شكرية هانم- من أناقة معجزة في بساطتها ورونقها العالي.. الإبداع المغري بالراحة والتمتع بعبير البساطة والتألق في الوقت نفسه. في غرفة النوم الرئيسة، وُضع سرير كبير مصنوع من نسيج "الأوبيسون" فرنسي الطراز ذو متانة ودقة عالية، وظهره مُنجد بقماش حريري أحمر اللون. وبموازاة السرير أريكة كبيرة مكسوة بالقطيفة الحمراء، و"تسريحة". في الجهة المقابلة كانت الشرفة الزجاجية تشغل معظم مساحة الجدار. الجناح يضم حماما خاصا. وملحقا به غرفة معيشة صغيرة الحجم.. تبدو عصرية، بها طاقم أنتريه مريح وشاشة تلفاز عملاقة وبعض الأرفف المزينة بالكتب. ويتبعها غرفة نوم صغيرة – أُعدت لمبيت الخادمة- في حال رغبت أنا في ذلك. هكذا شرحت لي "أنيته" – الخادمة الفلبنية -

بعدما أنهت جولتها داخل الجناح.. سألتني في أدب جم:

-تؤمري معاليك بأي خدمة أخرى؟

للمرة الثانية شعرت بغصة في حلقي لمجرد سماع هذا الوصف "معاليك" المبالغ فيه كثيرا.. فأومأت برأسي باسمة وأنا أشكرها.

-سأحضر لك العشاء، هل تشتهي نفسك شيئا مميزا كي أعده، سيدتي؟

-لا، على الإطلاق، أي شيء..

-دقائق معدودة، وسيصبح جاهزا.

انصرفت، وتركتني أستريح.. ارتميت على الأريكة، ويبدو أنني قد غفوت في النوم حتى أنني فزعت حين سمعت طرقا مجددا على الباب، وظننته لوهلة زائرا عجيبا كأمثال من قابلتهم اليوم، تهاوى قلبي بين قدميَّ..

يكفيني كل هذا القدر من الإثارة اليوم. وحمدت الله أن وجدتها"أنيته" قد عادت، وبصحبتها خادمة أخرى، تدفع أمامها عربة طعام. أوقفتها أمام الأريكة. ثم انصرفا بعد سيل طويل من الأسئلة عما إذا كنت أرغب في أي شيء إضافي كي أتناوله أو عن أي وسيلة راحة أخرى أحتاج إليها. وسألتني وألحت في السؤال عما إذا كنت أرغب في المساعدة كي آخذ حماما هادئا يريح أعصابي ويساعدني على النوم.. وأكدت لي أنها ماهرة في التدليك. أجبت بالنفي عن كل الأسئلة. وأنهت سيل العروض ب:

" طاب مساء معاليك " قالتها وهي تنحني ثم انصرفت بعدها.

رغم دراستي "للإيتيكيت" وفنون الاستقبال والدبلوماسية، وطبائع الشعوب فإنني في الواقع لم أستسغ لقب معاليك أو حتى تلك الانحناءة.. فيهما طعم إذلال غير مفهوم جدواه، عدا أنه ينتقص من القيمة الإنسانية لفرد، ولا يضيف بها شيئا للآخر، غير إشباع مشاعره الدونية ومتلازمة النقص.

ألقيت نظرة سريعة على الطعام، ورغم أنه يبدو شهيا بأصنافه المتنوعة فإنه لم يجذبني، وانصرفت عنه إلى الشرفة الزجاجية، أستمع إلى لحن المطر الذي كان قد بدأ من ثوانٍ قليلة.. وفتحت الشرفة على مصراعيها لأتنفس وأستنشق الهواء، بعد أن داهمني شعور بالاختناق، ولم أعرف سببا محددا لهذا الشعور الكئيب الذي اقتحمني فجأة وقبض قلبي..

تذكرته،هتفت باسمه

"عزيز.. أين أنت.. !!"

تساقطت دموع السماء الباردة على وجنتيَّ تغسلني.. ثوانيَ وشعرت بخيوط من المطر الحار ينهمر هو الآخر على خدي، وأتذوق طعمه المالح في فمي..

"عزيز.. أين أنت.. !!"

***

"لا تتزوجيه، غير صالح، هناك من هو مصنوع خصيصا لأجلكِ".

كانت جملتي السابقة موجهة إلى أمي وجدتي بينما نحن نتناول الإفطار معا، في الصباح الباكر. وردت أمي:

هل هذا كلام ناس عاقلة؟

أجبتها:

-الله.. لم أقل لك إن هذا هو رأيي، بل أخبرتك أن هذا هو رأى "عزيز" في العريس.
أجابتني في نفاد صبر، بلهجة ساخرة متشككة:
-صبرني يارب.. عزيز هو من قال هذا ؟!!
-الله يا ماما.. أنا مخطئة لأني أروي لك الحلم. الموضوع اتحسم خلاص، وأنا وافقت عليه وتمت الخطوبة بالفعل من أسبوع حسب رغبتك أنت وجدتي. فلا داعي لتلك العصبية.
تدخلت جدتي قبل أن يحتدم بيننا الأمر أكثر من ذلك:
-صلوا على النبي يا جماعة، البنت لم تخطئ حين حكت لنا عن حلمها بأبيها. عادي يعني. وساوس من الشيطان. وأنت يا دُرَّة.. استعيذي بالله قبل النوم كي يحفظك من تلك الأحلام المقلقة. و هيا اذهبي لعملك.. أخبرتني بالأمس أنك سوف تلقين اليوم أول محاضرة لكِ، أليس كذلك؟
شهقت في انفعال حالما ذكرتني بالمحاضرة. شتت هذا الحلم الغريب انتباهي كلية في الصباح، واستحوذ على تفكيري حتى أنه أنساني قلقى، أنا سوف أحاضر اليوم لأول مرة في حياتي. انتفضت من على الكرسي تاركةً الفطار وطرت ألحق موعدي.
انطلقت أعدو في الشارع حتى وصلت إلى الطريق الرئيس، وقررت أن أستقل تاكسي، على غير العادة، لأني لا أحتمل أي مزيد من العطلة أو التأخير..
وغمغمت في سري وأنا أستقل التاكسي:
"ربنا يسامحك ياعزيز.. كان لا بد من أن تزورني الليلة؟!!..
كنت قلقة بشدة من التأخير، وما سوف يترتب عليه من مشاكل مع رئيس القسم.
-بسرعة يا أسطى.. متأخرة جدا.
قلتها لسائق التاكسي، الذي لم يعرني أدنى اهتمام، ولم يعقب بشيء. والتقطت أذناي كلمات ساخطة يرطن بها. استغربته كثيرا وقلت بصوت مسموعٍ في عجب جلي:
-ماذا جرى في الدنيا؟!!

وحينما وصلنا إلى جامعة القاهرة، وجدت العداد يشير إلى مبلغ مبالغ فيه كثيرا. وحين سألت السائق مستفسرة عن تلك الزيادة، أجابني في منتهى البجاحة وقلة الذوق:

-و الله العداد أدرى بالمشوار.

ثم خبط كفا على كف، وقال في نفاد صبر:

-حيرتونا معكم، تشتكوا إن أغلقنا العداد، وتشتكوا أيضا حين نشغله. احترنا ماذا نفعل كي نرضي الزبون؟..

كنت سأدفع المبلغ مستسلمة كعادتي، ورغم يقيني الشديد من أنه يسرقني. وأنه تلاعب بالعداد. لكنه استفزني بطريقته في الرد والوقاحة المعلنة كأن لسان حاله يقول- سأسرق وعلى علم من الزبون وإن كان عاجبه. فاحتججت بشدة على الأسلوب:

-تحدث بأسلوب أحسن من ذلك.

-هل ستدفعين الأجرة ؟ أم ستتهربين بإعطائي درسا في التربية؟

كدت ألقي نصف القيمة المالية المطلوبة في وجه السائق وانصرف، لكن في الوهلة الأخيرة تراجعت فلربما أكون على خطأ ولو بنسبة ضئيلة جدا. لا أحتمل أن أحمل وزره معي إلى القبر. فدفعت المال صاغرة. وأسرع بالانطلاق حتى قبل أن أغلق باب سيارته، وهو يسب ويلعن الصباح الذي قذف بي في طريقه.

جززت على أسناني من الغيظ، ولمت نفسي على تركه يسرقني دون وجه حق. ونظرت إلى الساعة لأدرك أنني قد تأخرت بالفعل عشر دقائق عن موعد بَدء المحاضرة. فتخليت عن وقاري المفروض، ومشيت بخطوات واسعة في شبه هرولة، أخترق صفوف الطلبة المتكدسين أمام المدرجات. وحينما وصلت إلى المدرج أخيرا. فوجئت بوجود رئيس القسم بنفسه يحاضر بدلا عني. فتسللت إلى الصف الأخير، جالسة على طرف البنش، أفكر ماذا أفعل؟

هل أعلن له عن وجودي؟ أم هو بالفعل قد لمحني وأنا أدخل؟ التقطت أنفاسي واستجمعت قواي، وقررت أن أنزل إلى المنصة، وأنا مبتسمة وأعتذر له بلباقة.. نعم، ففي النهاية هذا هو المتوقع من مدرس في علوم الإدارة مثلي..

شجعت نفسى قائلة:
"هيا، قدري الموقف بحكمة".
لكنه كان قد سبقني، وأفسد خطتي، قائلا:
النفاق سمعة العصر، نعم.. الجميع قد صاروا منافقين، مثلا الدكتورة الفاضلة التي كان من المفترض أن تكون هنا منذ ربع ساعة، مكاني تحاضركم، وتضرب لكم مثالا يحتذى به في الالتزام بالمواعيد واحترام الطلبة، ها هى تأتي متأخرة الآن، كي تحاضر فيكم لآخر العام متشدقة بقيم الإدارة الحديثة وفنون إدارة الآخرين بنجاح. بينما كأن أولى بها أن تدير هي نفسها ووقتها بنجاح كي تنقل رسالتها بقوة وصدق..
لم أصدق ما سمعته لتوي، وأسترسل:
النفاق أعزائي سمعة العصر.. ونحن جميعا منافقون – إلا من رحم ربي- ننافق حين يُطلب منا ذلك، ونتبرع بالنفاق حين لا يطلبون، كي نفسد الآخرين ونعلم الصغار كيف يبرعون في هذا الفن الرفيع. ننافق الضعفاء كي يبقوا محلهم، ونمنع عنهم النصح. ننافق الأقوياء كي نحتمي منهم، وتستشري سطوتهم. ننافق حين نحِسن، وننافق حين نكف عن الإحسان مخافة أن يقول الناس عنا منافقون. ننافق ونحن نعبث بحيوات الناس ونغتابهم. تلوك ألسنتنا بكلمات النفاق والتزين الصناعى بالأخلاق، ونتشدق بهما أمام الناس في المحافل. نرتكب كل جرائم الأخلاق ونخرقها عمدا، وقبل أن ننهض من حفلتنا، نغسل أيدينا ونتبرأ من نفاق البشر ونتحسر على ضياع الأخلاق. داعين الله أن يرزق الناس الهداية.. هكذا نختتم اللقاءات كافة؛ مِهْنية كانت أم اجتماعية..
وحانت منه لحظة صمت، قبل أن يرتفع صوته ويقول بصوت جهوري:
لا تنافق يا بني.. لا تنافق.. لن يدفع أحد سواك ثمنا لتلك الفاتورة. حين تتوه من نفسك، وتستيقظ وقد أصبحت لا تعرف من أنت؟ تذكر أن معلما يوما قد وقف، ونصحك بها " لا تنافق" مهما حدث، مهما كان الثمن. حين يأتي اليوم الذي لا تتعرف فيه على ملامح وجهك في المرآة.. ولا تعرف ما كان لون جلدك.. أو لون دينك؟ أو حتى ما كانت عليه دنياك؟.. ستدرك أن ثمن النفاق باهظ، لم يولد بعد من يحتمل عواقبه.

ولأننا هنا كي نخرج جيلا من الدبلوماسيين والدبلوماسيات، فأقولها لكم.. هناك فارق كبير بين النفاق والكياسة والأخلاق.
انسحبت من القاعة دون تفكير، دون أن أسمع المزيد. أعترف، أني أخطأت، لكني لا أستحق مثل هذا العقاب الشديد وتلك الإهانة العميقة لكرامتي وكبريائي. إنها أول محاضرة لي في الترم، كيف سأواجه الطلبة بعد ذلك ؟ وقد اهتزت مكانتي لديهم بالفعل.
و لأول مرة وجدتني أفكر في محمد، خطيبي أستاذ الاقتصاد الأشهر في الجامعة والخبير الاقتصادى الدولي اللامع. تمت خِطبتنا منذ أسبوع واحد فقط، بعد أن دام تعارفنا أكثر من ستة أشهر. طوال تلك المدة لم أفكر فيه.. لم يشغل أي حيز من تفكيري على الإطلاق، لم يستطع أن يحرك فيَّ ساكنا.. ظلت مشاعري جامدة تجاهه دون أن أعرف سببا واضحا لذلك.
حتى بعد خِطبتنا لم يتغير شعوري تجاهه. يكبرني بنحو ١٥ عاما، لكن فارق العمر لم يشكل عائقا بيننا، ولم يشغل بال أحد، ربما ذلك لإحساسي الدائم بالنضج المبكر وتفتح الذهن العالي. ورغم أنه درس لي وأنا طالبة فإنني لم أتعرف إليه حينها، وحتى عيد الفطر الماضي حين سافرت جدتي لتزور الأقارب في البلد. وهناك رأته، هو يعد قريبها لكن من الفرع القاهري الثري، والذي يقصد البلد في الأعياد، كي يوزع الصدقات وأموال الزكاة.
استحوذ على بال جدتي خاصة أنها قد عرفت من الأقارب، بأنه مازال عَزَبا رغم تلك المكانة الاجتماعية المرموقة ودائرة معارفه الواسعة، ناهيك عن أنه ميسور جدا. أي بجميع مقاييس البشر، يستحق لقب "عريس لقطة " بامتياز.
رحب كثيرا -على غرار ما كان متوقعا - بدعوة جدتي له لزيارتنا في القاهرة، ودعوته إلى الغذاء. و فاجأنا بزيارته لنا بعد فترة وجيزة..
انبهر به الجميع من الوهلة الأولى، خاصة بعد نشرة الأخبار والمقدمات الساخنة التي قد أذاعتها علينا جدتي. سعدت أمي بتواضعه حين زار بيتنا المتواضع في حي الهوامش. ثم تكررت زيارته لنا، وأبدى اهتماما خاصا بي، لاحظه الجميع. اندهش كثيرا حينما علم أني معيدة بالكلية نفسها، وعلى وشك مناقشة رسالة الدكتوراه كذلك، أبدى سعادته ودهشته في الوقت نفسه، قائلا:

" كيف لم ألحظك من قبل؟!!
و لم يمضِ شهر على أول زيارة له، حتى فاتح جدتي في رغبته الشديدة في الارتباط بي، وحين عرضوا الموضوع عليَّ لم أُبْدِ مانعا ولم أُبْدِ قبولا كذلك. حالة وسطية مائعة... !!! هكذا كان شعوري تجاهه.
لكني طلبت ألا نفتح هذا الموضوع حتى أنتهي من مناقشة الدكتوراه. تأففت أمي بشدة، وكادت أن تبدأ حلقة جديدة من شجارها لولا تدخل جدتي حاسمة الأمر بقولها :
"على بركة الله، البنت موافقة لكن بعد مناقشة الدكتوراه، لا عيب في ذلك.. ".
دُهشت وقبل أن أفتح فمي بأني قلت سأفكر حين أنتهي من الدكتوراه، كانت جدتي بالفعل تقول لي وهي تقبلني:
" مبرووووك يا روحي" ولكزت أمي في كتفها قائلة:
" زغردي يا بت".. ففعلت أمي، وانطلقت الزغاريد في بيتنا ليلتها، على غير رغبتي، لكني لازمت الصمت.
وتمت خطوبتنا بعد المناقشة مباشرة. وأقمنا حفلة صغيرة جمعت أقاربه ومعارفه وبعض الأصدقاء. كانوا هم الأغلبية، وكانت معي أسرتي فقط. أصر على أن تقام الخِطبة في بيت عائلته، وليس بيت العروس كالسائد في العرف. لم يمانع أحد من أهلي. ولم يسأل أحد عن السبب، فهو واضح جلي للعيان. فهناك فارق اجتماعي كبير بيننا، ومحال أن يستقبل ضيوفه هنا في بيتنا شديد التواضع بحي الهوامش. كانت ليلة ساحرة على حد وصف الجميع. كل ما فيها جميل، مبهر ومتألق.. كل شيء.. عدا كوني لم أكن معهم. ربما جسدي قد حضر في هذا المشهد الدراماتيكي.. لكن أنا لم أكن هناك. لم أشعر بأي شيء مما يدور حولي.
و يبقى السؤال الذي عذبت به حالي طويلا:
"لِمَ وافقت؟"
الإجابة: لم أفعل. لكن لم يكن لدي مبرر منطقي للرفض. والقاعدة تقول "إننا حين لا نأخذ القرار لأنفسنا ينوب عنا المجتمع في ذلك ورأى الأغلبية. هذا هو حال الجميع.. ولم أبالِ حينها.
***

حين خرجت من المدرج أجري لم أكن أفكر في أحد سواه.. غريب حقا أن أفكر فيه، وتتملكني تلك الرغبة الشديدة في أن أرتمي في حضنه وأجهش بالبكاء. لم أطق صبرا حتى الوصول إلى مكتبه بالكلية، واتصلت به عدة مرات. لكن لم يجب هاتفه.

فاندفعت أجري إلى مكتبه..

هل ضعفي الشديد الحالي، وانزعاجي مما حدث هو ما يجعلني أجري عليه بتلك اللهفة؟!!..

أم احتياجي لمشورته وعقله الرزين هو السبب؟!!..

أهي الحاجة إلى طوق الأمان هي ما تدفعني بهذا العنف؟

أم قد حدثت المعجزة أخيرا، واندلعت شرارة الحب بيننا ؟!!

احتمالات كثيرة مرت ببالي، لأول مرة يدق قلبي بعنف حين يمر اسمه بخاطري، أردت أن ألحق بتلك اللحظة النادرة وهي في فورانها وألضم فيها كي يُنسج بيننا خيط محبة حقيقية !!..

وحين لم أجد سكرتارية المكتب، اندفعت مقتحمة المكتب دون تفكير.. دون استئذان،.. و فجأة انقطع صوت التفكير بداخلي.. خرست كل الاحتمالات. وحل السكون على الجميع.. "أنا.. وهو، وكانت هناك أخرى !!"

صدمني ما رأيت. هو بشحمه ولحمه، لكن ليس في كامل حلته، يتذلل لتلك الفتاة التي يدفنها بين ضلوعه، وصار يغمرها بقبلات حارة متلذذا، وجدته صاغرا أمامها يطلب المزيد وهى متمنعة.

لم أفهم المشهد.. لكني صرخت لأعلن عن غضبي ثم اندفعت أجري في أروقة الجامعة، وأنا أصرخ وألعن..

رحت أجري متخلية عن " برستيج " الغرور..

تاركة قناعاتي خلفي..

أجري كارهةً وجودي..

رحت أجري وأجري.....

دون أن أدري كم مضى من الوقت قبل أن أتعب وأتوقف عن الجري. و حين توقفت كنت قدغادرت الكلية، والحرم الجامعي بأسره. ووجدت نفسي في قلب ميدان التحرير، أرمق تمثاله الشامخ بنظرات عتاب طويلة صامتة.

الفصل "١٠"
الوالدة عاشقة..

أشرقت شمس الصباح لتنير تلك البقعة المختفية بعيدا عن الأنظار. انزعجت دُرَّة كثيرا حينما أيقظتها الخادمة "أنيته"؛ لم تكن ليلتها بالأمس يسيرة على الإطلاق.. تزاحمت بداخلها ذكريات الماضي وكراكيبه. و لم تشعر بنفسها وهي تسقط صريعة في غيابات النوم السحيق على الأريكة. تلاعبت تلك الذكريات كثيرا بعقلها، حتى إنها رمقت"أنيته" بنظرات الحيرة والدهشة حينما أيقظتها كي تخبرها أن شكرية هانم تطلبها فورا. احتارت أيهما كان واقعا وأيهما كان حلما.. ؟!! فقدت الخط الفاصل بين هذا وذاك ؟ ولوهلة ظنت أنها سوف تستيقظ لتجد نفسها في الفراش بغرفتها في حي الهوامش.

-صباح الخير، سيدتي؟

قالتها أنتيه بابتسامتها الوديعة الدائمة، والتي جعلتني أشعر بالخجل من التبرم من إيقاظي باكرا، خاصة أني لم أنل بعدُ ما يكفيني من الراحة.

-صباح النور، أنيته؟ كيف حالك؟

قلت عبارتي السابقة، وأنا أنهض من على الأريكة متمطعة، أمدد جسدي كي أفوق سريعا. فاتسعت ابتسامتها وهي تجيب:

بخير مادامت سيدتي بخير-

أفقت سريعا بعد أن أخذت حماما باردا. وخرجت منتشية لأجد إفطارا شهيا في انتظاري تناولته على عجل رغم جوعي الشديد تحت وطأة نظرات أنيته تلك التي ترمقني بها بين آن وآخر كي تحفزني على الإسراع. وخشيت من أن يصيبها تأنيب بسببي. فانطلقت معها وأنا مازلت جائعة. لتلبية الاستدعاء الصباحي..

حدثت نفسي بصوت عالٍ مشجعة: " هيا.. فليبدأ المرح".

انطلقت بخطوات طفلة مرحة أصاحب أنيته، كأننا أصدقاء في اتجاه القصر.. شعرت أنيته بذلك. حاولت أن تتخلف عني لمراعاة البرتوكول لكني لم أدع لها فرصة لذلك.. وأظنها استمتعت بذلك وتركت لنفسها العنان ولو في اللحظات القليلة التي لا ترصدنا فيها الأعين. حتى وصلنا إلى القصر وصعدنا الدرج إلى الطابق العلوي في اتجاه الجناح الرئيس.

حين دلفت من الباب الرئيس للجناح، وجدت نفسي أقف في غرفة معيشة شديدة الاتساع، بها صالون مذهب غاية في الروعة، وخلفه مباشرة سفرة، تسع ستة أفراد. ويفصل بين الغرفتين شرفة زجاجية كبيرة تطل على الحديقة الخارجية للقصر، وقد استقر أمامها مباشرة كرسيان متجاوران، يمتازان بظهريهما العاليين ومخادعهما المريحين. وحين اقتربت وجدت السيدة جالسة على أحدهما، وهي متكئة على "عكازها"، تقبض عليه بقوة بكلتا يديها، وأسندت ذقنها كذلك عليه، بينما عيناها شاردتان تطاردان طيور الصباح.

سبقتني أنيته كي تنبه السيدة إلى وصولي. لكنها لم تنطق بشيء، وأومأت برأسها. فأسرعت أنيته تجر أحد كراسي السفرة، وتضعه أمامي كي أجلس في مواجهة السيدة. ساءتني الإهانة الصباحية الباكرة.. فسرتها بأن شكرية هانم لم ترغب في أن أجلس على الكرسى الذي يماثل ماتجلس عليه هي.

ما أشد عقد نفوس البشر.. وما أغربها!! جلست على مضض بينما أنيته تصب الشاي لكلينا قبل أن تنصرف، وتدعنا بمفردنا. بدون أن توجه نظرة إليَّ، قالت ومازالت شاردة :

-ألم يكن لديك ما هو أرقى من ذلك كي ترتدينه حين تأتي لمقابلتي ؟!!..

كنت أرتدي سروالا فضفاضا زاهي اللون و بلوزة خفيفة من الكتان الأبيض. لم أشعر بحاجة أن أتكلف أكثر.

تمتمت بداخلي بسخرية:" وأنا من خشيت لوهلة أن تكون القطة قد أكلت لسانك ليلا، وأُحرم من تمارين التحكم في الذات وضبط الغضب، تلك التي أمارسها معك". كانت مختلفة كثيرا عما بدت عليه في المساء من جبروت وهيبة. أكاد أجزم أن عيونها.. نظراتها.. تحمل الكثير من الوهن. لكن حين رشقتني بتعليقها الجارح، علمت أنها لم تتغير.

راحت ترتشف الشاي في تؤدة ومهل، تبدو غير عابئة مطلقا بوجودي. رحت أحتسي أنا الأخرى الشاي. لكن ما إن رفعت الفنجان إلى فمي، حتى وقعت عيناي على تمثال موضوع على مقربة شديدة مني، جفلت منه بشدة وسقط الفنجان من يدي متهشما، وأنا أصرخ :

" يا مغيث"..

لم ألمح هذا التمثال من قبل. وأي إنسان طبيعي مكاني كان سينتفض هو الآخر مفزوعا من رؤيته.
أي ذوق فني ذلك الذي تملكه تلك العجوز الخرفة، وجعلها تظن أن هذا القبح يصلح أن يكون تحفة فنية؟!!.. كان تمثالا من الجص لوجه رجل عجوز طاعن في السن مجعد الوجه ورقبة شديدة الترهل، موضوعا داخل صندوق زجاجي محكما، كأنه قطعة نفيسة، يُخشى عليها من أثر الزمن..
صرخت في محتجة على انزعاجى ونفورى الشديد من التمثال:
-هل رأيت عفريتا؟
-بالفعل، رأيت عفريتا.
خرج الرد تلقائيا، فأجابتني بحدة وقد استفزها ردي :
-الزمي الأدب.
لم أطق تلك اللهجة الحادة، و توبيخها المستمر لي وانتفضت واقفة أحاول السيطرة على نفسي، وأنسحب من أمامها:
-لا أظن أن سافلة مثلي، تستحق شرف شرب الشاي مع جلالتك.
و كدت أن أنصرف لولا أن تسربت إلى أذناي نهنهة بكاء. لم أصدق بالطبع ما أسمع، واستدرت إليها، لألمح الدموع تلمع في مقلتيها..
كذبت نفسي، لكن هذا ما يحدث فعلا!!
شعرت وكأن الصخر، يتفتت أمامي وينشق منه الماء. ووسط دهشتي العارمة وخجلي الشديد من نفسي، شعرت كأني قد ارتكبت جرما لا يغتفر دون أن أشعر. جلست في صمت. وقالت بعد ما مضى ردْح طويل من الوقت:
-أعرفك بالباشا.. زوجي الغالي، والد ابني الوحيد "طارق"، رحبي به..
تنحنحت عدة مرات من شدة الحرج والارتباك، وقلت في شبه استسلام لغرابة الموقف، وأنا أحني رقبتي في احترام للتمثال:
-تشرفت يا جلالة الباشا.
-صُنع هذا التمثال من طبعة حقيقية، أُخذت لوجهه قبل وفاته بشهر واحد، ثم صُب بعد ذلك ليكون قطعتين الأنفس والأثمن في الوجود بأسره. مازال هو أنيسي الوحيد. هذا الكرسي كان كرسيه الخاص، ولم أسمح لأحد بعده بالجلوس عليه.

قالتها وهي تشير إلى الكرسي الآخر المجاور لها. وددت حينها لو أختفي عن وجه البسيطة، وأنا أسمعها تبث إليَّ كلمتها بتلك النبرة التي تشف عن حزن عميق ومقدار عظيم من الوجع الذي يستوطن الروح.

"أمعقول هذا؟!!.. تلك المرأة الجبروت تحمل كل هذا القدر من الشاعرية والرومانتيكية الطاغية؟!!"

و ندمت على تسرعي في الحكم عليها. وهي تستطرد في حديثها قائلة:

-إنه ليس أجمل وجه للباشا كي أتذكره به، لكن هو الباشا نفسه في آخر أيامه. لم يعنيني أن أحمل صورة له جميلة. بل أردته كما كان.. كي أكمل معه باقي العمر.. ونكبر معًا. لا أحتاج لنسخة وهو شاب يصغر عمري الحالى.

صمتت قليلا، وهي تجفف دموعها التي انهمرت من عينيها، ثم أضافت كأنها تجيب عما يجول بخاطري من أسئلة:

-نعم عزيزتي، إنه هذا المرض اللعين.. الذي يحرقنا ويتلذذ بقتلنا البطيء.. نستعذبه في بَدء الأمر بينما هو يسن لنا السكين كي يذبحنا ذبحا بطيئا ممتعا في الآن نفسه. ويقدمنا أضحية بشرية أمام المذبح الشهير..

سكتت قبل أن تكمل:

-نعم، أتحدث عن العشق.

-أفهمك جيدا.

صدرت مني بسلاسة وصدق كأني أتحدث مع صديقة لي.. لأول مرة أشعر بالقرب والدفء من شخص، لم أختبر هذا الشعور منذ زمن، ومع تلك العجوز متقلبة المزاج، والتي أعجز عن فهمها. لكني أردتها أن تستمر في الحديث، وألا ينقطع سيل كلامها..

-إنها الضمة الأولى في ليلة عرسنا.. هنا تحديدا، احتواني بكلتا ذراعيه.. اعتصر عظامي بين ذراعيه حتى إني تأوهت بشدة، فرد عليَّ معللا: "اعذريني، أردت أن أتحقق من وجودك؟ أتأكد أنك هنا معي؟ لي.. وحدي بين ضلوعي وأذرعي حينها انفجرت مني آهة حارة، وأنا أحكم قبضتي على وسطه وأدعوه ألا يفلتني مطلقا..

حين ملكني.. حررني.. هكذا شعرت. ولهذا بكيت.. لأني أدركت حينها فقط كم أذوب فيه عشقا!! وأن العشق وحده يحررنا من الخوف، ويسلخ عنا رداء الخرف والخوف من الدنيا والمجهول..

ينشر الدفء في أوصالنا بفرائه الناعم وثرائه الغامر. صرت حرة.. وأسيرة له.. أسيرة عشقه. شعرت كم كانت أغلال الخوف تسجنني، وحررني هو بضمة واحدة. صرت حرة مع أني أسيرته.. تنعمت بهذا الشعور طويلا. معه شعرت أني قادرة على فعل أي شيء وكل شيء.. كان نبع طاقتي.. سر جنوني وعظمتي.. رغم أن العكس هو البادي للجميع. لم يكن الشاب الوسيم، بل كان الرجل ذا الخمسين عاما، شديد الوقار يخشاه الجميع. وأنا بالنسبة له طفلة لاهية لا أكثر.. خطوت لتوي في عقدي الثاني. أنحدر من عائلة عريقة من سلالة السلاطين، لكنه كان وحيد والديه، ولم يسبق له الزواج قبلي.. أخبرني ليلتها أنه لم يكن يعتزم الزواج مطلقا. لكن حين رآني تزلزل كيانه، وشعر بأني مولاته.

بعد أن مارسنا الحب ليلتها.. وحولني إلى امرأة ناضجة مثمرة شهية يقطفها هو وحده متى شاء.. قبلني بعنف، كاد أن يخلع عني شفتي قبل أن يفلتهما ويقول لي: "عامان وأنت أمام عيني، أراكِ وأشتهيكِ وأحرمكِ في الوقت ذاته على نفسي، وظنوني السيئة ومخاوفي منك ومن نواياك تستحوذ على كليًّا. غبي أنا، حين ضيعت على نفسي تلك الواحة الرحبة من الحياة وحرمت نفسي منها عامين كاملين، لكني الآن لن أضيعكِ مطلقا من يدي.

و نمنا متعانقين حتى الصباح..

معه لم أشعر قط بفارق السن. لم يتركني أراه. كان ابني.. وعشقي الليلي.. وصديقي في النهار.. رئيسي في العمل. وبعدما اطمأن لحكمتي في الإدارة ونضجي المبكر، وأني صرت أملك خبرة كافية، ترك لي مقاليد كل شيء وانسحب يوم عيد ميلادي الثلاثين كهدية لي..

قال لي ليلتها: اليوم أشارف الستين من عمري. لقد اكتفيت من العمل والجد. وصرت أنتِ كل عملي.. كل همي وشاغلي.. لا أبغي شيئا آخر من الدنيا بعدك.

لم يرد أن ننجب أطفالا. طلبت منه كثيرا.. لكنه مانع. وكان هذا هو طلبي الوحيد الذي رفضه طوال عشرتنا معًا. ورغم حزني الشديد لذلك الأمر فإنني لم أتركه يعرف كم كنت أتألم بسببه. لم أدع شيئا يعكر صفو محبتنا..

لقد وهبني كل شيء أردته يوما. خطا بي إلى عوالم الدنيا السبع،، أراني كل شيء.. بنى لى هذا القصر كما أردته. كأني مليكته التي يعشقها بجنون، وهو الجني.. الخادم القادر على فعل المستحيل لمولاته.
عشقته.. وإن لم يقدم لي شيئا عدا حبه الجارف الذي غمرني به.
سألته يوما عن العشق، فأجابني: ألا تخجل من أن تركع لحبيبك واضعا كل نفسك تحت قدميه كي ترفعه. أن تلبسه جلدك وتعطيه عمرك.. وأن يلبسك هو الدفء..
ماذا هناك أكثر من ذلك قد يرغب فيه المرء؟!!..
ورغم ذلك.. أهداني طارق.. قبل أن يُتَوَفَّى بعامين فقط. كان قد بلغ حينها السبعين من عمره، وشعر بدنو الأجل.. خشي عليَّ من عذابات الوحدة.
همس في أذني ليلتها: إنه لكِ رفيقا ومؤنسا، فلا تكوني لأحد غيرنا..
بكيت حينها وأنا أهبه نفسي كما لم أفعل من قبل. و أجيبه: " وهل هناك من يماثلك أو يستطيع الدنو من منزلتك حتى ينتزعني منك؟!! "
لم يكن يريدنا أن ننجب خشيةً من أن يسرقني الطفل منه. عرفت ذلك، لذا حينما قدم طارق يملأ الدنيا بصراخه، فزعت بشدة. وخشيت على الباشا، وأن أشعر به والموت يدنو منه.. وكأنه هو طفلي الوحيد..
صرخت فيه: لا تمت.. و كن لي أبدا..
أجابني: يا ليتني أستطيع.. !
لم أحتفل بمولد طارق إلى الدنيا كسائر الأمهات. بل كان كل همي هو هذا الشيخ الذي أراه كل يوم ينسحب من أمامي في بطء. عرفت كم أعشقه، وأني متيمة به. سأكون له هو وحده. أمرت ببناء استراحة تجاور القصر، أودعت بها طارق مع جليسته الخاصة والمرضعة. لم أطق أن يشغلني عنه أحد.. كأني بالفعل خلقت له وحده، ولم أشأ أن ينتزعني منه أي شيء مهما كان. فقدت في هذا العام تركيزي في العمل، وانصرفت كليةً إلى الباشا.. طفنا الدنيا كما لم نفعل من قبل. ما نكاد نعود من رحلة حتى نشرع في القيام بجولة أخرى.. كان هو طفلي الوحيد المدلل.. وارتاح هو كثيرا لذلك.. وغمرته السعادة حين فعلت ذلك بسخاء، دون أن يطلب. أظنه أدرك كم كان مصيبا حين اختارني أنا بالذات ومنحني اسمه. وعرف كم عشقته بإخلاص!

فوحدها المرأة العاشقة هي من تجرؤ على ترك رضيعها لترضيَ زوجها القريب من الموت. اختلست من كل الثواني والدقائق المتبقية له ذكريات تجمعنا معا. كان بداخلي شعور قوي أن أمامي عمراً مديداً أقضيه مع طارق.
وتُوُفِّيَ عنا الباشا في عيد ميلاد طارق الثالث.

*****

الفصل "١١"
ريهام والظلال"..

"خرجت من وسط الغيوم الضبابية لتتشكل أمامي ريهام وهي ترتدي زيا استعراضيا فاضحا. يكاد لا يستر منها شيئا.. تمشي بتؤدة وثقة عالية.. تتمايل بحركاتها وألاعيبها الغاوية الحاذقة التي توقع بفريستها.. اقتربت مني أكثر فأكثر حتى مالت على أذني، قائلة:
لم تدركي أبدا قيمة جسمك هذا وجمالك، أعيريني جمالك ليلتين وسأريك ماذا سأفعل به.
وانفجرت ريهام ضاحكة ضحكة ماجنة مجلجلة لا تصدر إلا عن شيطان.. لم أستطع الحراك وصوتي مكمم لا يخرج مني..
انتفضت فزعة من الفراش، أصرخ.. "ارحلي.. ارحلي عنى ". لأدرك أنه الكابوس الذي يطاردني كل ليلة ويقلق منامي. ألقيت نظرة على المنبه الموضوع على "الكومودينو"المجاور، لأجدها تشارف على الواحدة صباحا.. أي أنني لم أنعم سوى بساعتين من النوم المتواصل..
تبًّا لكِ يا ريهام، لماذا تطاردني دوما في أحلامى؟
قلتها بضجر، وأنا أغادر الفراش. وحفيف الأشجار يشتد بالخارج، أشعر كأن الأشجار تصرخ بي مستغيثة من فعل الرياح التي توشك أن تقلعها من جذورها. والرياح تزوم أكثر وأكثر.. وتزأر.. تكاد تستأثر بأجساد الحياة التي كُتِبَ عليها الوقوف وحدها ليلا، تواجه مصيرها المحتوم. تجابه رياح الليل العاصفة.. فإما النجاة وإما الاقتلاع من الجذور، والتطويح بها بعيدا بلا تكريم حتى يليق بها، وبسنين خدمتها الطويلة..
ارتعبت لتلك الفكرة.. ورغم جسارة قلبي فإنني لأول مرة في حياتي يعتصرني الخوف هكذا.. وانسابت دموعي رغما عني..
و رحت أشهق من شدة الخوف الحقيقي الذي تملك قلبي.. انكمشت أكثر على نفسي.. وتركت دموعي تنساب كما تشاء على خدي حارة كالنار تشيع في بعض الدفء، لعله يكون لي سلوى في هذا الليل الموحش قارس البرودة.

و بعد قليل، التقطت أذناي أول خيوط رفيعة لموسيقى حالمة هادئة. أرهفت سمعي أكثر، ووقفت على أطراف أصابعي بجوار الشرفة حتى ميزتها جيدا.. " ما أروعها.. !"، أظنها تُعزف الآن.. لكن لم أدر من أين تأتي؟ ولم يهمني ذلك في شيء.. يكفيني أن أتلذذ بها..
و انسابت النغمات الحالمة من حولي تغلفني.. تشملني بعطفها.. وعلا صوتها أكثر وصارت أوضح وأبهى حالا.. أحسب أن تلك النغمات المحلقة من حولي تهدهد الإحساس تنطلق عبر البيانو.. لا تكاد تغادره حتى تمس القلب مباشرة، ترتعش لها خلجات النفس، وتنتشي منها ذرات الجسد.. تعالج ما بهما من آلام.. تنزع عنهما الخوف وتبدلهما وسَنا..
خففت عني كثيرا من وحشة الليل، فاستجمعت بعضا من شجاعتي. وقررت السهر قليلا. أعددت لنفسي فنجانا من الشاي أستمد منه بعض الدفء.. ودفقة أخرى من الشجاعة..
أطللت من الشرفة الزجاجية بينما أحتسي فنجان الشاي. رأيت بعض آثار الرياح وكانت قد بعثرت الكثير من الأشياء والأغراض في الحديقة. وأدمى قلبي منظر تلك الشجرة اليافعة التي طرحتها الرياح أرضا، بعدما فعلت بها الأفاعيل. وأشحت بنظرى بعيدا عن هذا المشهد، لأنظر للنخيل وشموخه العالي..
وبين أصوات حفيف الأوراق وتمايل الأغصان.. عدت لأتذكر أحداث هذا اليوم الفارق في حياتي، بكل تفاصيله... كأنه يأبى أن يموت بداخلي.

***

خرجت من الجامعة في هذا اليوم، مندفعة بعدما رأيت خطيبي المزعوم في وضع مشين. لم يحتمل قلبي المنظر.. رغم أني لم أحبه، لكني شعرت بالقهر مع ذلك. ورحت أجري وأجري، هِمْتُ في الشوارع على غير هدى.. لا أدرى أين أذهب ؟
تتسابق خطواتي.. لا أملك زمام التوقف.. لم أعد أسيطر على جسدي، صار كل عضو فيَّ منفصلا بذاته ثائرا.. يصرخ وحده في اتجاه مختلف..
رحت أركض.. والذكريات تركض بجانبي (تصاحبني الخطى)..

أتى بيتنا أول مرة مغرورا كالطاووس، يرمقني بنظراته الوقحة. لم أرتح له لكن كذبت نفسي. فما أدراني وأنا الجاهلة الغافية التي لا تدري عن الحياة شيئا؟!!..

سحقا لي، حين كذبت نفسي حينها.. !!

أمي تبارك، والجدة تزغرد، والكل يجزم أنهم قد اصطادوا لي عريسا معتبرا. وأنا أكره نظراته الوقحة.

يتبختر في مشيته، فتشعر أنه بلاستيكي الحركات.. مجمد الأوصال.. يشعرك أنه يسديك صنيعا عظيما حين يلقي عليك التحية. وأنه فعل معك معروفا كبيرا أن تنازل ووطئت قدماه الكريمتان أرضك الرخيصة، وهو صاحب المقام الرفيع.. مقام الباشوات. فحتما لا بد أن يظل المرء شاكرا له أفضاله، يسبح بحمده ليل نهار..

هكذا شعرت.. ووقر في قلبى، لكني كذبت كل إحساس بداخلي..

حين يضحك تحسب أن وجهه يكاد يتشقق.

كل شيء كان فيه اصطناعيًّا.. حتى كلمته الدبلوماسية.. ينطقها كأنه آلة كاتبة عتيقة، تصدر صريرا بغيضا مع كل حرف يصدر عنها..

ما أغباني؟!!..

شعرت بكل ذلك من البداية. لكني قلت " وما أدراني وأنا الغافية التي لا علم لديها بفنون الحياة".

يشعرك أنه تواضع كي يجالسك، تواضع كي يرفعك لمقامه وتنال شرف الحديث معه. ويتحدث وكأن الكون بأسره ينصت بشوق لكلمته المنتظرة الملهمة.

كان الأمر جليا.. واضحا وضوح الشمس.

غير أن زغاريد الجدة ومباركات الأم كانت تعلن العكس.. كانت تكذب ظنوني، تجلعني أسخر من هواجسي، قائلة: " وما أدارني أنا بفنون الحب ؟!!..

أعض على شفتاي من الغيظ، من الندم.. ما قيمة الإحساس ونعمة العقل والبصيرة إذا لم نستخدمها كي ننجو من تلك السقطات.. !!

و شعرت بخيط من الدماء يؤكسد طعم الحياة في فمي، لكني لم أعبأ به.. لم أعد أعبأ بشيء.

كان يشتريني.. وبارك الجميع.. وقبلت..

الشمس تسدل ستائرها من حولي، والليل يهجم عليَّ. وعويل الرياح يزأر ويشتد..
لا يهم.. حقا لم يعد يعنيني أمر..
التعب يكاد يفتك بجميع أوصالي. ولاحت غمامة تمر أمام ناظريَّ. تسند على أقرب عربة مركونة بجواري.. قاومت بشدة كي أظل واقفة شبه منتصبة على قدميَّ. وفجأة انتفض جسمي بشدة إثر سماع صوت تصادم، أعقبه صوت فرملة عنيفة ثم اصطدام. رأيت المشهد بوضوح من زاوية رؤيتي، إذا بألواح عديدة من الثلج المجروش متهشمة على الأسفلت، بعدما سقطت من عربة النقل. في قدوم دراجة بخارية مسرعة لم ينتبه سائقها الذي فقد السيطرة على الدراجة، وانزلقت عجلاتها كي تستقر تحت عربة النقل نفسها. حدث كل هذا في ثوانٍ معدودة قبل أن تخرج لهم امرأة تكاد تكون شبه عارية من "الكازينو" السياحي. وبدا من صراخها وسيل السباب الذي راحت تكيله لعمال النقل وسائق العربة، غير عابئة بالمصابين في الحادث، تبدو ذات شخصية متسلطة يخشاها الجميع.
تجمهر المارة حول المصاب، محاولين تخليصه من تحت السيارة وإسعافه، غير مكترثين بالتي بصقها الملهى في وجوههم..
بدت عليها أمارات الغيظ من تجاهل المارة لمشكلتها العويصة، وعدم التعاطف مع حالها، فصرخت في وجه الجميع تشرح كيف أن ضياع حمولة الثلج يمكنه أن يعطل عمل "الكازينو" هذه الليلة ويوقف حالها. واستعرت حينما لم يلق لها أحدا بالا، ونبشت مخالبها قابضة على عامل التوصيل من ملابسه تعتزم ضربه وهو يرتجف بين يديها من الخوف،تدخل المرأة للحيلولة بينهما. تلاقت حينها عيناي مع عينيها.. عرفتها.. عرفتنى..
لكن لم أعد أذكر بعد ذلك أى شيء. انقطع الشريط فجأة، وأُظلمت الستارة على حين غرة.

***

أيقظتني رائحة منفرة تزكم الأنف لصيقة بوجهي، ولهيب أنفاس مستعرة تلهث بجوار أذنيَّ.. فتحت عيناي بصعوبة شديدة، لأجد جسدا لزجا متعرقا مرميا عليَّ، يتحسسني، ورائحة أنفاسه المعطوبة تكاد تصيبني بالغثيان.. يأكل أذنيَّ وهو يصدر فحيحا :

-ريرى، هاتى قَطة يا ريرى.
استعاد عقلي كامل نشاطه فجأة، فاتنفضت كمن لسعته عقرب. و انطلقت مني صرخات هيستيرية مدوية دون توقف، فزع منها الرجل.. واندفع على إثرها رجل وامرأة إلى الغرفة، ورأيتها هي آخر وجه كان عالقا على شريط الذاكرة. إنها " الشرشوحة"المتسلطة، اندفع الرجل مفتول العضلات يحمل الثمل إلى الخارج. بينما غمرتني هي في حضنها، متأسفة لما حدث، تحاول تهدئتي..
انخرطت في بكاء هيستيري. بكيت بحرقة.. بكل ما في قلبي من هم ووجع وعدم احتمال. فالأحداث تتعاقب وتفوق قدرتي على الاحتمال.
عرفتها حين رمتني في حضنها.. تيقنت أنها هي.. ريهام.. صديقتي الأولى.. و الأخيرة.. تلك التي استأمنتها يوما على عقلي، تعبث به كيفما تشاء. فعلا بكائي واشتد، وامتزج صراخي الباكي بصوت بكائها هي الأخرى.
فهمت كل شيء.. لا داعي لمزيد من الشرح والإيضاح، و راح بعضنا يبكي على بعض..
هل طال بنا الوقت؟!!
وهل يهم ؟!!..
قاطعنا صوت الطرقات على الباب ينادي " ريرى هانم.. -استعدي، فقرتك هي القادمة".
انتشلت نفسها بأعجوبة من حضني.. حاولت أن تجفف دموعي ودموعها..
ثم قالت ضاحكة:
-دُرَّة، أنا سعيدة جدا لأني رأيتك اليوم. الحمد لله، كأن ربنا أرسلك لي هدية.
لم أعقب بشيء.. وأكملت:
-سأنهي فقرتي سريعا.. انتظريني هنا. لن يزعجك أحد. ستبيتين الليلة عندي، ونتسامر حتى الصباح، اتفقنا؟
مبهوتة كنت.. مذهولة ملامحي، لم أعرف الإجابة الصائبة التي ينبغي أن أجيب بها. أحاول أن أستوعب حقيقة الأمر. إني هنا بداخل حجرة راقصة داخل كازينو ليلي.. مازال عقلي يحاول معالجة المعلومات العجيبة التي ترد إليه. والراقصة هي صديقتي.. ريهام.. !!.
عادت كلمتها تلح :

-دُرَّة، أرجوك. لن أتأخر. أنت شكلك مريض جدا، انظري في المراية. سوف تسقطين إن خرجتِ إلى الشارع.
لم تتغير ملامحي، فأضافت في انفعال:
-لا تسيئي الظن بي، أنا صاحبة هذا المكان.. أنا غنية جدا جدا يا دُرَّة.
حققت كل أحلامي.. كلها.. أنا فنانة استعراضية مشهورة، هل تفهميني؟!!
أنا من يختار، ويحدد ويأمر.. أنا يا دُرَّة..
أمام صمتي المستفز، هزتني بعنف مضيفة:
-تكلمي، أرجوك. المفترض أن تكوني سعيدة من أجلي. لم يجبرني أحد على أي شيء، أنا من اختار بإرادتي.. أنا على صواب. أتفهميني؟
وتكررها في إلحاح أمام نظراتي المتألمة..
و عاد الصوت يلح من جديد، والطرق يزداد في تلك المرة: "خمس دقائق، ونطلع على المسرح".
نهضت من جواري كي تضع رتوشا من مساحيق التجميل على وجهها وتخلع عنها الروب الساتر، وقبل أن تدير مقبض الباب، حانت منها نظرة إليَّ راجية في صمتٍ.. وفتحت الباب، وانفلت من بين شفتيها رجاء أخير، قبل أن تغلق الباب كي تعتلي مسرح نجوميتها..
" أرجوكِ.. انتظريني هنا".

*****

الفصل "١٢"
" مذبحة الغزلان"

لا أدري كيف ولا متى وصلت إلى البيت، بعدما تسحبت خارجة من الملهى.. رفعت يدي المرتعشة لأطرق الباب فما كدت ألمسه حتى وجدت أمي تفتح في التو، كأنها كانت تنتظر خلفه.

دُرَّة، أين كنت؟ لماذا كل هذا التأخير؟!!

قالتها بحدة وانزعاج شديدينِ. لم يكن عندي أى قدرة على النقاش أو حتى الحديث، لا رغبة لي سوى في النوم.. هززت لها رأسي موافقة على ما تقول بينما أنا أزحف إلى غرفتي..

شكلك مبهدل، ماذا حدث؟ أين كنت طوال اليوم وموبايلك مغلق؟!!

تسمرت في مكاني من الدهشة والذهول. لقد صدرت تلك الأسئلة من آخر بني آدم توقعت رؤيته الآن. ولوهلة ظننت أني بدأت أهلوس، لولا أنه عاد ليسأل بوقاحة:

ردى عليَّ هنا، أين كنت؟

حينها استدرت كي أتحقق مما أسمع، لا يمكن أن يكون هذا الشخص حقيقيًّا الآن، وموجودا في صالة بيتنا، ويقف أمامي عاقدا ذراعيه، ويتعجرف عليَّ أيضا.

محال أن يكون هو.. بالتأكيد أنا أهلوس بشدة الآن. !!

من أي طينة قد خُلِقْتَ، أيها المخلوق!!.. محال أن تكون بشريا، محال!!

برقت عيناي بكل الغضب الذي اعتصرني طوال اليوم، واندفع الدم في الحال إلى وجهي، حتى احتقن بشدة. وقبل أن ترشقه سهام إجابتي. قرأت أمي المشهد في التو، رغم أنها لا تعرف شيئا. وتداركت الموقف سريعا، تحاول تهدئة الأوضاع بيننا:

محمد.. منتظرك يا دُرَّة منذ أكثر من أربع ساعات، كاد أن يموت من شدة قلقه عليك. أخبرنا بما فعله رئيس القسم معك. وأن الخبر قد شاع في الكلية بأسرها.. فخاف عليك وذهب يفتش عنك في كل مكان.

ثم تحولت أمي بكلامها إليه:

-اهدأ يا دكتور.. الحمد لله هي بخير.. أكيد الموقف كان صعب عليها وأنت أكيد مقدر.
و تكلمت وهي تمسكني من ذراعي وتدفعني نحو الصالون كي أجلس معه:
-ارتاحي يا دُرَّة وتكلمي مع خطيبك، هيا يا دكتور محمد ربنا يهديكم.
رشقته بنظرات نارية حارقة تحتقره بشدة.. قرأها وفهم الرسالة جيدا.
"أجئت تطمئن أيها الحيوان اللاآدمى أنني لن أفضحك! " جال بخاطري هذا السؤال.
دخل ورائي إلى الصالون. وتنحنح صوته فجأة قائلا بلغة حانية، لم أعتدها معه:
-دُرَّة، أنا مقدر مدى صعوبة اليوم عليك.. مقدر تماما غضبك من رئيس القسم. وأكيد هو بالغ كتير، وصب عليك كل مشاكله الخاصة، لكن..
قاطعته بسخرية شديدة:
-خالص، لم أنزعج منه على الإطلاق. على الأقل هو عنده بعض حق.. وأراد أن يلقنني درسا في حياتى.. "لا تنافق"
وعدت أكرر الكلمة، ضاغطة على كل حرف من حروفها " لا تنافق"
فانفعل ناهضا وهو يقول:
-دُرَّة، ما رأيته اليوم كان خطأ. لكن غير مقصود، غصبا عني.... نزوة و...............
استفزتني جملته بشدة، ومبرراته السخيفة. لم يكترث أن ينوع ويأتي بحجة جديدة مبتكرة.. لم يكن لديَّ أي استعداد أن أسمع هذا الهراء، والمبررات الهابطة لم أحتمل سماع المزيد. انتفضت واقفة، قائلة بكل حزم:
-اخرج بره.
و أنا أشيح بإصبعي في وجهه ومشيرة إلى الخارج.. متعمده هذا الفعل الذي يستفز جنس الرجال ويخرج العاقل الرزين منهم عن شعوره. فصرخ في وجهي في استغراب حقيقى:
-أَ فقدتِ عقلكِ؟
بالطبع رد فعلي غير متوقع بالمرة بالنسبه له، وتابع حديثه وهو يشيح في وجهي بعصبية شديدة:
-واضح أنك نسيتِ نفسك يا هانم، فوقي.. أنا دكتور محمد الرماح.

-طظ.. بره.
قلتها بصراخ جهوري، أتى على سرينته جميع أهل البيت، تجمهروا من حولنا. حاولوا التهدئة وفهم الوضع.. وتدخلت أمي كي تطيب خاطره كالمعتاد. فقاطعتها في حزم كي تصمت:
-أمي، لا علاقة لك بالموضوع.. دكتور محمد آنس وشرف خلاص، وأخد واجب الضيافة ولازم يلحق يروح، لديه مشاغل جسيمة في انتظاره.
نطقت بكل حرف بكل التحدي والغضب الذي اختزنته بداخلي طوال العمر.. وسط ذهوله ودهشته التي أفقدته سرعة الرد وطلقاته الجاهزة. لم يكن يخطر له على بال قط أني سأنفعل إلى هذا الحد. ومؤكدا لم يكن يظن قطٌّ أن وجه الوداعة الذي أرتديه طوال الوقت يخفي وراءه ثائرة جسور..
قال حروفا مبعثرة وسط دهشته، حاول تخفيف وقع الحديث على نفسه:
-أنت أعصابك مجهدة. سأتركك الآن حتى تهدئي. ولنا حديث آخر لاحقا.
توجه إلى الخارج. لكن لم يكن لدي أي نية في التراجع عن قراري. خشيت أنه إن لم يحسم الأمر الآن، فستنقلب الطاولة عليَّ لاحقا. لن يستقيم الأمر مطلقا بيننا.. سأكره نفسي، وأخسر معه كل شيء. عدت أكررها بكل الحزم والغضب:
-انتهى كل شيء، تقدر تاخذ شبكتك الآن معك.
فصرخت أمي في وجهي، بينما استدار هو كالثور الهائج.. لقد كانت عبارتي الأخيرة بالنسبه له هي القاصمة.. فانفجر ساقطًا عنه كلُّ أقنعته الزائفة:
-شبكة !!.. أنت حثالة.. !! أنتم جميعكم حثالة!!.. ألا ترين أين تعيشين؟ أفقدتِ عقلك؟ أنت كنت تحلمين أن رجلا مثلي أنا يفكر في حثالة مثلك أنت.. أكيد مجنونة، فعلا حذرتني خالتي منك، قالت إنك شبه أبيك عزيز "مجنون"
-أنا فعلا مجنونة كي أرضى بمثلك.. رجل منافق مغرور عبد لشهوتك وغرورك.
أطاح بالكرسي الذي أمامه كالثور الهائج، وتمادى في صراخه وهو يقبض على ذراعي بعنف، قائلا:
-أنا اشتريتك بمالي، دمية أتسلى بها.. أنتِ ملكي، فاهمة؟ اشتريتك بمالي.

-حصل بالفعل، ويفتح الله في تلك البيعة. أنا فعلا هابيع نفسي لكن لن أكون لك أنت.
لا أدرى كيف نطقت بتلك الكلمات؟! متى تشكلت بداخلي!!.. كيف خرجت مني؟!!..
لا أدري، كيف حدث كل هذا.. وسط ذهول الجميع. رنت صفعة قوية على وجهي، طرحتني أرضا. لم أسمع بعدها شيئا.

***

مرت ليلة طويلة عسيرة، لم أذق فيها طعما للنوم.. ولم أعرف وسيلة للاستيقاظ من تلك الحالة. ظللت أحملق في سقف الغرفة. في الصباح شعرت بأمي تدخل بهدوء الغرفة على أطراف أصابعها، وتسترق النظر إليَّ، لمحت عيني المفتوحة، وسألتني :
-دُرَّة، حبيبتي، هل أنت بخير الآن ؟
جلست على طرف الفراش.. وشعرت بحيرتها وهى تبحث عن كلمات تبدأ بها حديثها. تعتزم النطق ثم تتراجع، وتعاود الكرة حتى انفجرت مرة واحدة قائلة:
-أنت مازلت صغيرة، وخبرتك قليلة في الحياة، ومازال هناك حاجات كثيرة سوف تعرفينها مع الأيام.
صمتت قليلا تقرأ ملامحي، ولم يصدر مني أي حركة أو انفعال، واستطردت في حديثها :
-أنا أثق في رجاحة عقلك. ومتأكدة ومن غير ما أعرف الأسباب أن ثورتك بالأمس، أكيد لها مبرراتها وأسبابها. ومعك كل الحق. لكن يا حبيبتي الدنيا لا تسير على هذا النحو، هناك معادلات أخرى تتدخل وتحسم مثل تلك الأمور.. تلك المعادلات من الصعب عليك اليوم في هذا العمر أن تفهميها، لكن بكرة تصدقي كل كلمة أقولها لك الآن..
لم أرد وتابعت :
-مازال الباب مفتوحا، رغم كل ما حدث وقيل بالأمس.. اتصل بي فجرا كي يطمئن عليك. الرجل شاري.
حينما سمعت كلمة "شاري" لم أتمالك نفسي من الضحك الحقيقي، وأجبتها:

تلك هي المشكلة، أنه "شاري".. يشتريني بالفعل.. كي أكون له جارية طائعة. وأنت وجدتي والجميع كان يدرك ذلك من البداية. فارق كبير جدا بين الزوجة والجارية الخانعة.. فرق السماء والأرض. شتان ما بين الأمرين.
جاهدت أمي للسيطرة على أعصابها وضبط نفسها. كي تكسب جولتها في التأثير عليَّ. وحين شعرت بتصميمي على رأيي. قالت، وكأنها ترمى بورقتها الأخيرة، وليتها ما قالت:
-لم أكن أريد قط أن تأتي تلك اللحظة التي أبوح لها بهذا السرالذي حفظته في صدري أكثر من عشرين عاما. وكنت أنوي أن أخذه معي إلى القبر.

ترقرقت الدموع في عينيها، وهي تسألني:
-لم تسأليني قطُّ كيف مات "عزيز" ؟!
انتبهت لسؤالها، وقمت من رقدتي، أجلس بجوارها.. أسألها في دهشة:
-ماما، ماذا تقولين؟!! عزيز مات حين كنت صغيرة، أنا فاكرة.. هو مات فجأة في الشغل، وزملاؤه جاءوا وأنا رأيتهم بنفسي. وأخبرونا بذلك، أليس كذلك؟
-عزيز لم يمت، عزيز قُتل.
-ماذا؟!!
حملقت فيها باستغراب شديد..
-أمي، ماذا تقولين؟ من فضلك.. كفى مزاحا.
-أنتِ من يجب أن يكف عن البلاهة، وتلك المثالية البريئة الساذجة، لم تعد تليق بك ولا تصلح مع هذا الزمن، أفيقي! لا تنظري تحت قدميك.. نعم، كما سمعتِ لقد قُتل عزيز.. غدرا، ودون أي ذنب، ولم أستطع حتى أن أصرخ وأقول في وجه الظالم.. حرااااااااااااااام. أبوك قُتل، وسُرقت ديته.
قالتها بشهقة ألم خرجت من أعماق أعماقها، أطلقتها كرصاصة في وجهي، لتقتلني دون عمد!
عشرون عاما يا أمي، وأنت تعرفين ذلك، واخترتِ هذا اليوم بالذات كي تقولي الحقيقة.
انسابت دموعي في صمت، بينما هي تسترجع شريط الأحداث..

***

كأنه البارحة..
دخلوا عليَّ بثيابه وأغراضه الخاصة، ومازالت رائحة الدم فيه، وقد وضعوها في كيس بلاستيكي أسود اللون. كانوا ثلاثة رجال.. تعرفت إلى مديره في العمل في التو. وهو من قدم لي كيس الأغراض، وأخبرني بقصة واهية لا يمكن أن يصدقها طفل صغير عن زوجي الذي ساقه حظه العاثر أمام رصاصة طائشة، خرجت من بندقية أحد حراس حديقة الحيوان حينما فوجىء بشبح يجري أمامه في ساعة متأخرة بعد انتهاء ساعات الدوام الرسمي للموظفين بساعات عدة. ولم يستطع الحارس تبينه في الظلام الحالك. ورفض التوقف عن الجري حينما طلب منه الحارس ذلك.
"على ما يبدو أنه لم يسمع الحارس ينادي. الواضح أنه كان نائما واستيقظ في الظلام، ففزع وخشي على نفسه. وأسرع في البحث عن طريق للخروج، كما تعلمين جيدا أنه كان يخشى الظلام بشدة".
تلك كانت جملة اعتراضية قالها الرجل الثانى الأنيق صاحب البدلة اللامعة، معلقا على كلام المدير. وعاد المدير يستكمل قصته:
-الإجراءات الأمنية مشددة منذ فترة طويلة بسبب قضية الحيوانات التي سرقت ليلا؛ لذا الحراسة مسلحة وخشيت أن يكون هو السارق. أنت ست مؤمنة، وتلك الحادثة قضاء وقدر.
و أسرع الرجل الأنيق بإخراج خمسين ألف جنيه من كيس بلاستيكي أسود آخر، ووضعهم أمامي بطريقة استعراضية لم يخطئ قلبي في تفسير معناها. وهو يوضح:
-تلك دية القتل الخطأ.. ربنا يصبر قلبك
قالها على عجل، ومضوا سريعا كأنهم أنهوا دورهم في مسرحية. وحان وقت الانصراف. وصافحوني ليذهبوا.. حينها استيقن قلبي الحقيقة الكاملة، وعرفت القاتل في الحال، شممت رائحة دم أبيك في يده "الرجل الثالث". حملقت في وجهه في ذهول.. فهم معنى نظراتي إليه، فزجرني بنظرات نارية مرعبة. أحنيت لها رأسي من الخوف.
استردت أنفاسها، ثم نظرت إليَّ وهي تسألني في خيبة أمل:
-هل تعرفين من هو الرجل الثالث القاتل؟!!
لم أجب بشيء، فأجابت في حسرة قائلة:

-أبو ريهام.. صديقتك.. حبيبة قلبك..
قالتها بسخرية. ثم أضافت:
-كان ينتظرني أمام البيت، يجلس بالساعات على الرصيف. وبعد مرور خمس سنوات، تجرعت فيهم آلام الحسرة ومرار الذل، وقلة الحيلة. وأنا بطولي يا بنتي، أتى هذا الجبان في ليلة.. في سواد الليل، ورائحة الخمر تفوح منه، طرق الباب، وفتحت لأني كنت في انتظاره.. انهار على ركبتيه يقبل قدمي وهو يبكي بحرقة.
ياه لقد انتظرت قدوم هذا اليوم بفارغ الصبر، أدخلته ليحكي لي الحقيقة كاملة..

***

"داخل حديقة الحيوان"
يوم الخميس، كانت استراحة الملك فاروق تتجلى في أبهى صورها. اختاروا هذا الموقع تحديدا منذ زمنٍ بعيد كأنهم يتباركون بهذا الموقع، وذكريات اللهو التي شهدها. كي يقيموا فيه حفلاتهم الساهرة. تلك التي تقام بصورة دورية، يحضرها رجال السياسة والأعمال، صفوة الطبقة الراقية. كانوا يسكرون احتفاءً بانتصاراتهم المجيدة.. ينفضون عن أنفسهم عناء أسبوع طالت فيه مشاقهم، يغسلون بعرقهم أجساد الراقصات، يحاولون أن يتناسوا ظلمهم مع السجائر الملفوفة والدخان المحشو بكافة ما تأمر به الأمزجة. وتذبح الأضاحي كل خميس، وتقدم الولائم العامرة بكل الأطياب والأصناف التي يسيل لها اللعاب وتلذ له النفس. لكن تلك الليلة لم تكن كأي ليلة أخرى. بل كانت لها خصوصية فائقة، بسبب تشريف ضيف مهم، تقام الحفلة على شرفه. ذبحوا الغزلان، واستقدموا فريقا من أرقى فنادق العاصمة كي يقوم على الخدمة والتنظيم. وبالطبع كان هناك حشد كبير من فرق الأمن والحراسات الخاصة يطوقون الاستراحة والمكان بأسره.
اتضح من التحقيقات أن عزيزا كان معتادا على التجول في الحديقة بالساعات بعد أن ينهي دوامه كموظف إداري في إدارة الحديقة – كما قال عنه الزملاء– ويبدو أن تقدير الوقت قد خانه في تلك الليلة، وغفا وهو جالس.

وأيقظته أصوات الموسيقى الصاخبة. ساقه الفضول أن يذهب ويستطلع الأمر. ولمحه الحرس الخاص بضيوف الحفل وهو يختلس النظر من الشباك متطفلا على الحفلة. ظنوا أنه صحفي يسعى وراء سبقٍ، أو ربما أحد الخصوم جاء ليوثق أدلة دامغة ضدهم.. ولأن الليلة كان ممنوع فيها الخطأ.. انطلق جيش من رجال الأمن يطاردونه في إصرار. وانطلقت رصاصة، قُصِدَ بها التهويشُ فقط لكنها أصابته في مقتل.

****

التقطت أنفاسها وأنهار دموعها تنهمر على وجنتيها دون صوت. ثم أكملت القصة:

" ليلتها بكى المخبر بكاءً شديدا. ووضع أمامي الخمسين ألف جنيه وهو يقول:

-سامحينى، الأمير –ضيف الشرف- أصر ليلتها أن يدفع هو الدية، وقدّرها بمليون جنيه مصرى، لكن.....

تلجلج لسانه ولم يستطع أن يكمل جملته، فأشار إلى الفلوس، قائلا:

-أرجوك، خذى هذا المبلغ.. كان نصيبي، لم أستطع صرف مليم واحد منه. أرجوكِ.. سامحيني

وهوى راكعا على الأرض منخرطا في بكاء حار.

أنهت أمي حديثها، وانهرت أنا الأخرى في بكاء حار، وكأن عزيزا قُتِلَ اليوم. دفنت وجهي في الوسادة، وراح جسدي ينتفض من الألم،

و قبل أن تغادر أمي الغرفة، قالت لي بصوت حازم جاد:

-لا قيمة لنا ما دمنا لسنا أسيادا فيها. ومن لم يكن سيدا فهو تلقائيا من طبقة العبيد. ولا توجد طبقة وسطى بين هذا وتلك. لذلك أريدكِ أن تتزوجي سيدا من الأسياد، كي لا تقضي باقي عمرك هنا في هذا الخراب والذل.. مازال الباب مفتوحا، إلى عالم الأسياد، أرجوكِ.. لا تضيعي منكِ فرصة العمر.

*****

الفصل "١٣"
"الصدام"

ما بين العالمين.. كانت هناك نقطة سكون. حيث ينتهي الصخب الذي بداخلي، ويسكن ضجيج الألم.. لحظات آمنة حالمة، كنت أختلسها من ساعات اليوم، كي أنتشي من عبير الورد في الحديقة السرية –كما أسميتها-
مضى على وجودي بالقصر أكثر من أسبوعين، لم أر خلالهما، هذا المدعو "طارق".. السيد المنتظر. أحيانا كنت أشعر بلهفة كبيرة كي أتعرف إليه خاصة بعد ما أخبرتني به شكرية هانم عنه. وأحيانا أخرى أشعر بأن ذلك أفضل، الله وحده يعلم ماذا يدور بتلافيف عقل هذا الشرقي الذي تربى في بلاد العجم.
غمرني السكون طوال تلك الفترة السابقة، وهذا ما كنت أحتاج إليه بالفعل. أن يسكن الضيج الذي بداخلي.. بين حكايا شكرية هانم عن أمجادها وصراعاتها مع الحياة. وكيف أن لكل شيء ثمنا، يجب أن يدفع كاملا ومقدما. فوجئت كثيرا حين أخبرتني أنها كانت تعمل موظفة لدى الباشا، وأنها من أسرة متواضعة، أبوها كان يعمل رئيس عمال لدى الباشا. صعقت لدى سماعي هذا لكن طريقتها المتباهية بذاتها وإنجازاتها، قولها الذي نطقت به بكل قوة " لقد صنعت هذا المجد وحدي، وأنا القادمة من أبعد نقطة ممكنة على المسطرة الموجودة من حلمي".
نقلت لي عدوى الفخر بها. وأحببتها في تلك اللحظة. لم تتركني كلماتها أظن بها سوى ظن طيب، لقد صنعتها بالفعل واستحقت كل ما وصلت إليه. وأجمل ما قالت كان عن الباشا، فارسها النبيل، لم يأت إليها على حصانه الأبيض بل اقتحمت هى عالمه بفستان سندريلا الأحمر. استغربت تعبيرها بشدة، لوهلة تغيرت نظرتى، واندفعت قائلة:
-أغريته؟!!
سألتها في تشكك، فانفجرت ضاحكة، معقبة على سذاجة كلامي قائلة:
-هذا كل ما تعنيه لكِ قصة سندريلا والفستان الأحمر؟!!
قالتها وهي ترمقني بنظرة تحدٍ، ثم أكملت حديثها:

-لو كان الأمر كذلك، فكيف لم تسبقنى أخرى إليه، وتحصل عليه. كنت الأولى في حياته وكان في الخمسين من عمره؟!!!! فكري !!
سكتت بعدها ولم توضح أكثر من ذلك. عشقت حكيها.. و عشقها مع الباشا. وكنت أحسب أن الكون قد نفد منه مثيلاتها.
دون أي سابق مقدمات، قطع صوته خلوتي، نفذ إلى مسامعي، قائلا:
-أنت، ما اسمكِ؟
رفعت نظراتي إليه، لأراه لأول مرة.. رجلا يبدو في منتصف العقد الثالث من عمره، يطل بوجهه الوسيم، وقامته المشوقة، وجاذبية لا تقاوم. وقد ارتدى سترة صوفية، وشمر عن ساعديه رغم برودة الطقس. لمعت خصلات شعره الأسود الطويل نسبيا تحت بريق الشمس، بينما تناثرت بعض شعرات فضية اللون هنا وهناك، كي تزيد من وسامته. وتضفي على عنفوان شبابه ملامح الوقار وأمارات النضج المبكر. تساءلت في سري عن سر هذا الشعور الغريب الذي ينثره في من حوله، ويبثه فيمن يصادفه، وينشره فيمن حوله.
أتراها جاذبيته؟!!.. أم هى الراحة التي تتسرب إلى النفس حين تراه؟!!..
أظنها ألفة..
نعم، هي الألفة.. كانت أولى مشاعري وخواطري حين صادفته لأول مرة. وشعرت بها تنساب إليَّ عبر الصور.. هو ماثل أمامي الآن!!..
انقطع هذا الحبل الروحي فجأة بنبرة صوته المتعالية. لن أنسى مطلقا ذلك الصوت المتهكم الساخر الذي بدد نبل الصورة وجمالها، وتلاشت هالته بداخلي في التو لتحل البشاعة محلها.
دون تحية أو سلام، أعاد سؤاله في غطرسة وجفاء:
-ما اسمك؟ هل أنت عاملة جديدة بالقصر؟
قالها وهو يدور من حولى بطريقة استعراضية فجة، ممسكا بالسيجار بين أطراف أنامله، وينفث الدخان في بطء ليصنع غيمة غبراء من حوله. عيناه الودودتان استحالتا وقحتينِ تعمدتا إهانتي بنظراتها الفاحصة دون خجل.. شعرت كأني عارية تماما أمامه. وخجلت من نفسي، بل اشمئززت من حالي. لوهلة كدت أنهي كل شيء، وأتراجع.
لكن، لا.. ليس أمام تلك العيون الوقحة..
-ها.. أنتِ، ألم أوجه إليك سؤالا؟ أم أنكِ صماء؟

رمقته بنظرة نارية حانقة. ولا أدري لِمَ سعد بها، فأكمل حديثه بنفس النبرة التهكمية، قائلا:

-إذن، أنت خرساء؟!

امتعض وجهي وتكرمشت ملامحي، وأنا أستنجد بعقلي صارخة فيه: "لم لا تسعفني بإجابة أُخْرِسُ بها هذا الحيوان؟! "

-أليس عيبا في حقك ألا تكون على دراية باسمي؟؟!!..

انطلق السؤال وحده من فمي وبنبرة تشبه نبرة صوته الساخرة..

فتبسم لي ضاحكا، وقال في سرعة بديهة وسلاسة:

-أنا لا يعنيني شيء على الإطلاق. في المرة القادمة حين أسألك سؤالا، أتوقع أن تتخلي عن نصاحتك تلك وتجيبي إجابة بسيطة واضحة، مفهوم؟

صفعها رده الوقح. من هذا الكائن كي يتعامل معي بتلك الطريقة؟ من يحسب نفسه؟

-الآن، سأعيد السؤال مرة أخيرة لأتأكد من أنك تفهمين كباقي البشر متوسطي الذكاء. ما اسمك؟

و بمنتهى العجرفة، أضاف:

-بِمَ أناديكِ حين أرغب في ذلك؟

"إنه الشخص الأفظع على الإطلاق على وجه البسيطة، أظن أن هولاكو بجواره ملاك "، لكنَّ كبريائي يمنعني من الانسحاب "تبا، لعنادي، وتجربتي اللعينة. يريدها حربا، فلتكن. أنا الآن جاريته المطيعة! أجبته بنبرة طائعة مفتعلة:

-دُرَّة، اسمي دُرَّة.

-ثلاثي، ألم يعلمك مدرس الابتدائي أصول الإفصاح عن اسمك ثلاثيا؟!

قال عبارته السابقة بنبرة صوت هادئة، تقطع الكلمات كمن يلقن طفلا صغيرا درسه.

ازدردت ريقي كي أبتلع إهانتي، ثم أجبت:

-دُرَّة عزيز الجواهرجي.

فأومأ برأسه، قائلا:

-جميل، اسم مميز.

-اسم على مسمى، هكذا أنا.

تحدثت بثقة، وبنبرة تحدٍ. فصفعني بقوة بقوله:
-ربما، لكنه الآن ماضٍ. لومي غباءكِ أو غروركِ، ربما لديك حالة تخلف عقلي في مراحله المتأخرة. مهما كان السب الذي دفعك لتلك الحماقة. لم يعد يهم. لأنك الآن هنا، وملكي أنا. تكونين كيفما أريد.. وقتما أريد.. بمزاجي.. أنا.
كم وددت لو أصرخ في جهه، مصححة له " إذن أنت تعلم من أنا جيدا، وما هو عملي !!، وأنه ليس غروري هو الذي قادني إلى هنا أيها الأحمق. بل لأني ثائرة.. ثائرة على أمور لا يفهمها أمثالك. أبحث عن معانٍ لا تستوعبها تلك الصفيحة الفارغة التي تقع أعلى كتفيك".
لكني أمسكت لساني في اللحظة الأخيرة، حاولت أن أضبط أعصابي قدر المستطاع وأنا أوضح له قائلة:
-يبدو أن محاميك لم يفهمك شيئا، أنا هنا كي أكون ما أريد وليس ما تريد. هذا هو الغرض الرئيس من كل هذا.
أنهيت اعتراضي بقولي "أيها الغبي" لكني قلتها بصوتٍ خفيض غير مسموع.
-دعكِ من هذا الكلام المنمق. اشتريتك أم أنا مخطىء؟!
أذهلتني وقاحته، وتلك البساطة المستفزة التي يتحدث بها، أعجزتني عن الرد. فاستكمل نيابة عني، قائلا:
-ماذا توقعتِ مني أنا أقول؟ هذه هي الحقيقة.. أنت هنا ملكي.. بتعبير أدق جاريتي.
-لمدة عام واحد فقط
اندفعت قائلة بحزم، انفجر له ضاحكا.
- وهذا يكفيني.. بل أكثر من كافٍ..
-أنت مستفز.
انزلقت مني الجملة دون تفكير. فكفَّ عن الضحك فجأة مثلما بدأ.
وقال بنبرة هادئة تماما:
-وأنت بلا صبر، توقعتك مثيرة وجريئة أكثر من ذلك..
قالها وهو يتحرك مبتعدا، مغادرا الحديقة، وقبل أن يختفي تماما عن نظري، التفت إليَّ، قائلا بخيبة أمل حقيقية، بعد نظرة متفحصة أخيرة :
-فعلا توقعتك مثيرة أكثر من ذلك، يبدو أنى سأَمَلُّكِ سريعا.
ألقى تهديده الأخير، وتبخر بعيدا.

" ما هذا الكائن البلاستيكي المشاعر اللزج.. ! "
وقعت على الدكة، تغلي بداخلي كل الأفكار وتتصارع المشاعر المتناقضة كافة.. بين عجرفة ووقاحة لم أعتد عليها وبين حلم وتجربة لست مستعدة بعد أن أتراجع عنها. وليس بعد كل هذا الكم من التشويق الذي أبلتني به شكرية هانم، وصار لدي فضول أكبر كي أفهم.. وآمُل أني على صواب.. وسأجد هنا ما أسعى إليه.
لن أسلم.. ليس الآن، ومحال أن أنهزم من الجولة الأولى.

***

انتفضت من فراشي على صوت أنفاس تلهث بجواري، ويدٍ تهزني بعنف كي توقظني. ما إن تنبه عقلي لِمَا يحدث حتى فزعت إلى مغادرة السرير، أضأت نور الأباجورة في الحال. رأيته وهو يرتدي " روبا " حريريًّا فوق بيجامته. يجلس مستلقيا في السرير، ثم قال لي في منتهى الأريحية والهدوء:
-لِمَ انتفضتِ هكذا!! تعالي، استلق بجواري.
وقفت مذهولة، لم أشعر بأنه في كامل وعيه واتزانه العقلي. المفاجأة ألجمت لساني وعقلي، لم أعرف كيف أتدبر حالي، وفي تلقائية بحتة، سحبت الروب الصوفي من على طرف السرير، و ارتديته. ضحك بصوت عالٍ ساخر من فعلتي.. وتعالت ضحكاته. ثم انتفض قافزا من السرير، واقفا أمامي على بعد خطوة ثم في لحظة واحدة. أطبق على ذراعي بقوة، وهو يقول لي:
-أليس هذا جزًا من الاتفاق!! أنت لي كاملة!!
لم يمهلني لحظة كي أستوعب الأمر، فنزع عني الروب.. ومزق قميصي بعد صراعات طويلة مع ذراعيَّ اللتين التفتا في تلقائية تقف في طريقه، تتعارك مع قبضته كي أحرر نفسي منه. عجز عقلي عن الفهم.. وهو يكرر عبارته السابقة في استفزاز، ثائرا على حمايتي لذاتي، أدركت أنه يفوقني قوة.. لن أستطع الصمود أكثر وهو يفوقني قوة جسدية. فبكيت في تلك اللحظة بحرقة، وذراعاي ترتخيان تماما وكل جسدى ينهار على الأرض راضخًا له. أجهشت بالبكاء.. بكيت كما لم أبكِ في حياتي.. من قبل.. ودفنت رأسى في الأرض كطفلة يتيمة تائهة أخبروها لتوها أنها صارت بلا أب.
توقف.. تسمر في مكانه بضع لحظات، ثم سمعت وقع أقدامه يغادر.

و رغم ذلك لم أستطع الحراك، لم أستطع النهوض.. لم أتوقف عن البكاء، بل راح صوت شهقاتي يعلو أكثر وأكثر.. ونياط قلبي تكاد تتمزق من الألم. ورغم برودة الطقس وثيابي الممزقة فإني شعرت بحُمَّى تجتاح كل أوصالي.. تصهرني على البساط، تلحم لحمي بالأرض، لن أنهض مطلقا عنها.. لن أقوى.. بل صرت لا أرغب في النهوض.

لا أدري كم مر من الوقت عليَّ في هذه الحال؟! حتى تناهى صوت الموسيقى الحالمة إلى أذني.. وانسابت نغماتها تطبطب عليَّ.. تكسو عُرْيِي. نفس المقطوعة السابقة التي تعزف في كل مرة. هدأت أنفاسي المضطربة.. وشعرت بكل كياني ينطفيء.. حتى غفوت.

*****

الفصل "١٤"
"من أين تشرق الشمس؟!!"

ساءت أحوال الطقس ليضرب أرجاء البلاد كافة؛ أعاصير وعواصف قادمة من الشمال، تغلق الموانئ، وتعلق العمل في مدن السواحل. وتبيت المحروسة ليلتها غارقة في الأمطار الشديدة ونوبة برد قارسة غير مسبوقة غير معتادة. حذرت هيئة الأرصاد الجوية من استمرار هذا الطقس السيئ لعدة أيام أخرى تالية. وبينما تصدق ظنون الأرصاد الجوية، وفي الصباح يعلو زئير الرياح، ويتردد صداها حتى السماء، ترتعش له القلوب وأسقف البيوت على حدٍ سواءٍ. وتصبح المدن معصوبة العين.. تغطيها سحب الشتاء.. لكن لسبب ما غير معروف، قررت الشمس أن تطل في هذا الصباح بإشراقتها الذهبية البراقة على تلك البقعة من الأرض، تخصها وحدها.. دون غيرها بحنانها الدافيء.. تعلنها محمية طبيعية.

في تلك البقعة من الأرض، وتحديدا منذ خمس سنوات مضت، شُيِّد على أرضها فندق صغير على مساحة عشرة أفدنة تحيط به الأراضى الخضراء من كل اتجاه، وتمتد على مرمى البصر. ملحقا به إسطبل لتربية الخيول، ظن الجميع أثناء تشييده أنه مشروع استثماري ضخم.. وانتظرت شكرية هانم بفارغ الصبر اللحظة التي سيعلن فيها طارق عن هوية مشروعه. تلك اللحظة التي تحترق شوقا لها.. من سنين طوال ليعلن بها عن مولد "الباشا طارق" يكتب أولى صفحات مجده.. ويثبت للجميع أنه أهل لتلك التركة.. أهل لأمبراطورية الهواء. وحين رفع الستار عن "اليافطة"، تعلن عن اسم المنتجع..

اصطدم الجميع بالمكتوب "مؤسسة النور لأصدقاء مرضى السرطان"، مؤسسة خيرية. لحظتها هوت كل آمال شكرية هانم وانسحقت في ثوانٍ. وفي الاجتماع المغلق الذي عقب ذلك وجمع بينهما وانضم إليهما محامي المجموعة خالد وصديقه الوحيد دكتور أحمد، والذي كان مفاجأً هو الآخر مثله مثل الجميع.

وقف طارق محموما بمشاعر السعادة الصادقة، يصف فكرة المشروع: بأن هذا المنتجع سيوفر الرعاية النفسية والتغذية الملائمة للأطفال المصابين بالسرطان والمتعافين منه، حيث يقيم به الأطفال في تلك الأيام الصعبة التي تلي جلسات العلاج يتلقون التغذية الملائمة والدعم النفسي والمعنوي الذي يحتاجون إليه، والذي يصعب على كثير من ذويهم أن يوفروه لهم. وأيضا فترات النقاهة بعد العلاج كي يستعيدوا نشاطهم الجسدي وتوازنهم النفسي للاندماج ثانية مع الحياة.

غرقت شكرية هانم في صمت تام بينما صديقه الدكتور أحمد تأرجحت مشاعره بين السعادة والدهشة وعلامات المفاجأة؛ خاصة أن طارق صرح للجميع بأن الدكتور أحمد هو المدير التنفيذي للمشروع.

والوحيد الذي لم يستطع أن يمنع مشاعر السرور والسعادة الغامرة من أن تجتاح كل أساريره وبارك لطارق مشيدا بعبقرية الفكرة. بينما شكرية هانم تتابع المشهد في حسرة تامة. وحدها تفهم تماما السر الحقيقى وراء سرور خالد وسعادته، والذي سيخلو له الملعب الآن وقد انسحب آخر لاعب، لم يكن نزل إلى أرض الملعب بل ظل طوال الفترة السابقة يلازم دكة الاحتياط. انسحب الآن من الأجواء، بعدما طال انتظار الجميع. كتب طارق الليلة بهذا المشروع نهايته.. انسحب قبل أن يبدأ.. !! فكيف لا يسعد الليلة خالد ويبيت يرقص بعدما قد نال مراده.

***

أقبلت سيارة جيب مسرعة تجاه تلك البقعة. ما إن لمحها حارس الأمن من على مسافة بعيدة حتى فزع من مقعده يفتح لها الأبواب على مصاريعها. وما إن اجتازت السيارة البوابة حتى انطلقت أبواقها عالية تعلن أنه قد حان موعد ساعات المرح. وما إن سمع الأطفال الصوت حتى تهللت وجوههم واجتاحتهم السعادة.. فالقادم رجل استثنائي، لم يعتبروه يوما هو مالك المنتجع يمدهم بأسباب الحياة، بل هو الحياة نفسها..

لم يكن هو صانع البهجة التي تسكن في قلوبهم المتألمة، بل هو البهجة ذاتها.. الساحر الذي يجعل كل شيء مستطاعا.. ويبرق بالأمل أمام عيون الصغار، تلك التي اعتادت أن تطل على الدنيا من جحورها بحذر، تراقب المشهد في صمت. باختصار هو طارق الباشا هو السكينة في أيام شدتهم.

لا عجب أن يتخلى الصغار عن ألعابهم، تركوا الأرجوحات خاوية كي يصنعوا مظاهرة سلمية بريئة أمام منصة قدومه،
تعالت أصوات الصغار وصيحات الإثارة حين هبط من سيارته واستقر بينهم، يصافح كل واحد منهم على حِدة بحرارة وعناق. عدا طارق الصغير الذي انزوى عن المجموعة في ركن بعيد، يراقب المشهد في صمت طفولي مشبوب بالغضب، عاقدا ساعديه الصغيرتين أمام صدره. لمحه طارق وتوجه صوبه والبسمة تكاد لا تفارق شفتيه. وأمام الصغير الغاضب نزل على ركبتيه كي تتلاقى عيونهما. وقبل أن يتفوه طارق بأي حرف كان الصغير قد انهار بالفعل، وفارت دمعته الصغيرة على خده وهو يرتمي في حِضنه، قائلا في عتاب:
-لقد خالفت موعدك معي؟
-غصبا عني.. سامحني. حدث ظرف طارئ.
-كان يمكنك الاتصال بي.
-نعم، معك كل الحق.. أنا مخطئ، لكن قول لي الآن كيف يمكن أن أصلح هذا الخطأ الشنيع؟
-اركب معك "الإعصار" أول واحد، ولوحدنا وفي جولة طويلة.
ابتسم فور سماعه مطلب الصغير. وحضنه بقوة، وهو يجيبه:
-ولك ما أمرت به..
تهللت أسارير الطفل، وشرعت البسمة تلقي بضيائها على وجهه.. تحرر طفولته الواثبة من بين خيوط الغضب الواهية.
وأقبل عليهم رجل يبدو من ملامحه أنه في نهاية العقد الرابع من عمره، يرتدي بذلة رياضية، لا تنسجم مع قوامه الممتلئ يخطو بخطوات مرحة واسعة تجاه المجموعة، وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة واسعة وهو يستقبل طارق باشا. نهض هذا الأخير في التو عندما رآه، كي يسلم عليه بحرارة وحضنه في شوق حقيقى، قائلا:
-صباح الخير يا دكتور أحمد؟ كيف كانت أجازتك؟
-أجازة؟!
قالها ساخرا، وأكمل:
-الله يسامحك يا طارق، قلت لك من قبل، أنا لست من هذا الطراز الذي يأخذ أجازات. أنا من الطراز العتيق الذي يموت ويداه في الشغل.

انفجر طارق ضاحكا من تعليقه، ولم يستغربه على الإطلاق. بل هذا هو المتوقع تماما من شخص مثل دكتور أحمد؛ رجل عمل من الطراز الأول، لا يعرف جسده طعما للراحة، يجد كل متعته في التفاني في العمل. يكاد لا يشعر بأي إرهاق قبل أن تمضي ١٢ ساعة متواصلة، حينها يتوقف قليلا كي يسترد بعض أنفاسه، ومجيزا لنفسه القليل من الراحة.
غمز له طارق غمزة ذات دلالة، وهو يقول:
-كي تكف عن مطالبة مرضاك بذلك، أيها الدكتور الفيلسوف.
ضحك دكتور أحمد، وهما يسيران معًا مبتعدين عن الأطفال. لكن قبل أن يغيب طارق عن نظر الصغير، التفت له مطمئنا وهو يقول:
-نحن على اتفاقنا أيها البطل، العب مع أصدقائك، سأجهز الحصان وأنادي عليك.
اتسعت ابتسامة الطفل حينما خصه طارق بالذكر أمام الجميع، ورد عليه باسما:
-حاضر، لا تتأخر.
قالها وهو ينصرف مرحا للانضمام لأصحابه بمحبة طائعة.
و شرع دكتور أحمد يقص تفاصيل أجازته على طارق، وكيف أنه قد قضى معظم الوقت نائما لدرجة أن إدراة الفندق قد ساورها القلق حينما لم يظهر لأكثر من ٤٨ ساعة. فوجئ بهم يقتحمون عليه الغرفة وهم يخشون أن يكون قد فارق الحياة.. ولم يتمالك طارق نفسه من الضحك على حال صاحبه.
لم تكن العلاقة التي تربط بين الدكتور أحمد الوكيل - مدير مؤسسته الخيرية "مؤسسة النور" والمعالج النفسي الخاص به- وطارق هى علاقة عمل فحسب، فالصداقة المتينة التي جمعت بينهما هي التي دفعت طارق في المقام الأول إلى أن ينشئ تلك المؤسسة دون غيرها من الأنشطة الخيرية، والتي هي في الأساس حلم صديقه ومرشده النفسي الدكتور أحمد. طالما حدثه عن هذا المشروع وأنه هو مشروع تقاعده، لم يمنعه شيء عن تنفيذه سوى قلة موارده المالية. وحين واتته فرصة للسفر لم يتوان عن قبولها حتى يجمع المال اللازم لمشروعه الخيري.

لذا لم يفكر طارق مرتين حين سمع بالخبر، وبدأ في الحال تشييد هذا المنتجع الاستشفائي على أعلى وأرقى مستوى، وزوده بجميع الكماليات التي تخدم فكرة العلاج والدعم النفسي الذي يحتاج إليه هؤلاء الصغار. شيَّده في الأساس كي يمنع رفيق الدرب من البعد عنه والاغتراب، وحتى يجمعهما رباط دائم ومشترك للأبد. فعلها بكل الحب والتقدير لهذا الرجل الحقيقي الذي مد إليه يد العون كي يخرجه من الظلمات ويعود به إلى الحياة مرة أخرى. لم يعرف طارق أباه، وكان الدكتور أحمد بالنسبه إليه هو أباه الحقيقي.

دكتور أحمد الوكيل أخصائي نفسي من الطراز الرفيع، حاصل على درجة الدكتوراه في علم النفس الإكلينكي. وقضى باعا طويلا من مشواره المِهْني في علاج حالات الإدمان في واحدة من كبرى مستشفيات العلاج النفسي والإدمان في مصر، وهناك التقى "طارق" الذي لم يعامله قطٌّ كمريض بل كصديق أراد له النجاة.

قاما بجولة العمل المعتادة معًا، يتفقدان خلالها جميع غرف المنتجع ثم المرور على المطبخ واختيار أصناف الطعام. ويتوقفان قليلا لاحتساء القهوة في مكتب الدكتور أحمد، وتنشب المشاجرة المعتادة بينهما حين يصر دكتور أحمد على إطلاع طارق على الموقف المالي للمؤسسة، ويطالبه بالجلوس ومراجعة الدفاتر والحسابات المالية بتفاصيلها كافة. رغم علمه بمدى تبرم طارق وتذمره من تلك الجزئية.

ثم تنتهي جولة العمل ويبدأ المرح عند أعتاب "إسطبل" الخيل.

-"نظرتك لإعصار Tornado كما هي لم تتغير، مثل أول مرة رأيته فيها. وقعت في غرامه للتو"..

بينما كان طارق منغمسا تماما في تمشيط شعر الفرس قال :

-إنه الحبيب الأول.

-مازلت أذكر اليوم الذي ذهبنا فيه إلى المزاد، واخترته دون غيره من الأحصنة التي رشحها لك الطبيب البيطري.. اخترته بعناد طفل لم أرَله مثيلا.

-لأن عينيه تشبهني.

-فعلا، هذا حقيقي. لهذا وافقتك. أنا نفسي استرعى انتباهي هذا الشبه الجلي.

أتذكر حين عدنا به، وصممت أن تبيت هنا في الإسطبل معه كي تؤنسه في ليلته الأولى. لكنك لم تستطع فراقه لمدة شهر كاملا، ظللت تبيت في الإسطبل، تعتني بالإعصار لا تفارقه.
ضحك طارق حينما ذكره الدكتور بتلك الواقعة التي يصر على تذكيره بها من حين لآخر. ثم أكمل، ضاحكا:
-فاكر يوم أن أخبرك الطبيب البيطري بضرورة الاتفاق مع حوذي كي يركب الفرس ويجري به كل يوم وإلا يصاب بالاكتئاب. حينها ثرت ولم تطق أن يركبه أحد غيرك، علامات غيرة فضاحة. وبدل من أن تأتي بحوذي، جلبت أشهر المدربين من مدارس ركوب الخيل كي يدربوك. واندهش الجميع من براعتك في الركوب، وبعد أقل من شهرين تدريب. وكأنك ولدت فارسا..
لأجل المحبوب تفعل أي شيء.
قالها طارق بنبرة صوت حانية ممتزجة مع رقة مفتعلة.. انفجر لها كلاهما من الضحك، وعقب د. أحمد ساخرا :
-يا حظك يا Tornado، ويابختها بكِ.
المقطع الأخير كان بمثابة تعليق مشاكس من الدكتور، فهم طارق مغزاه. حاول قطع الحديث من دابره بقوله:
-لاتوجد امرأة تستحق.
-إذن، فأنت لم تأخذ بنصيحتي، وضربت بحديثنا السابق عرض الحائط.
-لن أشارك في هذا الجنون، دعنا نغير الموضوع.
-هل قابلتها؟
شعر طارق بغصة في حلقه حينما وجه له د. أحمد هذا السؤال. وتذكر فعلته الدنيئة ليلة أمس. تلك التي طاردت خياله طوال الليل، ولم يغفل له جفن. وقصد المنتجع منذ الصباح الباكر كي يتخلص من أشباحها. لم يجب سؤاله، تجاهله وهو ينادي على طارق الصغير كي يركب معه الإعصار.
وفي تلك اللحظة وصلت سيارة شكرية هانم في سابقة من نوعها، فهي لم تطأ قدماها هذا المكان منذ ليلة الافتتاح. الليلة التي كرهت فيها فعل الخير حتى النخاع، لكن في هذا الصباح غيرت رأيها، وقررت زيارته. بعدما أخبرتها "أنيته" بالحالة التي وجدت عليها دُرَّة وهي توقظها من النوم، ملقاة على الأرض وقميص نومها ممزق.

بالطبع كان يسهل على الهانم تخمين واقعة الأمس. فأرادت أن تصطحب دُرَّة إلى تلك البقعة خصيصا، هنا فقط ستفهم طارق على حقيقته الخيرة -تلك التي تكرهها فيه-، ربما بذلك تجهض أي محاولة هروب أو انسحاب تكون قد فكرت بها.

ترجلت الهانم من السيارة ومعها دُرَّة تمد لها يد العون، ووصلتا إلى "البرجولا" المقابلة للإسطبل، كما طلبت الهانم. وأقبل الدكتور أحمد حين لمح السيارة تقترب، يكاد لا يصدق نفسه ولا تسعه الفرحة. رحب بهما ترحيبا حارا، وجلس معهما. يتعرف إلى دُرَّة التي يقابلها للمرة الأولى.

وحين لمحت دُرَّة طارق بطرف عينها، أزاحت نظرها عنه في التو. وتفادى هو الآخر النظر، تشاغل بوضع السرج على ظهر الفرس، والاطمئنان على أربطته ومدى إحكامها. وحينها قدم طارق الصغير يقفز من الفرحة.

" مستعد يا بطل، يلا.. هيا بنا"..

قال طارق عبارته السابقة للصغير، وهو يرفعه على ظهر "إعصار". ثم ربَّتَ على الفرس كي تهدأ حركته بعدما جفل. وراح طارق يلقن الصغير التعليمات و يعيد عليه المحظورات الواجب معرفتها كي لا يسقط من على ظهر الحصان. حتى باغته الطفل بسؤاله.. وهو يرفع ذراعه كي يحتمي من شعاع الشمس الذي سطع في عينيه. وسأل في براءة طفولية عذبة:

-عمو طارق، من أين تأتي الشمس؟

نظر طارق تلقائيا إلى قرص الشمس الذي تربع على عرش السحب. وابتسم له ابتسامة هادئة أنارت وجهه، وهو يدق بسبابته على صدر الصغير، حيث مستقر القلب. مجيبا له:

-من هنا.. تشرق من هنا..

و بقفزة واحدة اعتلى صهوة الإعصار خلفه. ولكزه في بطنه، فطار بهما يطوي الربوع الخضراء المترامية على مداد البصر. وحوافر الإعصار تضرب الأرض بعنف وثبات تطارد خيوط الشمس في المراعي الخضراء في عنادٍ.

*****

الفصل "١٥"
"خسارة العمر"

نعم، لقد مر ببال دُرَّة أن ترحل بعد ما بدر من طارق. شيء ما قد انهزم بداخلها عندما حاول الاعتداء عليها. وما أحزنها في حقيقة الأمر، أنها لم تعرف هل كان هذا حقا له وهى لا تدري؟!!..

هل هذا هو المتوقع وهي غافية مازالت تعيش في دور لا يشبه الآن؟!!.. تلك الحيرة والكاسرة كانتا أكبر على نفسها وأشد وطأة من الحادثة نفسها.

"أين أنا الآن على خريطة الدنيا؟!! وماذا أفعل؟!! "تساءلت. شعرت بطاقتها تنخفض إلى حد مخيف جدا.. إلى الحد الذي يجعلها تسأم التفكير وتمل الفلسفة، إلى الحد الذي جعلها تطيع ما يُملى عليها كي تريح عقلها من عناء التحليل والتقرير. فعلت ذلك، وفي استسلام عجيب رأته شكرية هانم في عينيها حينما أطاعتها ووافقت على أن تصاحبها إلى المؤسسة. لم يبدر منها أي سؤال. ولم تكن شكرية هانم تتخيل أن الأمر سيكون بهذه السهولة.

توقفت الحرب الضروس بداخلها أخيرا.. ليحل محلها استسلام عجيب لكنه مريح لدُرَّة، على الأقل في الوقت الحالي.

حين رأت طارق يركب الفرس لم تجد بداخلها شيئا عدا الحزن والاستسلام. لم تحاول دُرَّة أن تمنع نفسها من النظر إليه حينما انطلق بفرسه، وامتزجت ضحكة الطفل الصغير الذي ركب أمامه مع صهيل الحصان. ابتسمت حين رأت هذا المشهد، وكانت أول بسمة تزورها منذ حين. وتابعت ثلاثتهم المرحة؛ الطفل والحصان وفارسه وهم يبتعدون وسط الجنان الخضراء.

"هل هو فارس نبيل؟!! " مر السؤال ببالها. ولم تكترث به.

دبرت شكرية هانم تلك الزيارة خصيصا كي ترى دُرَّة المؤسسة التي تعكس وتحكي الكثير عن طارق الحقيقي. وكانت فرصة مثالية كي تقابل دكتور أحمد. الصديق الوفي الذي على استعداد أن يفدى صديقه ولو بعمره. أخبرته بالطبع شكرية هانم بقصة دُرَّة والعقد.. والثمن العجيب الذي تطلبه مقابل التنازل عن ملكية نفسها لمدة عام. شده الفضول أن يراها حين سمع بهذا العرض الغريب.

لكن بعد أن أرسلت له شكرية السيرة الذاتية لدُرَّة، ورأى كم هى جميلة ناعمة الملامح تبعث الأمل فيمن يراها، ومثقفة ودكتورة في الجامعة أيضا..
كل ذلك فجر مليون علامة استفهام تطرح ذاتها أمام عينيه. القصة هكذا لا تتسق.. محال أن تكون طامعة أو لعوبا، بل هناك سر وراءها.
و الأهم عنده هو لون الأمل الذي يشع من روحها، يتطلع في قسمات وجهها، طمع كثيرا أن يرى طارق ذلك بنفسه، وتحدث المعجزة. دعا بإخلاص من أجل تلك اللحظة. وحين لمح لمعة الإعجاب في عيني دُرَّة وهي تراقب طارق، أدرك أن قلبه على صواب. وسمح لنفسه أن يحكي لها عن طارق وتفاصيل حياته السابقة، ربما يخرج من رحيقها ترياق لآلامه.

***

حكى الدكتور أحمد لدُرَّة عن حياة هذا الغلام الثري الذي ولد في الدنيا، ودون ذنب منه تربى على أنه ضيف ثقيل غير مرغوب فيه. يقيم باستراحة ملحقة بالقصر، ترضعه الخادمات، تجفف امرأة غريبة دموع صباه. غريبة عن بلده وأهله، عن دنياه وهو لايزال لينا طفلا، ليبدأ رحلة تعليمه في المدارس الداخلية في تلك البلاد القصية الباردة. فقد دفعت به الهانم إلى إنجلتر كي يتلقى التعليم الأساسي وحتى المرحلة الثانوية، أرادت له أن ينهل من تلك الحضارة وتعاليمها قدر المستطاع، أن يشتد عوده صلبا قاسيا لا يلين. ثم نقلته إلى أمريكا كي يدرس إدارة الأعمال هناك في جامعة من أكبر وأشهر الجامعات الأمريكية جامعة "هارفارد". وبعد أن أنهى دراسته الجامعية وعاد لموطنه كي يستلم مقاليد العرش ومفاتيح الإمبرطورية.. الفتى المنتظر.. الذي يترقب الجميع وصوله في توجس وحذر، يشاع أنه أقسى قلبا من أمه وأبرد بكثير.
يشاع أنه أشد صلابة من أبيه، وأذكى من كليهما معا. صنعت منه الدراسة في بلاد العجم آلة للعمل.. لا ترحم..، هكذا سمع عنه الناس وتخيلوه هولاكو القادم من المجهول. واشرأبت العيون لهذا اليوم المشهود الذي سيعود فيه. وتأكدت ظنونهم حين سمعوا أنه لدى وصوله للقصر، حيًّا أمه كأي رجل غريب، ودعاها كما يدعوها الجميع "شكرية هانم".
لكن تمضي الأيام والشهور وهو لا يظهر في المشهد على الإطلاق. لم يحتل أي دور معلنا، لم يقصد مصانعه وشركاته مطلقا.

احتار الجميع وأصبح موضوع حكاياهم وخيال الإشاعات. لم يعرف أحد أنه كان يصوغ أعذارا واهية كل يوم يقدمها للهانم، كي تتركه لحاله بدعوى أنه يتأقلم مع حياته الجديدة في مصر. صدقته في البداية لكن طال الوقت وهو على الحال نفسه.. وشعرت بالخذلان العظيم حين رأت فيه الطيبة والحلم و هدوء الروح، شعرت أنه لايزال عودا أخضر. ارتاعت ليلة أن أخبرها بأنه ليس مستعدا أن يتحمل أعباء التركة الآن. ليس جاهزا لتلك المرحلة، يريد أن يخلو بحاله، يتأمل الوجود، يبحث عن أسبابه، جدوى الحياة، ومغزى العيشة والألم. ربما يسافر أيضا إلى الشرق، ربما يجد إجابات حاضرة هناك.
سافر، وعاد كي يقول لها:
-ابحثي عن غيري يدير لك ثروتك. ستجدين حتما من هو أفضل مني.
-أتمزح معي؟!
-لا أحب المزاح. أريحي نفسك، لا تجادلي.. وتقبلي الأمر.
وكأنه يقول لها: "أخيرا هناك شيء في الكون يستعصي عليك، يخالف التعليمات، ولن يسير وفقا لرغبتك.
صرخت فيه وهي مذهولة لا تصدق نفسها:
-أيها الأخرق، فاسد العقل.. تلك ثروتك أنت يا أحمق. أنا أنهيت دوري، وأودع.. أنت القادم.. أنت الغد.
-ابحثي عن غيري.. لن ترسمي لي الغد أيضا. يكفي عبثكِ في الماضى بطوله.
-فعلا، لقد أخطأت في تربيتك. أنت الشيء الوحيد الذي فشلت فيه.
-نعم، أنا مشروعك الفاشل. وأنت لم تربني من الأساس؛ لأن الخادمة هي التي فعلت.
ألقى كلامه، وانصرف في التو. لم ينتظر حتى يسمع تعليقها. كان عنيدا، وورث ذلك عنها.
انهارت يومها. ولم يحتمل قلبها ذلك، ومرضت مرضا شديدا حتى ظن الجميع أنها القاضية. كانت تحترق شوقا لقدوم هذا اليوم الذي يعود ويعلن بَدء مجده الخاص ويتسلم الراية، ويقبض على زمام الأمور بقبضة من حديد. لم تحسب حسبانا لهذا اليوم، ولم يدر ببالها مطلقا. وفي سقطتها المرضية تلك لم تجد رجلا تعتمد عليه سوى الخبيث اللئيم المحامي الداهية الذي يعرف كل كبيرة وصغيرة عن المؤسسات، يدرك خباياها.

وضعت في يده كل الصلاحيات. وافقت صاغرة على دفع الثمن ألا وهو زواج ابنها الوريث الوحيد لابنته العروس التي يتحاكي بجمالها. ورأى المحامي أن هذا ثمن عادل لكل خدماته وإخلاصه لها.
كان حال طارق يسوء يوما بعد يوم. الشاب الوسيم ينزوي، لا يخرج.. يكاد لا ينطق بكلمة لأيام وأسابيع.. يجلب له الخدم الخمور في جناحه الخاص الذي لا يفارقه. تفوح رائحة الحشيش من الفيلا لتشمها الهانم في القصر. وتمر الأعوام.. وحاله لا يستقيم بل يسوء من عام إلى عام.
وهنا انتفضت الهانم وتصدت لأفعاله الطائشة لأول مرة. وفي ظلام الليل، حضر الطبيب النفسي ومعه قوة كي تودع طارق في مصحة لعلاج الإدمان. وظنت الهانم أن الخبر لن ينتشر، لكن تقريبا الجميع قد عرف به. لم تطق همزهم ولمزهم وعيونهم الشامتة المتشفية. فصرفت جميع خدم القصر، واستقدمت عمالة أجنبية من الخارج. وأطاحت بكل عين شامتة، وكل لسان واتته الجرأة على البوح من العاملين بمؤسساتها أيضا. وابتلع الباقون كلمتهم.. وبقيت العيون تتطلع إلى ما هو آتٍ..
وهي الأخرى.. بلعت لسانها وكتمت حسرتها في قلبها، تتطلع إلى الغد..
وعاد طارق بالفعل، لكنه كان جسدا متعافيا بلا روح. لم يغفر لها هذا الأمر، كما أنه لم يغفر لها أي شيء آخر قد سبق.

***

لم يفلح طارق في إخفاء تلك المشاعر المضطربة التي أصابته منذ ظهور دُرَّة، فتاة جريئة -إلا إذا اصطلحنا على تسمية الأشياء بمسمياتها الحقيقية، حينها سيصبح أرق وألطف وصف لها هو فتاة وقحة. أتت كي تبيع نفسها، هكذا بتلك اللفظة دون لف أو دوران وبلا أي مقدمات. والعجب أنها في الوقت نفسه تدعي الصلاح، تسوق الحيل، تتذرع بالبحث عن المعنى والغاية؟!!
أي هراء هذا الذي جاءت تبيعه لنا!!..
بل، أي غباء قد أصابنا كي نصدقها ونمتثل إلى تلك التمثيلية السخيفة!!.
نفتح لها باب قصرنا.. ادخلي، عندنا شاب وسيم يخطف الألباب، فاحش الثراء.. لكنه-و أسفاه- مريض معتل بعقله، أمضى عقدا كاملا من عمره غائبا عن الوعي، يسكر ليل نهار.. يحرق الحشيش في تبغه طوال الليل.

تلك هي الحقيقة عارية، لن يكذب طارق على نفسه في هذا الأمر. وهذا هو السبب وراء قبول أمه لهذا الهراء الفارغ. وربما يتفهم ذلك منها إلى حد ما. لكن ما دعاه للدهشة والاستغراب هو أن يجد دكتور أحمد يؤيده هو الآخر بل ويقنعه به.

اتسعت عينا طارق في دهشة في لقائه مع د. أحمد- قبل أن يسافر في أجازته- الذي حاول أن يقنعه فيه بالأمر، وقال معترضا على رأيه:

-هذا آخر شيء كنت أتوقعه، أنت أيضا تعرف بالموضوع؟!!.. كيف؟!! لم يخطر ببالي أنك ممكن تعرف بهذا الجنون، ولا تحذرني منه؟!!

-مم أحذرك ؟!! من أنك ستصبح هارون الرشيد، ليتني يا أخي مكانك..

قالها بضحك. لكن طارق لم يضحك، سأله في جدية تامة:

-متى عرفت بهذا الأمر؟

-وهل سيفرق هذا معك في شيء؟

-بالطبع، لن تقدم الهانم على تلك الفعلة دون مشورتك.

-لا أنكر أن الموضوع غريب فعلا. تصورت في البداية وجود عملية نصب وراء الأمر، وربما فتاة عادية تشق لنفسها طريقا في الدنيا بطريقة غير معتادة. لكن حينما قرأت سيرتها الذاتية وأكد لنا المحامي صحتها. أدركت أن وراءها سرًّا كبيرا وقصة. وربما تكون صادقة أيضا. لن تخسر شيئا على الإطلاق، علاوة على أنها غاية في الجمال.. بل فاتنة.

قالها في خبث. وهو يغمز بعينه في إشارة ذات دلالة. لم يستجب طارق لدعابته، وأكمل د. أحمد حديثه بنبرة أكثر جدية:

-و الأجمل من ذلك، أن عيونها تلمع بالأمل وعشق الحياة. وهذا أمر مُغْرٍ.

فعقب طارق ساخرا:

-بل عيناها تلمعان من الجنون.

-وبماذا أفادنا العقل يا فيلسوف؟!!..

-حاسس كأنى في فيلم عربى قديم والمخرج سينطق في الحال ويقول Cut، رائع يا أستاذ. نجهز بالمشهد التالي.

-أنت مغفل كبير.. لم تفهم شيئا. هي لا تبيع.. بل تشتري، وتشتري ما هو أغلى.

-وهل هناك أغلى من الإنسان نفسه؟

-وما قيمة الإنسان دون فهم واقعي للدنيا.. دون هدف، دون مغزى وغاية لوجوده. ما قيمته حين يصبح يتنفس أياما بلا معنى؟!!.. والأهم، ما قيمته دون حرية.. !!.. اقترب منها كي تعرف السر، وستفهم حينها كل شيء.
صمت طارق حائرا يفكر في كلام أحمد الذي هوى على رأس طارق بسؤالٍ أخير:
-هل تخشاها..؟!!
فغر فاه من الدهشة، وهو يرد:
-أكيد بتهزر.
لكن ملامح وجه الدكتور الجادة أوحت بالعكس، وأضاف :
- أنت تخشاها بالفعل..
-لماذا؟
-امرأة مثلها تتحلى بهذا القدر من الجمال الطاغي، وعقلها شديد التوقد، مقبلة على الدنيا بشجاعة مفرطة والأحلى من ذلك كله أن سمات وجهها تشي بصفاء قلبها وبراءتها في الوقت نفسه. هذه الصفات كافية بأن تزلزل أعتى الرجال، وتدير رءوسهم. صفات يضمها جسد واحد، وروح واحدة!!..
ثم توقف عن الحديث كي يلتقط أنفاسه ثم استطرد حديثه قائلا:
-الحقيقة لا تُرى بالعقل وحده أبدا. ولا تدرك بالتفكير. حرر نفسك من أوهامك، جرب، ففي النهاية أنت لن تخسر أي شيء على الإطلاق. وحدها التي ستخسر.

*****

الفصل "١٦"
عد الآن أو لا تعُدْ مطلقا..

جلس هاشم في صالون شقة ريهام الفاخرة بأحد أحياء مصر الراقية، لم يملك أن يمنع نفسه من أن يراها.. من أن يستجيب لدعوتها، حين اتصلت به ترجوه أن يأتي إلى منزلها. كانت تلك هي المرة الأولى التي يسمع فيها صوتها منذ اليوم العاصف إياه بالسنة الجامعية الثانية، يوم أن قرر الانفصال عنها، تاركا إياها لمصيرها.. رغم أنه يعلم مقدار هشاشة روحها وجموح عقلها الذي لن يتوانى عن فعل أي شيء. قاوم كثيرا الاشتياق إليها والتفكير فيها. لم يعرف مصيرها منذ انقطعت أخبارها عن الجميع عندما تركت بيتها في الأسبوع المشئوم نفسه.

كثيرا ما كان يلوم نفسه على ضياعها،عندما قابل دُرَّة وهي ثائرة مجنونة ترطن بالألغاز، ولم تكن تشبه دُرَّة الفتاة الهادئة العاقلة التي عرفها طوال سنين الجامعة. وطلبت منه أن يساعدها في تحقيق رغبتها العجيبة. أخبرته في سياق حديثها عن المصادفة العجيبة التي ساقتها الأقدار لتجمع بينها وبين ريهام، كأنها رسالة غريبة. صدمت دُرَّة بشدة، وأعيت تفكيرها في محاولة لفك شفرتها.

حزن بشدة حين علم بالحال الذي وصلت إليه ريهام، شهرة ومجد في عالم الليل. حتى إنها صارت شريكة في أحد الكازينوهات الليلية المعروفة. فجعه الخبر، وفتح جرحه القديم الذي لم يكن يعرف سبيلا للالتئام بعد.

هاهو الآن يجلس في صالون بيتها ينتظرها بفارغ الصبر. حقا لا يدري لِمَ لبَّى النداء؟ وما سر اتصالها؟ هل هو الشوق؟ أم الندم؟ أم يكون الغل القديم، فأرادت أن تتشفى فيه، تتباهى بحالها وأملاكها أمامه؟ إحساس ما أخبره أنه ليس الخاطر الأخير. نبرات صوتها لم تشي بذلك.. لم تحمل طابع أنوثتها الشقية الخلابة للعقل، ولم تحمل كذلك طابع الانكسار. فقط أمارات الاشتياق والسكون..

***

دخلت ريهام عليه مرتدية ثياباً محتشمة كثيرا بالنسبة لها، ووجهها خالٍ من مساحيق التجميل، مما أكد له صدق إحساسه، وأن نبرات السكون التي حملها صوتها هي بالفعل حالتها الراهنة.

استقبلته بحفاوة شديدة. تبادلا السلام والتحيات، دون أن يزيح نظراته بعيدا عنها. ثم جلست أمامه مباشرة ووضعت ساقا على ساق، لم ير حركتها استعراضا للأنوثة بل رآها محاولة اختباء، كأن كلها يريد أن يلتف على بعضه، يتوارى قدر المستطاع. تناولت سيجارا رفيعا يبدو أنه من النوع الفاخر من علبة مخصوصة غاية في الأناقة. قدمت له واحدة لكنه امتنع وأشعل سيجارته الرديئة، وأشعل لها سيجارها الفاخر، شكرته بشدة ثم ساد الصمت بينهما..

لم تنظر له مطلقا.. لم يرفع عينيه عنها قطُّ.. كأنه جاء ليتأملها فقط.

قلَّبَتْ سيجارها بنعومة شديدة من بين طرفي شفتيها ثم أطلقت سحابات من الدخان، وظلت تراقب خيوطها في شرود.

-تغيرتِ كثيرا..

قالها دون سابق إنذار ليقطع حبل الصمت بينهما.. أجابته في استغراب:

-كيف؟

-بالطبع زاد جمالك، صار من العسير مقاومتك. لكن عيونك ازدادت مكرا.

-أما أنت فلم يتغير فيك شيء.. مازلت كما أنت.

-وهل هذا جيد؟

-بالطبع لا.. إن لم تتغير.. فهذا معناه أنك واقف محلك سر تاركا العالم يمضي مسرعا من حولك، لتصبح النتيجة سيئة.. أنت تتراجع، تتقهقر إلى الوراء.

قالتها بعصبية شديدة غير مبررة. لكن هاشم ضحك وهو يعقب:

-كأنه بالأمس.. لسانك لم يفقد شيئا من حلاوته اللاذعة.

لم ترد. في حقيقة الأمر، لم تُبْدِ أي انفعال، كأنها لوح زجاجي. وانقطع حبل الكلام بينهما ليعود الصمت يغزل خيوطه من جديد. تناولت سيجارا آخر من العلبة، فاقترب منها ليشعله..

ولم يعرف هل لامس كف يدها متعمدا أم لا؟!، فأزاح خصلات الشعر المنسدلة على خدها، والتي كانت تخفي جانبا كبيرا من وجهها.

لم تمنع حركته، فضمها إلى صدره بقوة وفجأة. فتخلت هي عن سيجارها، وتركته يسقط كي تضمه بشدة هي الأخرى، عساها تدفن نفسها فيه.

-ليلتنا الأولى معًا، أتذكرينها؟

همس بسؤاله في أذنها بينما يضم أشلاءها بين ضلوعه، فأجابته:

-وكيف تُنسى؟!

-غريبة إني أشعر الآن كأنها هي، تعاد من جديد!!..

وشعر بدموعها الحارة تسقط على يديها، وصوت نحيبها يتردد بين جنبات صدره. سألها:

-لم تبكين؟!

أجابته بيسر:

-أنا لا أبكي، بل أغتسل

ثم أطلقت العنان لبكائها، فاستحال إلى صرخات ألم تشق صدره هو. وما كان منه إلا أن اعتصرها أكثر بين ضلوعه، وتركها تبكي كيفما شاءت..

كم تمنى لحظتها لو ينقل آلامها كلها إلى أحشائه لعله يغتسل هو الآخر.

***

بينما دموعها الغزيرة تنهمر على وجنتيها، سرحت في ذكرى ليلتهما الأولى والأخيرة كذلك...

" شعرت بأنفاسه تغمرني، يحتويني بين ذراعيه.. فسار دفئه مكتسحا خلايا جسدي، أينما حل رفعت راية السلم..

تلذذت بهذا الاسترخاء الغريب الذي غمر أعاصيري، فروّضها"..

استسلمت لذراعيه، ولذت بصدره أستنشق منه الأمان.. حسبته حينها موطني ومأواي. كم نكون وقتها جهلاء أغبياء!.

اعتصرني أكثر، وراحت يده تعبث بي أينما ذهبت.. تبعثر أجزائي، وأنا لازلت مغمورة بين ذراعيه.

وإذا بأنفاسه تعلو شيئا فشيئا ودقات قلبه تستعر. ولم أدر كيف ولا متى صرت عارية تماما مجردة من ملابسي في ساحته؟..

شعرت به يطفو حول خاصرتي سبعا حتى غزاها.. فتأوهت بعمق، وإذا به يبتسم.

ضمني ثانية بين ذراعيه حتى سكنت.

لم أكن أفهم تحديدا ما نحن نفعله؟ أو لم نفعله؟ لكني كنت واثقة حينها من أمرين اثنين، الأول: أنه حصني وملجئي. والثاني والأهم: أن ما حدث الآن سيدمي أبي بشدة، لو عرف.. ويا ليته يعرف، فأفوز بانتقامي منه.
لكني للأسف، أيقنت بعد ذلك كم كنت مخطئة في كلا الأمرين.. لكن بعد فوات الأوان، ووحدي كنت الخاسرة".

***

كنت طفلة في الخامسة حين بدأت أسمع هذا الصوت.. صوتا بشريا يعوي في غسق الليل. حين سمعته ارتعدت جميع فرائصي، وانتكست.. وعدت أبلل فراشى كطفلة لم تتعد العامين.
ينهي عواءَه بصرخة ألم ثم يشرع في النداء على أناس لا أعرفهم..
خفت منه بشدة، كنت أخفي رأسي تحت الوسادة والغطاء. أحاول أن أغلق عينيَّ بقوة كي أغفل وأنام.. لكني لا أنام.
ألف رأسي بذراعيَّ كي أصمَّ آذانى.. بلا جدوى..
نباحه، عواؤه.. صرخات الأنين كانت تقض مضجعي.. تؤرق ليلي..
فكرهته بشدة؛ لأنه أقلق النوم.. وأقلق طفولتي..
و تمر السنوات، وأكبر ويكبر خوفي معي.. لم أجرؤ قط على الخروج من غرفتي كي أستطلع صاحب الصوت. لكن في تلك الليلة العسيرة، اشتد ظمئي ونسيت خوفي لوهلة. فغادرت الفراش مسرعة، أشق طريقا رهوا تجاه المطبخ حينها رأيته، عرفته. يستعد لطقوس كل ليلة، يركع كالذئب مشرئب الرأس يطلق عواءه في منتصف باحة بيتنا.. تماما كما رُسِمَ في قصة الطفولة "الذئب والنعجات"..
و نعم، كان هو..
أبي.. الكلب الذي يعوي..
خفت منه بشدة.. انكمشت على نفسي وسقط كوب الماء من يدي، وأطلقت ساقيَّ كي أهرب، لكني اصطدمت بها.. بأمى. جذبتني بعيدا عنه. ورمقتني بنظرة نارية- لن أنساها مطلقا- قائلةً بحزم:
-أنت نائمة الآن، وتحلمين بكابوس، وفي الصباح لن تتذكري أي شيء.
و كبرت أكثر لأعرف أنه لا يعود إلا قبيل الفجر كل ليلة، مغيبا عن الدنيا.. منتشيا بالمخدرات..

و حينما ظهرت نتيجة الثانوية العامة. وحصلت على مجموع كبير ٩٦%، لم أخبره كي لا أدخل الفرح إلى قلبه. كي لا يصيبه شعور الزهو والفخر بي، فهو شعور لا يستحقه. تشفيت فيه أكثر، والنتيجة في يدي، تغمرني السعادة بها، وهو جالس أمامي متربع على الأريكة يحصي خيابات أمله في الحياة، يذكر في سياق حسراته أن ابنة اللواء التي قد حصلت على ٩٠%، وسوف تدخل كلية اقتصاد وعلوم سياسية، واسترسل يشرح لأمي مدى سعادة الباشا اللواء وفخره الشديد بابنته الوحيدة. أما هو فكله حسرة على أبنائه الذين قد خيبوا ظنونه وأتلفوا آماله. خرجوا جميعا من مراحل التعليم في وقت مبكر، وصغيرته الوحيدة - التي هى أنا- تتعثر دائما وترسب كل عام.

نعم، هذا ما يعرفه عني؛ لأني أخفي عنه درجاتي، أخفيها حتى عن أمي التي لا تجيد القراءة ولا الكتابة.. ولا تدري عني شيئا.

جلست على الطاولة واستمارة الرغبات موضوعة أمامي. وكتبت الرغبة الأولى " كلية اقتصاد وعلوم سياسية" وأنا أنظر له بتشفٍ وكلمته المتحسرة تصل إليَّ:

سعادة اللواء يقول إنها كلية من أرفع الكليات شأنا.. ويسميها "معمل الحياة".

حتى ليلتنا الأولى معا.. كم غيرتني تلك الليلة، شعرت بأن هناك شيئا يسمى الحب، وهناك أيضا ما يسمى بالأمان.

أحببتك حتى النخاع.. حتى غدرت بي ولفظتني بعد أن علمت بأن أبي يعمل مخبرا.. حينها كرهتك.. كرهتك بشدة مثلما كرهت..

كرهتك مثلما أحببتك حتى النخاع..

قررت أن أرحل عن الجميع.. وأن أكف عن التفكير به.. وبك أيضا.

أفكر في نفسي فقط.. أكن لنفسي فقط..

وفعلت.

و هأنا الآن أعود إلى ذراعيك باكيةً، لأغتسل من دنياي. نتوحد معا معا مرة أخرى..

لكن أرجوك لا تفلتني الليلة.. لا تفلتني لباقي العمر.. سأضيع..

-ماذا تتوقعين مني؟

سألني هاشم بينما نحن مازلنا عرايا. فأجبته:

-فقط أنت.

صمت كثيرا قبل أن يرتدي ملابسه، ويطبع قبلة باهتة عاجلة على جبيني، وهو يقول:

-دعيني أفكر، سأعود لاحقا.

ثم تركني ثانية وانصرف.

*****

الفصل"١٧"
" ليتني هي.."

حين أيقظتني أنيته كانت الساعة قد تجاوزت السابعة مساء بالفعل، عاتبتها كثيرا، كيف تتركني كل هذا الوقت، لم اعتد على هذا. فتعللت بأنها لم تشأ أن تزعجني، خاصة أن الإرهاق قد رسم خطوطه وهالاته بالفعل حول عينيّ من أثر الأرق والتفكير الكثير.

اعتدلت في الفراش، ابتسمت شفتاي في تلقائية حينما صعدت إلى أنفي رائحة القهوة بالحبهان القوية، وحين قدمت لي أنيته الفنجان، تناولته والابتسامة والامتنان يغلفان كل ذرات وجهي، وقلت:

تفهمني أكثر من نفسي، بالفعل هذا ما أحتاج إليه الآن.

أخذت منه رشفة طويلة في تلذذ حقيقي، وضممت إصبع الإبهام والسبابة ليدي اليمنى وطبعت قبلة طفولية ذات صوت عالٍ عليهما ثم رفعت لها يدا في استحسان شديد، كانت تلك هي إشارتي الدائمة حينما يطيب لي طعام او شراب.

بادلتني الابتسام. ثم قدمت لي صينية عليها مغلف صغير، ولم تقل شيئا.

رمقت المغلف في استغراب ثم نظرت لها، لم تجبني بشيء.. لكنها غمزت لي أن أفتحه، نهضت في تلقائية من الفراش كأني أستعد لمعركة ما وأنا أفتحه، لم يدر في خَلَدِي سوى أنه من سيدة القصر، وحدها من شيمتها تلك الأفعال التي قد مضى عليها قرون بالفعل. التقطت نفسا عميقا، ثم سحبته سريعا وفتحته..

ذهلت بشدة.. وأنا أرمق كلمته الوحيدة التي خطت بحروف كبيرة مزخرفة في منتصف الورقة.. حملقت، وقد اتسعت عيناي من فرط الدهشة.

"هدنة".

ثم انتبهت لذيل الورقة المنثني، فعدلته ليطالعني الإمضاء..

إمضاء..

سيدك الحبيب

اغتظت بشدة من كلمته، من أفعاله، كيف يجعلني أثور وأفور.. ثم بكلمة واحدة يطلب مني السلام، ويتوقع مني التسليم ثم يزيل الورقة بإمضائه المتناقض الذي يشبهه حقا.. جززت على أسناني لأكتم غيظي، ولم أشعر إلا وسيل من الشتائم قد انسال على لساني :

-يالك من مغرور، أحمق، سخيف.. مغرور.

-قلتِ "مغرور" مرتين.

قاطعتني أنيته معقبة، فحملقت فيها في غيظ شديد ثم رفعت الورقة أمام وجهها ومزقتها فسألتني في تحفظ:

-إذن الجواب لا.

انهرت جالسة على طرف الفراش، وأنا أكمل سيل الشتائم بعدما رق صوتي وخفضت نبراته العالية:

-مغرور.. لكنه.. لا يقاوم

ابتهجت أسارير أنيته وقفزت في الهواء من الفرح وهي تصفق بيدها كطفلة، اندهشت من تصرفها كثيرا، وحملقت فيها مستغربة، فتنبهت، ونحنحت عدة مرات وهي تقول في خجل:

-معذرة.. معذرة سيدتي.

-إجلبي لي ورقة وقلما.

أخرجت لي من جيب مريلتها الزرقاء المربوطة على وسطها، كارتا وردي اللون وقلما حبرا، رفعته إلى أنفي، وكان كما توقعت، معبقا بعطر الورد الشذى.. ترددت كثيرا، ثم سألتها:

-هل لديك أي ورقة أخرى عادية؟

-لا.

أجابتني وهي تنظر في براءة إلى الأرض..

أطلقت زفرة حارة وأنا أرمق الكارت شذرا ونفاد صبر. وحسمت أمري، وكتبت عليه كلمة واحدة في منتصفه:

-لا

جاريتك العنيدة.

لمحت أنيته وهي تزوم بشفتيها، وقد امتعضت عضلات وجهها، بالطبع اختلست النظر إلى الكارت، فسألتها في حيرة:

-غلط؟!!
لم تجبني، لكن ملامح وجهها تكفي بإيضاح ما تود قوله.. شردت لثوانٍ، ثم تناولت القلم وأضفت سريعا قبل أن أندم وأغير رأيي..
ولم لا؟
جاريتك ~~العنيدة~~ الوديعة
وضعته في الظرف، وأعطيته إلى أنيته بسرعة. شرعت أنه لو ظل لحظة أخرى بين يدي لمزقته في الحال. أخذته مني وهي تبتسم في خبث قائلة:
-سأذهب سريعا كي أسلمه، سيدتي، ثم أعود لك.
انصرفت. وأنا أحاول أن أتجنب التفكير في هذا المغلف الوردي الذي قد استقر على الصينية في طريقه الآن إليه.. وإذا بخيالي يسرح في وجهه الذي مؤكدا سيقرأ الكارت وعلامات الغبطة تعتلي أساريره ونشوة النصر.. أغمض عيني بقوة أحاول أن أصرف تلك الصورة عن خيالي. وتناولت فنجان القهوة من على "الكومودينو"، حاولت أن أتلهى فيه.
ذهبت أنيته، ولم تلبث أن عادت سريعا بالصينية وهى ترمق المغلف بكل سعادة وتقدمه لي..
نظرت لها متشككة ثم سألت وأنا أومئ إلى الظرف برأسي:
-آخر؟
هزت لي رأسها بإيجاب:
خطفته سريعا، وفضضت المغلف، لأجد رسالته الثانية..
دعوة عشاء
الليلة -العاشرة مساء
في الحديقة عند الأرجوحة الكبيرة
إمضاء
الحبيب
اتسعت ابتسامتي لتسع وجهي بأسره..
ثم لمحت ذيل الورقة منثنيا مرة ثانية، فأسرعت أفتحه لأجد باقي الإمضاء
سيدك " بجواره وجه مبتسم"

***

لم يستهوني أن أرتدي ثيابي الكاجوال.. لا أريد ان أكون في تلك اللحظة فتاة عادية..
فتحت لي أنيته دولاب الملابس على مصراعيه وقفت أحملق في الدولاب، بينما أمرر يدي على الفساتين المتراصة بعناية فائقة طبقا لألوانها، استوقفني اللون الأحمر. خطف عقلي وعيناي من النظرة الأولى، أظن أن أنيته رأت نظرة الاستحسان تلك في عينيَّ، وأيدتني، فأسرعت تخرجه من الدولاب كي تستعرضه أمامي، وهي تشيد به وباللون الأحمر الناري بتطريزه المذهب الذي يمتد على أساوره وعلى طول فتحة الصدر، وكيف سأكون فيه أميرة متألقة. تأملته مأخوذة حقا بجماله، لاحظت أن تصميمه مستوحى بالفعل من عصور الماضي.. يشبه إلى حد ما العباءات المغربية حديثة الطراز.. أكمامه مفتوحة على طول الذراعين والتي تنتهي بأسورة مذهبه مطرزة تطريزا يدويا، رغم أن شكله بالفعل يوحي لي بالفعل أني جاريته، لكن الأنثى التي بداخلي لم تستطع أن تقاوم جماله اللافت. وأردت بشدة أن أراني حين تلفني خيوطه.
ساعدتني أنيته في ارتدائه.. شهقت وهي تتأملني بعدما استقر عليَّ، قائلة:
-جمالك خاطف، سيدتي. لم تخلقي إلا لتكوني أميرة، أرجوك لا ترضيْ بأقل من مصيرك في الحياة.
وقفت أمام المرآة أتأمل شكلي، ورفعت أنيته شعري عاليا لتظهر رقبتي، استحسنت مظهري. ويجوز تلك كانت أول مرة أشعر فيها أنني جميلة.. لست جميلة فحسب، بل جميلة جدا وعلى نحو مميز كذلك، كيف لم يساورني هذا الشعور من قبل؟! لم أشعر قطُّ أني أملك هذا الجمال، ظننتني عادية، لكن الآن وأنا أرى رقبتي الطويلة البيضاء تتحلى بتلك الياقة المذهبة، والتي تنسدل تاركة أكثر من نصف الكتف عاريا، ثم يلتقي النصفان بعد ملتقى النهدين بقليل، ليكمل إطارها المذهب انسداله وهو مضموم بضفيرة ذهبية حتى قبل الركبة بشبرين، فتنحل ضفيرته وتكشف عن فتحة طويلة كاشفة للساقين.
" أظن أن هذا الفستان سافِر.. بل فاضح على نحو ملحوظ، يكشف أكثر ما يستر، لايصح أن أرتديه. خاصة أنى لا أرغب في نيل إعجاب هذا السيد المزعوم".

حدثت نفسي بذلك، ورغم أني قد قررت خلعه، فإنني لم أمنع أنيته من أن تكمل زينتي. أحضرت مكواة الشعر، وأخذت تموج خصلات شعري قبل أن تلمه وترفعه أعلى رأسي بينما تنساب تلك الخصلات في أمواج متهدلة فوق رقبتي. وتركت بعض الخصلات تنحدر في نعومة على وجنتي. استسلمت لها وهي تضع رتوشا من بودرة الوجه على وجنتي لتزيدهما حمرة وبهاء ولمسات من الكحل فاحم السواد، وأنهت تجميلي بإضافة "الروج" الأحمر فوق شفتيَّ. ولم أدر بنفسي إلا وهي تلبسني صندلا ذهبي اللون، كانت قد أخرجته سابقا من درج موجود أسفل الدولاب.

وبعدما انتهت وقفت وهي مسرورة، تقول:

-من يراك الآن، سيقسم أنك أميرة حقيقية.

خجلت من إطرائها، لكني صدقته. شعرت بحق أنني أميرة. كم تلذذت بشعوري هذا، تلك هي المرة الأولى التي أشعر فيها بأنوثتي الطاغية، وما أحلاه من شعور!.. لا أظن أن المرأة مهما علا شأنها، يكتمل وجودها دون هذا الشعور.

ولأني لم أرغب في أن أفسد زينتي، وأردت أن أحتفظ بتلك الأحاسيس التي تغمرني لأطول فترة ممكنة، أقنعت نفسي بأن أظل فيه. رغم أن موعدي معه قد اقترب، حدثت نفسي وأقنعتها أنني أتنعم بتلك اللحظة لنفسي فقط، ولا رغبة عندي بنيل إعجابه. ومادام الأمر كذلك فلا بأس على الإطلاق في مقابلته هكذا.

***

لمعت عيناه حين لمحني، لم يرفع نظره من عليَّ، لم تطرف عيناه. راقتني نظراته كثيرا. فألقيت له بسمة ضاحكة، استقبلها هو بسعادة غامرة، ثم قال وهو يرفع معصمه إلى مستوى نظره ويلقي نظرة تمثيلية على ساعة يده مبتسما في خبث:

-متأخرة عشر دقائق كاملة.

قالها ثم صمت برهة يترقب خلجاتي، ينتظر رد فعلي، وحينما لم يجد مني تعقيبا، أكمل، قائلا:

-عادة الجارية تسبق سيدها في المجيء.

-والأميرة عادة تأتي متأخرة.

وجدت الجملة السابقة تخرج مني في تلقائية وأنا أضغط على كل حرف في كلمتها.
-ومن قال إنك أميرة؟
-ومن قال إني جاريتك؟
-ورقة بيني وبينك.
-يجوز، ولكن هل أبدو لك الليلة جارية؟
-بل سلطانة لمملكة هاوية.
استغربت عبارته المجاملة. ووجدتني أجاريه سائلة:
-ولماذا هاوية؟
-لأنه من المؤكد أن سلطانها سيجن بعدما فارقته لتأت إليَّ.
لم أستطع تمالك نفسي من الضحك من شدة استحساني لمجاملته السابقة، وانطلقت أقهقه بصوت عالٍ ودون تحفظ. ومع ضحكي ذهبت عني تلك التكشيرة الجادة التي كنت أتعمد أن تكسو ملامحي حين ألمحه يقترب. لكن أمام إطراء الليلة لم يدع لي بُدًّا من أن أقبل الصلح بنية صافية، وأرفع راية الهدنة بيننا، الآن على الأقل.
وانضم هو الآخر إليَّ، يشاركني هيستريا الضحك، ضحك حتى دمعت عيناه، أطرق برأسه إلى الأرض يحاول أن يسيطر عليَّ ضحكه وقد احمر وجهه من الخجل.
كم كانت لحظتنا تلك حقيقية، صادقة.. وفريدة..
لم تكن في انتظاري مأدُبة طويلة مفروشة بكل أشكال الطعام وألوانه كما تخيلت لوهلة. بل بساط عادي بسيط مفروش على الأرض، وعليه بعض أطباق الطعام الخفيف الذي يتناسب مع وجبة عشاء دون إفراط أو مبالغة، تتوسطه شموع عطرية فواحة، تتراقص شعلتها مع هبات نسمات الليل الباردة حين تلسعها في نعومة ودلال. امتد فرع الشجرة الضخمة ليظلل البساط، وقد تدلت منه خيوط النور التي تضيء بألوان عديدة تزهو في بهاء لتكمل بهجة المكان وتضيف إليه رقيا رومانسيا حالما.
اقترب مني في هدوء، لم أجزع تلك المرة ولم أهرب كعادتي، استجبت له. قررت أن أستسلم لأنوثتي، أن أعيش الحالة دون تفكير مسبق.
أستجيب لما يمليه عليَّ قلبى، هكذا إذن.

وضع بعض لقيمات الطعام في فمي، فاستغربت طعمه كثيرا، روايات الغرام لم تكن تكذب!! حقا يتغير طعم الطعام ولذته حين يضعه المحب في فم حبيبته!!! يصبح المر شهدا مسكرا، شعرت بأني طفلته أتذوق أصناف الطعام لأول مرة في حياتي.. كل شيء كان أشهى.... لم أفهم ما السر؟ ولم أحاول أن أتعب تفكيرى في تلك اللحظة بالذات..

تركت نفسي.. تستجيب، بما يمليه عليها القلب..

-هل شبعتِ؟

سألني، لم أدرِ ما الجواب؟ كأن جميع وصلاتي العصبية قد كفت عن العمل، عن نقل الأحاسيس والشعور، وصارت جميعها مشغولة به، مشرئبة، تقف على أطرافها تنتظر، حركته القادمة أو كلمته التالية، لا تبغى أن يعطلها شيء من أن تكون جاهزة تستقبل منه هو، هو وفقط.

أجبت في بساطة:

-كما ترى.

ضحك في استغراب، ثم قال وهو ينظر لي في خبث:-

-هذا جواب جارية؟

-بل سلطانة هاوية.

أفقت على ردى، مستغربة حالي، وتملكني شعور شديد بالخجل من نفسي، خاصة وأنه لم يضحك من جوابي تلك المرة، بل تأملني بنظرة لامعة مختلفة، لم أفهم معناها. أشحت بنظراتي بعيدا عنه ولففت ذراعيَّ حولي أتظاهر بالشعور بالبرد..

سألني بنبرة حانية:

-هل تشعرين بالبرد؟!

-لسعات منعشة فقط.

-أترغبي في أن ندخل؟!

-لا..

-ما رأيك في بعض الشاي؟ -سأعده بنفسي.

-أكيد.

قلتها وأنا أبتسم. ثم غاب قليلا وعاد معه عدة الشاي أو نصبة الشاي "كما أخبرني في وقت لاحق" وهي عبارة عن قصعة يشعل فيها ألواح الخشب، ويوضع فوقها إبريق الشاي كي يغلي على مهل وتستخلص عصارة الشاى في تؤدة.

وفجأة شعرت بأن الكون من حولنا قد خلا من كل صوت عدا صوت لسعات النار تستعر، لتصنع لنا شايا فريد المذاق.. وسكت كل شيء بداخلي أيضا، فضبطت نفسي أتأمله، أتأمل ملامحه الهادئة الساكنة، كان يستمتع كثيرا بصنع الشاي، لم أر في حياتي قطٌّ رجلا يصنع الشاي هكذا وهو مستمتع نشوان عدا واحدا فقط.. حبي الأول في الحياة "عزيز"..

نعم هو يُذَكِّرُنِي بعزيز. منذ أن التقينا وأنا أتساءل عن سر نظراته، والألفة الغريبة التي كنت أشعر بها حين أراه. أكاد أجزم لنفسي وأقسم أنني قد عرفته من قبل، بل وعاشرته أيضا. لم أشك لحظة في أنني أعرف تلك العينين، وأحفظ تلك النظرات. حتى نبرة الصوت لم تختلف عن نبرة صوت عزيز، خاصة حينما يتحدث بهدوء ويسرح بين كلمته. نعم، إنه صوت عزيز بالضبط عدا تلك النبرات الساخرة. فعزيز كان حالما طوال الوقت، لم يسخر قط في حياته.

-إنك تذكرني كثيرا بعزيز.. أشعر الآن كأنه بعث أمامي من جديد.

-من عزيز؟

اندهشت كثيرا، قد كنت أحسب أنني أوشوش نفسي، لم أنتبه لارتفاع صوتي، ووجدتني أجيبه في سلاسة طائعة:

-حبي الأول.

-لا يبدو عليك أنه كان لك حبيب.

-عزيز.. هو ليس مجرد حبيب، إنه النفس التي خلقت منها.

-ألهذه الدرجة أحببتِهِ؟!

قالها بامتعاض وخيبة أمل.. -هل كان يفضل أن يظن أنه الحبيب الأول؟. فأجبته:

-هذا ليس وصفا مجازيا، بل عين الحقيقة. عزيز هو أبي رحمة الله عليه.

-الله يرحمه، هل تُوُفِّيَ مؤخرا؟

-عزيز لن يموت مادامت ذكراه بداخلى متأججة.

-معك حق.
قالها وصمت قليلا قبل أن يتنحنح، وهو يقول في حرج:
-طريقتك في الكلام عنه غريبة بعض الشيء. -بالطبع، أتفهم مدى حب البنت لأبيها وتعلقها الشديد به لكن......
قاطعته قبل أن يكمل:
-عزيز لم يكن مجرد أب. بل إنه يصعب اختزاله في هذا الوصف أو اللقب، رغم عظم شأن الوصف وجلاله لكنه ببساطة لا يكفيه.
لا يكفي عزيز. عزيز كان لي العالم بأسره. كل مساء، كان يأتيني بصفحة من العالم ويرويها لي.. يقص عليَّ من حكاياته، حتى أغفو.
ابتسم ابتسامة باهتة، وكأن غصة باتت تتحرك بداخله. وقال محاولا أن يغير مجرى الحديث:
-وأنا أذكرك به، هذا جميل يبشر بالخير.
-ربما.
قلتها، وأنا أبتسم له..
-ترجح أنيته هذا الاحتمال.
أجاب، وهو يرفع إبريق الشاي من على النار، ويصب لنا في أقداح صغيرة بلا يد، ثم قدم لي فنجان، قائلا:
-تذوقيه، وقولي لي ما رأيك دون مجاملة؟
رشفت رشفة بتمهل وصحت:
-حلو المذاق بالفعل.
-إنه أكثر من مجرد مشروب دافئ لذيذ ومنعش، نشربه في ليلة شتوية قارسة البرودة كي نلتمس الدفء. إنه مشروب " البوح".. يغرى بالبوح والحكي الجميل الذي يخرج من القلب ليقع في القلب مباشرة.
-يا سلام، كل هذا في هذا الفنجان الصغير.
رحت أرمق الفنجان في حذر.. بل من جدية صوت طارق وهو يتحدث جعلتني أخشى من هذا الفنجان. خشيت أن يصيبني بعدوى البوح، ورغم أني لا أجد عندي ما أخشاه، فإنني لم أشأ أن أتعرى أكثر أمامه. فمع العري نصبح أضعف. ومع الضعف يسهل التصاقنا بالآخر كي نتقوى به.

***

طال تسامرنا، وتجاوزنا منتصف الليل بكثير..
شربنا من شايه فريد المذاق ثلاثة أقداح حتى الآن.. ومازال يصب لنا، لوهلة، حسبته خمرته الخاصة، صارت كلمته أبطأ.. ولسانه أثقل بالفعل..
اقترب مني أكثر، فلم أمانع.. تركته يلتصق بي كيفما يشاء.. يلمس أطرافي ويثير بي رجفة خفيفة من حين لآخر.
وفي لحظة وجدت رأسه تغفو في حجرى، فأسندت ظهري إلى جذع الشجرة كي يستريح أكثر. ووجدت يدي تداعبان خصلات شعره الناعم..
وطالت حبال الصمت بيننا، وظننت أنه قد غفا بالفعل. حتى سمعت صوته المتعب يتحدث لي، ويحكي. انسابت منه حكايا طفولته.. أخبرني عن والدته الأسطورة، أصابتني الدهشة الشديدة حين علمت بأن شكرية هانم من أصل متواضع جدا وأسرة شديدة الفقر، كان أبوها يعمل رئيسا للعمال في مصنع الباشا والده، والده الذي لم يعرفه قطُّ. وتمزق قلبي كثيرا حينما وصف نفسه "بأنه الطفل البائس الذي لم يرغب فيه أحد طوال حياته"، وكيف أن هذه "الفيلا" في الأصل قد بنيت كملحق للقصر ليُنْفَى فيها هو وبكاؤه الطفولي. وكيف أنه بعد أن أتم عشرة أعوام نُفِيَ رسميا إلى أقاصى الأرض بدعوى أن يتلقى أحسن فرص في علوم الإدارة وفنون القيادة، راح يسرد :
- لم أقتنع قطُّ بهذا الهراء، الذي كانت تخبرني به سيدة هذا القصر في كل زيارة، كانت تزورني فيها. لم أكن أريد حينها شيئا سوى العودة إلى مصر والعيش في حِضنها. هذا كل ما أردته. لكنها منحتني كل شيء عدا رغبتي الوحيدة.. وحين عدت إليها رجلا، كي أتولى شئون الشركات والمصانع وأدير تلك الإمبراطورية العريقة، والتي ورثتها عن أبي وأجدادي. لم أستطع أن أنفذ رغبتها الوحيدة. صدقيني، أردت حينها أن أفعل، أن أكون ابنها.. خليفتها.. أن أرى دموع الفرحة تنساب على وجنتيها من فرط السعادة وهي تراني أفعل المقدر لي، أتسلم منها مقاليد مصيري المرسوم، أحمل إرث العائلة وأكمل درب أسلافي.
صدقيني، والله العظيم أردت ذلك وبشدة. لم أشأ معاندتها، لم أشأ أن أدمي قلبها بالخيبة، رغم أنها تستحق.. لكن كل شيء فيَّ رفض أن يطاوعني حينها، وهاج وماج.. ثار عليَّ أنا نفسي..

كل أعضائي رفضت الانصياع، كل خلية من خلاياي خانتني.. لم أعد أنا حينها،
لم أعرف كيف أكون ابنها، ووريثها؟
بل لم أعد أعرف كيف أكون أنا؟
و من في الأصل أنا؟
لست من محبي المُلْك مثل أبي وأجدادي.. لا أشتهي السطوة والسلطان مثلها.. ربما تكون قد صدقت حين وصفتني بصاحب "العقل الفسدان" وأنا لا أزال صغيرا..
أتصدقينني لو قلت لكِ، إنني لا أعرف كيف انسقت إلى طريق الخمور وأدمنتها، لا أعرف، لا أذكر متى تناولت المخدر أول مرة أو كيف استسلمت له؟! تلك ذكريات معتمة في ذاكرتي، قابعة في ركن قصيٍّ.. حينما أتذكر تلك السنوات التي راحت من عمري هباء، وأنا مخمور مخدر ملقى على الفراش، لا أدري ليلي من نهاري، ولا يومي من البارحة. تصيبني حسرة شديدة تشتعل لها النار في قلبي.... آآآه، آآآه.. لو تعرفين ما جرى لي؟!
شعرت بآهاته نارا تتقد في صدره لتشعل صدري، أردت أن أضمه بشدة، أسكنه صدري، لعل وجعه يطيب رويدا رويدا. وددت لو أنفض عنه كل الذكريات التي تعكر صفو حاضره. أن أخبره كيف أراه؟ أجمل مما يرى، أعظم مما يظن. كيف أن تلك النظرات الصافية الحانية لا يمكن أن يملكها سوى قلب صنع من الذهب الخالص، وأنه نادر الصنع.
وجدتني أنحني وأطبع قبلة على رأسه.
فرفع رأسه كي تلتقى عيوننا، كأنه يطلب مني الإذن.. " أأقترب؟ " لكني خجلت كثيرا، وتوارت عيناي سريعا وأنا أعض شفتيَّ من الخجل والحيرة. فأشاح بعينيه بعيدا، وفارق مضجعي. ليتخذ من جذع الشجرة مسندا له.
تمكلني الحزن حين رفع رأسه عني وفارق حجري، كأنه يعاقبني عقابا قاسيا.. أشعل سيجارا.. أخذ نفسا عميقا كتمه طويلا، قبل أن يزفره بقوة. فاغتظت أكثر وأكثر، وحقدت على سيجارته.. شعرت كأنها أنثى يقبلها قبلة طويلة وهي تستجيب طائعة بينما عصيت أنا، شعرت أنه يراقصها بين أنامله، يداعب جسمها الناعم أمامي ودون حياء، فصارت هي أنثاه.. استغنى عني بها..

أردت أن أخطف السيجارة من فمه أسحقها تحت قدمي وأصرخ في وجهه بأن تلك القبلة من حقي أنا.. وتلك اللمسة لي، ولا حق لواحدة أن تشاركني إياه

أردت أن أبعثر جنوني من حوله، لعله يفهم، أني........

توقف خاطري حين وصلت لتلك النقطة، وشعرت بالصدمة. لم أتوقع ذلك قطُّ. أأكون................. لم أقو على نطقها ولو بداخلي.

فلم أستطع أن أمنع دموعي الساخنة الحارة من أن تنسكب على وجنتيَّ، شعرت بقلبي ينفطر، لم أحتمل أكثر، ليس بعد أن شعرت للحظات طويلة أنني أنثاه.. جاريته، ولست مولاته.

فنهضت، وأنا أبكي وشهقاتي تعلو وتصيبه بالذهول. محال أن يفهم سر غضبي- جريت إلى الداخل، تاركة إياه غارقا في الظلام وحيرة البال.

*****

الفصل "١٨"
أنت العالم..

حينما لامستْ السيجارة طرف شفَتيه. شعرتها كأنها تغتصب حقي الشرعي. جزمت لنفسي أني قد وقعت في حبائل هواه. لكن كيف وهو الخطر عينه.. وهو المحال!.

أَنَّبْتُ نفسي بشدة، وصرخت فيها وأنا أركض من أمامه مسرعة هاربة من تلك النيران التي أشعلها في:

غبية أنا.

رددتها عدة مرات باستياء شديد، كم وددت في تلك اللحظة أن أتبخر من عالمه، وأعود لعالمي. ارتميت على الفراش فور أن وصلت إلى غرفتي، وعدت أتكور على نفسي أحتضن الغطاء بشدة، وأكتم فيه صوت بكائي. تركت لدموعي العنان.. دون أن أفهم معناها، أهي خوف؟ أم اشتياق؟ أم عقاب ؟!..

لم أشعر بمرور الوقت، ولم أدر متى تحديدا تسلل صوت البيانو إلى غرفتي. تشدو موسيقاه العذبة، تتسحب إلى شرنقتي الواهية.. تفض دموعي.. وتُرْخي الأوصال. كانت تلك هي ثالث مرة أسمع فيها تلك "السيمفونية" تُعزف بالليل. أكاد أجزم أنها نفس الأصابع التي قد عزفتها من قبل.. نفس الإحساس.. نفس المهارة المذهلة. شعرت بألفة شديدة مع النغمات. فهي تبدو مألوفة جدا لشغاف قلبي. يتحرك معها كأنه اعتادها.. هامت كل حواسي مع الموسيقى، إنها سيمفونية "لياني" عازف البيانو اليوناني الشهير.. كانت مقطوعتى المفضلة أيام الجامعة، ."Until the last moment". حركت شفتي أنطق بالاسم حتى غفوت.

***

استيقظت باكرا، على تحذير يرن بداخلي وبإلحاح شديد..

" اهربي الآن.. وقبل فوات الأوان. انقضى العقد.. الغي كل شيء، وحدك من سيدفع الثمن وسيكون باهظا".

كل شيء فيه أجزمُ بصدقه وصدقه.. قفزت من الفراش مندفعة إلى جناح طارق، أردت أن أنسحب وأحسم الأمر في عجلة، قبل أن أتردد وتخور عزيمتي.

طرقت على الباب عدة مرات، دون مجيب.
-صباح الخير، سيدتي.
أدرت ظهري لأجد خادمتي "أنيته" تقف خلفي وهى تبتسم لي. وقبل أن أسألها عنه، قالت:
-طارق باشا خرج من بدري.
ثم خفضت صوتها كثيرا، وهي تضيف هامسة لي:
-ولم يتوجه إلى المزرعة كعادته.
استغربت كثيرا من أسلوبها في الكلام، كأنها تريد أن توحي لي بشيء. لكن عقلي الآن مشتعل. لا يحتمل مزيدا من الفوازير. فقطعت بسمتها الودود بحدة نظراتي إليها، وسألتها في عصبية :
-أين تراه قد ذهب؟ هل تعرفين شيئا؟
انكمشت أنيته في نفسها إزاء لهجتي في السؤال. وبادرت بالرد في آلية:
-لا أعرف شيئا، سيدتي.
-معذرة أنيته، بالي مشغول جدا.
شعرت بسخافتي؛ لذلك اعتذرت لها. وحاولت أن أطمئنها أنها لم تفعل شيئا خطأً. عدت إلى غرفتي كي أطلبه على هاتفه المحمول، لكنه أيضا لم يجب على اتصالاتي.
انتابنى قلق شديد إزاء اختفائه المفاجىء، فطوال إقامتي هنا، لم أره يخرج قط إلا لكي يذهب إلى المزرعة. وليس قبل الثامنة أو التاسعة صباحا. شغلت التلفاز، حاولت أن أتلهى بأي شيء حتى عودته. انتصبت واقفة لحظة سمعت طرقا على باب الغرفة:
-اتفضل.
أصابتني خيبة شديدة حين رأيت "أنيته" تدلف عبر الباب. وتخبرني أن شكرية هانم تنتظرني الآن كي أشاركها الفطور. لم أكن في حالة تسمح لي بملاقاة أحد، وبالأخص شكرية هانم، تلك العجوز التي يمكنها بنظرة أن تسبر أغواري وتفضح أفكاري.. لست مستعدة لهذا الآن، خاصة أني لا أملك القدرة أن أطلي قسمات وجهي بمساحيق المجاملة كي يتخفى خلف ستارها آثار الصراع المحتدم بداخلي. استجمعت شجاعتي كي أطلب من أنيته بأن تكذب عليها، وتخبرها بأني مازلت نائمة.

مرت ساعات الصباح متثاقلة حتى أوشك الوقت على الظهيرة ولم يظهر طارق بعدُ. فأخذت حماما دافئا كي يساعدني على مرور الوقت. وبينما كنت متسمرة أمام دولاب الملابس، شاردة الخاطر. فوجئت به يقتحم الغرفة في عجلة تامة، ودون أي سابق استئذان. ويحثني بصوت منتشٍ يملؤه الحماس أن أرتدي ملابسي وألحق به سريعا. حينها أدركت أني واقفة أمامه عارية لا يسترني سوى البشكير، فأحكمته حولي في حركة لا إرادية وأنا أصرخ فيه كي يخرج.

لكنه لم يعر صراخي أي انتباه، وتحرك صوب الدولاب في سرعة، خطف معها أول قطعتي ملابس أمامه، ودفعهما إلى صدري قائلا:

-حالا.

قالها في جدية تامة وصرامة لم تدع لي فرصة للنقاش أو الاعتراض. ثم انصرف وأغلق الباب خلفه. أطعته وسط دهشتي من تصرفاته. وأكثر ما أدهشني أنه لم يحاول أن يختلس النظر إلى جسمي شبه العاري. ولم يمض من الوقت سوى عشر دقائق حتى لحقت به. وكان كل ما يهمني في الأمر هو أن تتاح لي فرصة الحديث معه.

فوجئت بوجود "جعفر" حارسه الخاص ينقل حقائب وأغراضا عديدة إلى الخارج، وقد انغمس طارق في مساعدته.

-أنت مسافر؟

سألته في تلقائية، وبدا على صوتي الانزعاج. فأجابني دون أن يتوقف لحظة عن العمل:

-وأنتِ كذلك، هيا، لا وقت لدينا لنضيعه.

انطلقت سيارة الدفع الرباعي بثلاثتنا تنهب الأرض تحت إطاراتها بسرعة جنونية مخيفة. لكن لسبب ما، لم أخف.

جلس طارق بجواري في مقعد السيارة الخلفي. لكنَّ عينيه سرحتا بعيدا تتأمل الطريق، ودون أن يصدر أي تعقيب. حينما حاولت أن أقطع الصمت بيننا وأسأله عن وجهتنا، نظر لي مبتسما، وأمسك يدي طابعا قبلة حانية على كفها. دق لها قلبي فرحا.. استغربت حالي كثيرا، كيف كانت تلك القبلة كافية كي أسترخي في مقعدي مستسلمة لتلك الحالة التي يمليها عليَّ!!، لم أحاول أن أقاطعه مرة أخرى رغم فضولي الشديد كي أعرف ما يحدث.

و لأول مرة.. لم أهتم، لم أعر أسئلة عقلي أي أذن..
بعد مرور ساعتين فقط، كانت الجيب قد وصلت لوجهتها، وتوقفت أمام تبة حجرية مرتفعة، تتوسطها لافتة نُقشت عليها عبارة:
وادي الحيتان، منطقة تراث عالمى Wadi El-Hitan، World Heritage Site
حين ترجلنا من الجيب، كانت الشمس بالفعل في مرحلة وسنها الأولى، تطلق تثاؤباتها الناعسة. ورغم خفوت ضوء الشمس الساطع فإن زرقة السماء التي لم نر لها مثيلا قط. جعلتني أشهق من فرط السعادة الغامرة، صفاء من نبع الطبيعة البكر، التي لم يعكرها بعدُ أي يد إنسية غاشمة. وتوقفت برهة أتأمل الصحراء الشاسعة مترامية الأطراف من حولنا، ويحدُّنا من الخلف جبلٌ من الرمال التي تحجرت على مر العصور. لم يخطر ببالي من قبل أن للصحراء لون السرور، حبات من الذهب الخالص تشرح الصدرور. أخذت نفسا عميقا لعلي أستنشق من نقائها. فأدركت أن للصحراء كذلك أثيرا خاصا، يجذب الموردين إليها، وأن للرمال رائحة الهدوء. صوت وسواسها خطرٌ على القلوب.. حين تعلو الرياح وطأة تتخلخل موازين الروح. وتسقط عنها دروع الدفاع، وتتركها قابلة للسقوط في بئر عشق عميقة.
رفعت عينيَّ لوهلة إليه، فوجدته يراقب ملامحي في افتنان حقيقي. وفوجئت بأن يدي مازالت في حضن يديه. اقترب مني أكثر، سائلا:
-أسعيدة أنت؟
-قل لي فقط، كيف أشكرك؟
لم يجبني، بل اقترب أكثر حتى التصق بي، وقبَّل وجنتيَّ في تؤدةٍ وتمهل.
لم أخف، لم أجزع كعادتي.. لم أبتعد عنه.. بل سعدت بشدة، دون أن أدري السبب.
قاطعنا صوت بدوى، يتنحنح وهو يقترب منا قائلاً:
-حمد لله على السلامة يا طارق باشا، نورتينا يا هانم.
انزعج طارق بشدة من مقاطعته لنا. واستدار كي يواجهه، واضعا جسمه حائلا بين البدوي وبيني، ليغلق زاوية اختلاس النظر إليَّ. ثم قطع عدة خطوات مبتعدا عني كي لا يسمح له بالاقتراب أكثر.

سعدت بتلك الحركة لأني بالفعل كنت قد غرقت في خجلي. ورحت أراقب جعفر من بعيد وهو يحمل الأمتعة، ويصعد بها إلى الجبل، وينصب الخيمة بالأعلى. في حين أن هناك استراحة للضيوف كانت قد افترشت المنطقة أسفل الجبل مباشرة.

لم يطل طارق في حديثه، وسرعان ما عاد، وغمرني تحت جناحيه، وهو يقود خطانا، قائلا:

-هيا بنا، سأفي الآن بجانبي من العقد.

بدت علامات الاستغراب وعدم الفهم على وجهي. بينما هو يكمل حديثه، قائلا:

-سأريك العالم، أليس هذا هو شرطك في العقد؟!

ولم يترك لي فرصة للتعقيب.

-منذ أكثر من ٤٠ مليون سنة، هنا بالتحديد بدأت الحدوتة أكون أو لا أكون.. أبقى أم أنقرض.

هكذا استهل كلامه. ثم أضاف:

-إننا الآن في المعرض المكشوف.

قالها وهو يمد ذراعه الحر مشيرا به إلى المساحات الصفراء الممتدة أمامنا بزاوية صعود تدريجية. بينما ذراعه الأخرى مازالت تطبق على خصري بقوة محسوسة كأنه يخشى أن أنفلت من بين يديه. ثم راح يضيف قائلا:

-" حيثما كان يجد العلماء الحفريات، كانوا يقومون بأعمال التنظيف والترميم من حولها، يكتفون بإزاحة الرمال عنها، ثم تُترك للعرض في موضعها. عبقرية حقا تلك الفكرة، تجعل للوادى رونقا خاصا به وطابعا مميزا له. كأن الروح تظل ساكنة داخل الحفرية ما دامت لم تُنقل من مكانها،فإنها لا تفقد شيئا من رونقها، تقف حارسا للماضي، شاهدا على قصة مجد لم تزل قائمة. لم أحب زيارة المتاحف قطٌّ في حياتي، دائما ما أشعر أنها سجن كبير أو مقبرة مصطنعة. يفقد فيها المجد قصته، تتراص المنحوتات والمعروضات بداخلها، كأنها اقتعلت من عالمها الأصلي، لتسجن في فتارين من الزجاج، تحفظها ظاهريا، وتخليها من الجوهر. فتبقى بلا هُوية أو قصة ترويها لنا.

انتشيت من طريقته الساحرة في الحديث. وحين توقف قليلا كي يسترد أنفاسه، رجوته أن يكمل، ففعل:
-أو تدري أننا الآن نسبح لا نسير؟
-كيف ذلك؟
-هذا كان قاع المحيط قديما. منذ أكثر من ٤٠ مليون سنة سبحت هنا الحيتان، بعدما طرأ على الأرض تغير مناخي قاسٍ، كاد يودي بكل أشكال الحياة على وجه البسيطة، واضطرت الكائنات الحية التي عاشت على اليابسة إلى البحث عن بيئة جديدة صالحة للحياة. من تكيَّف مع التغيرات نجا، ومن لم يفعل اندثر مع الزمن.. القاعدة واضحة وبسيطة البقاء لمن يملك القدرة على التكيُّف. لهذا لم تنج الديناصورات رغم كونها الأقوى.
دهشت من تلك المعلومات التي أسمعها لأول مرة، بطريقة عرضه الجذابة، فعقبت في تلقائية ودهشة طفولية، قائلة:
-بجد؟!
أجابني:
-ما أروعك! دهشتك تجعلك تفيضين بالأنوثة والحياة.
شعرت بحمرة الخجل تعتلي وجنتيَّ. لكنني لم أخفض عينيّ التي تعلقت بعينيه. شعرت ساعتها أني طفلته، وهو المعلم الملم بالعلوم كافة وبواطن الأمور. يفسر لي الكون ويعلل أسبابه.. تخطفني كلمته، تسحرني مخارج الألفاظ. أظنه لو كان أنشد شعرا ما كان ليهزني مثلما يفعل حديثه بي الآن.
أخذ يتنقل بي من حفرية لأخرى.. يشرح ويفسر، ويزيل شرحه بانطباعاته الخاصة.. حدثني عن الباسيلوسورس " الحوت العملاق"، وحوت " الدورديون أتروكس " الأصغر حجما، وغذاء الباسيلوسورس المفضل. رغم ذلك انقرض الباسيلوسورس العملاق، وبقي الدورديون أتروكس ليتطور ويصل إلى شكل الحوت الذي نعرفه الآن.
البقاء للمراوغ، الذي يجيد فن التكيف مع العالم، وليس للأفضل على الإطلاق.
ثم صحبني إلى حيث ترقد سمكة المنشار، وضحكنا كثيرا حين رأينا لافتة تعلن عن حفرية حورية البحر. هيكل مكتنظ البنية، لا يشي بأى جمال كان، كانت أقرب الأشكال إلى الفقمة.

عقبت ساخرة:
-ما أحلاه الخيال!
عدنا إلى الخيمة بعدما اكتمل الغروب تماما، وخيم الليل. ووجدنا النار مشتعلة - تماما كما يحدث في الأفلام- وجعفر يفرش لنا بعض أطباق الطعام، معقبا:
-تصبيرة سريعة " فطيروعسل وجبن ماعزوبلح رطب" حتى ينضج الشواء.
ثم تركنا ونزل. دعاني طارق لتناول الطعام لكني لم أجد لي شهية. استلقيت على ظهري بجوار شعلة النار، فشهقت كالمسحورة من فرط دهشتي وإعجابي بصفحة السماء المزدانة بآلاف النجمات.. ولم أشعر بحالي وأنا أنهض مندفعة تجاه النجوم، أمد ذراعيَّ على طولهما لعلى أطول نجمة وأخطفها. ووجئت بطارق يجذبني بقوة من الخلف، ويعرقل اندفاعي. صارخا:
-دُرَّة، احترسي.
نظرت إلى الأسفل كي أستوعب ما يحدث، فوجدتني على طرف حافة الجبل. وطارق ممسكٌ بي بإحكام شديد، وضربات قلبه تدق بعنف شديد وبصوت مسموع. ثم سحبني إلى الداخل، صارخا في:
-أمجنونة أنت؟
خرجت كلمته من بين أنفاسه اللاهثة بصعوبة شديدة. فدفنت رأسي في صدره، متشبثة به وهو يحتويني بكلتا ذراعيه.
مرت برهة طويلة من الوقت، ونحن ساكنان على حالنا هذا. حتى هدأ روعى تماما، واستردت أنفاسي وقبل أن أجيبه، قائلةً :
-نعم، أسماني عزيزا.. مجنونته الحلوة، حين فعلت معه نفس ما فعلته الآن معك بالضبط. عدا أني كدت أن أسقط من فوق سطح بيتنا المتآكل سوره. أظنني مهوسة بالسماء.
-ويبدو أنه لا أمل في شفائكِ.
قالها وابتسمنا معا.. وهو يضع قبلة على جبيني. وتلك كانت أول مرة لي أذكر فيها اسم عزيز- أبي- دون أن أشعر بمرارة الفراق ولا وحشة غيبته.
آه، ياعزيز لو كنت معي الآن. كنت تضعني في حجرك فوق سطح بيتنا الواهن وتعلمني عدَّ الأرقام بعدد أنجم السماء. ليلة أن أتممتُ الحفظ حتى عشرة. سألتك: أهناك بعد العشرة أرقام؟

قلت لي: نعم، يوما ما سأعرفك كل شيء أعرفه. لكن لم يأت هذا اليوم مطلقا، وتعلمت باقي الأرقام على يد المُدرسة التي كانت حين نخطئ الجواب، تعد الأرقام على كفوفنا ضربا بالعصا.
آه، يا عزيز لو كنا نملك تلك السماء حينها، لكنت علمتني العد للمنتهى، ودون ألم.
-تفتكر كم نجم في السماء الآن؟
سألته في براءة، عيناي تحدقان في عينيه. فأجابني:
-كم تتمنين أن يكون العدد؟
-ما يجود به الزمان، أنا به راضية.
ابتسم وهو يجيب:
- الليلة، يصل عدد النجوم التي نراها بالعين المجردة إلى ٦ آلاف نجم. وهذا لا يتكرر دائما. بل يعتبر هذا العدد هو أقصى تقدير نستطيع نحن البشر أن نراه بأعيننا المجردة. شريطة أن تكون السماء صافية رائقة البال لنا كما الليلة.
أتم عبارته السابقة ثم صمت لثوانٍ يتأملني بنظراته، قبل أن يضيف قائلا:
-كم أنتِ محظوظة !
-بك.
انسابت من طرف لساني في تلقائية دون تفكير. ولم تخجل عيناي منه ولم تنسحب من عينيه.
-أتعرفين حكاية الفارس المغوار" سديم الجبار"؟
-لا.
فسحب من جيبه، مؤشرا كالذي تجده مع علماء الفلك، وأشار به إلى السماء، فانطلق ضوءه الأخضر رهوا يشق طريقه إلى النجوم. وقص عليَّ أسطورة الفارس المحارب الذي يحمل درعا ويقف حارسا للسماء ومعه كلبه الصياد، يقاتل الثور ويغدر به العقرب. شعرت مع حكاياته أني طفلة دخلت لتوها مدينة ملاهٍ لا تسأم ألعابها. ويشير إلى تجمع آخر من النجوم، ويقول:
-وهذا برج الحمل، يرسمه ثلاثة عشر نجما.
ثم شرع يروي حكايته، وهكذا.. أبحر بي في عالم الأبراج وخيالها وما ورد عنها من أساطير. رسم لي سماءً أخرى غير تلك التي نعرفها..

علمني أنه لولا الخيال لتاه الإنسان منذ قديم الأزل. و حانت منه لحظة صمت طويلة، قبل أن يستطرد حديثه قائلا:

-أتعرفين يا دُرَّتي، ماذا بعد السماء؟

لم أفهم سؤاله. وفي حقيقة الامر انشغل عقلي بكلمة "دُرَّتي" تلك التي أسمعها منه لأول مرة، بل أسمعها لأول مرة في حياتي.

تابع حديثه، كأنه لم يكن ينتظر مني إجابة:

-بعد أن نطوي سماءنا بنجومها اللامعة، نجد أنفسنا خارج كوكب الأرض نراه يسبح أمامنا في الفضاء ومن حوله قمر يدور في فلكه، ثم نبتعد أكثر عن المشهد فنجد الأرض والقمر قد دارا معا في ملكوت الشمس ومدارها، يتقاسمان نورها مع باقي كواكب المجموعة.. نخرج من المشهد أكثر فأكثر. نرى المجموعة الشمسية بأسرها يحزمها حزام واحد اسمه "كايبر" وتسبح كروح واحدة في الكون المترامي تجاورها المجموعات الشمسية الأخرى. تحويهم جميعا مجرة واحدة تسمى "درب التبانة أو Milky WAY"، لتصنع تلك المجرة مع أربعين مجرة أخرى عنقودا يسمى العنقود المجري العظيم. وكل هذا يمثل فقط نقطة واحدة على خريطة الكون المعروفة إلى الآن.

شهقت من العجب، معقبة :

-سبحان الله الذي أبدع وسوَّى! أي أننا مجرد نقطة هزيلة ضئيلة، أقل شأنا بكثير من نقطة حبر على فرخ ورق، ما أضألنا!!..

هز رأسه يوافقني، لكنه أضاف:

-وما أعظمنا!!..

قالها، ثم صمت يراقب حيرة عيني قبل أن يكمل حديثه قائلا:

-غامرتِ بحياتك، قامرتِ بعمرك كي تري العالم. فتشتِ عنه في كل مكان، عدا المكان الوحيد الموجود فيه.

-تقصد هنا؟

سألته باستغراب مشيرةً إلى الوادي، فأجاب وهو يشير إلى صدري:

-بل هنا. أنت ذاتك الكون بأسره، نموذج مصغر منه. العالم بأسره، بكل ما يحويه من أعاجيبَ وأسرارٍ. متشابهات ومتناقضات.. تختلط بدواخلنا. كل أشكال الحيوات وألوانها، كل أنواع الصراعات بين البشر، بل بين الدول كذلك تعد نموذجا لصراعات النفس الواحدة. المشاعر الحميد منها والذميم:

الحب، الكره، العطاء، حب الخير.. الغيرة والحقد والدونية والشعور بالنقص. الخير والشر، كله بداخلنا. ونحن من نقرر من نكون؟ وبِمَ نشعر ؟ وكيف نترجم ما نراه من حولنا؟ نحن من يختار كيف يترجم شفرات العالم المحيط وَفْقا لشفرة عالمه الخاص.
في الوقت الذي فيه عدد لا نهائي من احتمالات الحياة متاحةٌ لنا أن نختار من بينها. يصدق أغلبية البشر أن هناك صنفا واحدا وطريقة واحدة -كريهة في الأغلب- مرغما على عيشتها.
أنت دُرَّة الخالق وأعجوبته، حرام عليك أن تهدري ذاتك -كونك الفريد- وتضيعي عمرك في تيه مصطنع، ودون أقصى استغلال له.
رحلتك إلى العالم ما هي إلا رحلة البحث عن الذات.

****

لم أدر متى توقف عن الحديث. أو متى وكيف انطبقت شفتاه على شفتيَّ. أهو البادىء أم كنت أنا؟ لا يهم.. الأهم.. أننا قد ذبنا في قبلة موصولة وعناق حار، لم ندر معه كم طال الوقت بنا. و المنى تذكي لهيب أشواقنا. انفلتُّ بصعوبة من بين شفتيه كي ألتقط بعض أنفاسي ثم عاودت القفز في بركانه الهائج، فشعرت به يأكل شفتيَّ من فرط الاشتهاء.
و دون أي سابقة إنذار، سمعنا صوت جعفر ينادي علينا للعشاء، ينتشلنا من حمى الشوق، حاولنا تجاهله، لكنه عاود النداء ووقع قدميه يقترب. فنظر لي طارق في يأس، وهو يقول:
-أعرفه جيدا، لن يصمت حتى نذهب إليه.
-أكيد جائع.
-وأنا أكثر منه.
قالها بطريقة استعراضية، ويغمز لي. ثم حسم أمره، قائلا:
-هيا بنا، نلتهم الخروف ثم نعود كي نكمل حديثنا.

*****

الفصل "١٩"
أسطورة عشق..

دعاها لرقصة المساء.. وافقت.. أتته بفستانها المِخملي المشبوب بحمرة الغروب، مطرز ذيله الشيفوني الناعم بأسراب متناغمة من الألماس النقي خالص اللمعان.. أتته طيعة لينة سهلة المنال، يحملها الشوق ونغمات الهيام، احتضنها الخليل العاشق الولهان، ووشوش لها، لا تبتعدي عني فكلي لك مشتاق. فمالت على أذنه هامسة: أنا هنا الآن.. ملك لك وحدك كما خلقنا الله في الأصل.. خليلين عاشقين "الليل والسماء". أحاط خصرها بذراعيه، فلانت أوصالها، وتحررت خباياها.. أهداها الليل نجمات من الماس، زينت بها فستانها، وتهافت حسنها من فرط الدلال.. إن نظرت لها خبلك جمالها، تحيرت في سر الدلال.. أهو البريق وسط الظلال؟ أم رائحة الهوى التي تفوح منها كل مساء، حين يأتيها الليل يعانقها، ويمتزج بحسنها.. يشتهي منها الحلال، حينها تطلق في الجو روائح شهية تشي بالعشق وشهد الحلال؟!!..

عاشقان هما، تحسبهما من فرط هواهما أن ليس بينهما فراق. هو خليلها الأولي، وعشيقها الأبدي.. يمتزجان.. يتداخلان.. يتعصران، وفي لحظة عشقهما الأكبر.. في غسق الليل، تنفلت من بين ذراعيه.. تذكره بأن لها صغارا.. يرفض انتفاضها بعيدا عنه، يتمنع.. يقاوم هروبها.. لكن محال.. فالصغار، مازالوا صغارا، يحتاجون لي.. سأذهب فقط الآن، كي أسرج لهم النور، وأدفيء لهم الجو، سأطهو الفطور على نيران الشمس.. فمن سيضيء خطاهم غيري؟!.

لاتحزن مني، سأعود لك، كما أعود كل ليلة..

يرجوها في قبلة أخيرة، يرق قلبها العاشق له، فترد قائلة: -اخطفها سريعا، فليس بعد الفجر عشق.

وتنهض الأم الحانية تخلع عنها دثار العشاق، ترتدي مريلة المطبخ المزدانة بالشمس كي تطهو الفطور بنار الحب. ويكاد عقل الخليل- الليل الأصيل- يشت من شدة الوجد، يحاول أن يأتيها خلسة في وضح النهار، فلا تنهار بين ذراعيه وتريح شوقه، إنما ترجوه الرحيل، هامسة بالقول:

-سيرانا الصغار.. النهار لهم..
يا للنساء!! وأحوالهن!!.. مسكين من ظن أنه يفهم!!
إنها الحية الغاوية التي تعشق بجنون وبكل كيانها، تغرق في الحب ودواماته، تتلذذ بالعشق ولسعات غرامه، تحييك مادمت عليها مقبلا، تنفيك بعيدا في أقاصي الكون إن وليت عنها مدبرا.
ويا سعداه، من عشقته امرأة سامية!.
***
لم أتذوق في حياتي طعاما مثل الذي أكلته في تلك الليلة الهانئة، للشواء طعم مختلف، كأن الخروف قد تعطر بنكهة المساء، وسقاه الليل بسحره، وشُوِيَ على أشواق الليل والسماء.
ضحكنا كثيرا، كما لم نفعل من قبل.. وسمعت لأول مرة ضحكة طارق ترن من القلب. نظرت له، تسمرت عيناي، فمال على أذني هامسا:
-هل رويت لك أسطورة السماء
فأجبته بأنه قد فعل:
-حكيت لي عن السديم الجبار.
فضحك و أجاب:
-هناك أسطورة أخرى، أشهى.
قالها ولم يتنظر مني جوابا، سحب يدي كي نصعد إلى التل حيث الخيمة المنصوبة.. حين كنا نراقب السماء.. وقبل أن نغيب عن أعين الحاضرين، التف موجها حديثه إلى جعفر:
-ارتح يا جعفر قليلا. ولا تشغل بالك بنا.
هز جعفر رأسه مؤيدا، لكنه لم يستطع منع ابتسامته الخبيثة من أن تفضح وجهه، فأشاح بنظره بعيدا كي لا يلمحه طارق.
طرنا لأعلى.. حيث نسمات السماء..
البرد يلسعني بشدة، فغاب داخل الخيمة ورجع سريعا ومعه جاكيت من الصوف، لفه به، وأحكم عقد حزامه على خصري.. ثم سأل:
-أتشعرين بالدفء؟
فأجبته:
-لا، ليس بعد.

فغاب ثانية ثم عاد، ومعه بطانية من الصوف، فردها على كتفيَّ، وهو يقول:
-إنها الصحراء قارسة البرودة بليل.. تعالي، ستنسين البرد الآن.
طواني تحت جناحيه، وجلسنا على مقربة من الجبل، ثم رفع طارق نظره إلى السماء مشيرا..
-أترين رقم ٤ الذي يتربع في السماء؟
-أين هو، لا أراه؟
سألته، فرفع المؤشر الضوئي ليخترق السماء مشيرا للبرج "ذات الكرسي أو البرج الملتهب - كاسيوبيا"، ثم أضاف:
-سأروي لك أسطورة "كاسيوبيا وابنتها جميلة الجميلات أندروميدا".. هي أسطورة عشق تتزين بها السماء..
ابتسمت له في سعادة بالغة. وأسندت رأسي إلى كتفه وهي تنصت باهتمام. كأني عدت بين جناحيه طفلة تستعد كي تسمع حدوتة "ما قبل النوم". شرع طارق يقص أسطورة "كاسيوبيا" ملكة أثيوبيا:
-تبدأ الأسطورة، بأن الملكة "كاسيبوبيا" وهي زوجة الملك سيفيوس (Cepheus)، ملك إثيوبيا (برج الملتهب). كانت جميلة جدا ولها ابنة اسمها "أندروميدا" أي المرأة المسلسلة، طاغية الجمال، تسحر من يراها، وتوقد نار الغيرة في قلوب النساء. فجمالها ليس له نظير، يفوق جمال حوريات البحر، فذهبت حوريات الماء إلى إله البحار بوسيدون، للشكوى من غرور الملكة كاسيوبيا، راجيات عقابها. فعاقبها، وأرسل في التو وحش البحار المفترس "قيطس" إلى أرض أثيوبيا. لقتل الناس، ومنع الصيد والأرزاق عقابا لها على صلفها وغرورها.
ارتاع الناس من البلاء العظيم الذي حل بهم. ذهبوا يرتجفون إلى ملكتهم كاسيبوبيا، يرجونها تخليصهم من هذا العذاب. لكن الملكة كانت تعلم أنها لا قِبَلَ لها هى وجيشها بمواجهة وحش البحار المفترس قيطس. فذهبت إليه في محاولة للتفاوض كي يرفع عن شعبها هذا البلاء، فقبل الوحش أن يرحل شريطة أن تقدم له الأميرة أندروميدا، قربانا. صعقت الملكة عند سماعها الشرط. لكنها رضخت لطلبات الآلهة في نهاية الأمر. و أُخذت الأميرة أندروميدا الجميلة إلى شاطئ المملكة.

ربطت من يدها بسلسلة حديدية في صخرة عظيمة على الشاطئ. وتركت وحيدة تواجه مصيرها المحتوم. وعندما علم الوحش بالجائزة الجميلة التي تنتظره، ألقى بنفسه في التو في الماء سابحا في اتجاه أندروميدا.
في هذه اللحظة، ظهر في الأفق طائر في الهواء، البطل برزيوس، ابن زيوس كبير الآلهة. كان عائدا لتوه من معركة رهيبة. قتل فيها الميدوزة المرعبة التي تخرج الثعابين السامة من رأسها. فقتلها، وقطع رأسها وجلب تلك الرأس معه مغطاة. وحين شاهد برزيوس أندروميدا وهي مكبلة بالأغلال ومربوطة بالصخرة، سألها عن سبب وجودها في هذا المكان الموحش، وسبب ربطها إلى الصخرة. أخبرته أندروميدا بالقصة كلها. عندئذ، طار برزيوس إلى الملكة كاسيبوبيا، يخبرها أنه يستطيع أن ينقذ ابنتها من وحش البحار قيطس، بشرط أن يتزوجها. فوافقت الملكة في التو. وطار في الهواء متجها صوب وحش البحار قيطس، وارتقب وصوله إلى الشاطىء، وأمر الأميرة أن تغمض عينيها، حتى ظهر الوحش، حينها كشف عن وجه الميدوزا – التي تحيل من يراها إلى صخر-، فتحول الوحش إلى صخرة عظيمة. ونجت الأميرة، لكن الملكة كاسيبوبيا لم توف بوعدها، وغدرت بالبطل برزيوس. فشكاها إلى الآلهة،، فعوقبت نظير غرورها وتحديها للآلهة، بأن ربطت من يدها هى الأخرى في النجم القطبي. ورفعت إلى السماء لكي تظل تدور حوله إلى مالا نهاية. ورفعت كذلك الأميرة الجميلة أندروميدا كي لا يشتهيها أحد من الرجال بعد حبيبها المخلص. فلتكن عبرة وتذكرة للمحبين، بأن يوفوا نذورهم، ويتقاسموا الحياة مع محبيهم. فبدونهم لامعنى لما هو آت.
سُحرتْ بما قال، حتى ظننتُ أني عيش تلك اللحظة في حقبة أخرى في عالم "ما كان". ووجدت يدها ترفع كي تلامس شفتيه، تمر على شفته السفلى مروراً حائرا، سائلا "أمازال هناك عشق وعشاق؟ أتلك كانت دعوته لي كي أعشق بل وأكون في زمرة المخلصين كذلك؟".
سألته:
-هل أنت رومانتيكيا هكذا في كل شيء؟
أجابها في بساطة :
-لا، حينما أتحدث إليك فقط.
عدت لأطفو ثانية بشفتيه بحروف أناملى، وأنا أقول:

-أعشق مخارج ألفاظك، أعشق الكلمات حين تفارق شفاهك، لها طابع خاص مميز. لها طعم فريد..

-حقا؟

قالها، وهو يعتدل في جلسته، كي يواجهني، اقترب بشدة، حتى شعرت بأنفاسه تحاصرني من كل مكان، يبعث نسيمه الدافيء فيَّ نشوة ورعشة غريبة، ارتعشت.. فإذا به، يلثم شفتي، يطبع عليهما قبلة محمومة، تفتح أبواب الخيال، تغري بالعشق. ثم قال:

-وكيف هو الآن طعم شفتاي؟

-عذبة كالسكر، تلسع كسياط النار، ولا تسألني كيف ذلك..

حينها تهت، لم أدر تحديدا ما يجري، كيف انطرحت أرضا، وافترشت رمال الصقيع، كيف صار هو أعلاي، يعبث بي كيفما شاء.. يتغلغل في مسام جسدي، يسقيني عطره المشتهى.. كنت بين جسده المحموم يبث فيَّ لهيبا مستعرا، وبين رمال الصقيع تقرض أوصالي، كانت كل خلاياي تنتصب.. تشرئب منتبهة على أطراف أناملها، فرحت أعانق كل لحظات عشقه حتى النخاع.

عشقته لحظتها بجنون، وددت ألا يغادرني مطلقا، ألا يبرح ساحتي، وأظل أرتشف من بين حناياه طعم الشهد والعذب المحال.

ضمني إليه بشدة، يحتويني ويحوطني بكلتا ذراعيه، أدخلني بين ضلوعه خشية أن يصيبني برد أو مكروه.. ونحن منبطحان على الرمال نتطلع إلى السماء.. نتلحف بها، نتسلى بقصتها، أول قصة عشق حدثت في الزمان. قبل أن تدب في الإنسان روح، قبل أن ترى الأرض صباحا..

طبعت قبلة على كتفه الأقرب إلى شفتيَّ، ثم عقبت قائلة:

-السماء مغرية حقا، باهرة الجمال.

فرد في سلاسة قائلا:

-أنت الأجمل، أنت الأشهى بين كل النساء.

-أجمل من نجوم السماء؟!

-طبعا، السماء ماضٍ بلا حياة.. أنوارها مضى عليها ملايين السنين. والأرض كذلك ماضٍ، وادى الحيتان هذا كله ماضٍ. أما أنت، فوحدك حاضر، وتملكين سر الحياة.

-ماهو؟
-ستعرفين الآن..
بدون سابق مقدمات.. وجدته يرفعني فوقه على حين غِرَّة. خفت، لكنه أمسكني من خاصرتى جيدا، وتناول نهديَّ يعتصرهما بين يديه،
ثم صرخ فيَّ قائلا: هيا -أطلقى صرخاتكِ.. حررى آهاتك..
صرخت حينها، وتأوهت كما لم أفعل من قبل، تراقصت فوقه، كأني أمتطي صهوة فرس عربي جامح، يهزني هزا عنيفا، لا تصمد معه قيودي.. تستعر في نيرانه، فتنصهر معها قيودي وتسقط عني الأغلال، وكأني أميرته المسلسلة "أندروميدا" وهو بطلي المغوار.
رحت أركض فوقه كمجذوبة أحرقها العشق.. أطلق عويلي للفضاء..
ألعق من بين عينيه دفئا خالصا ينساب، يغرقني بالأمان، ما هذا الذي أحياه!!..
أهدأ قليلا.. يلسعني فوق مؤخرتي كفرسته الأثيرة. فتعلو صرختي الأخيرة وآهتي اللذيذة تشقني نصفين، فأسقط من عليه، يتلقفني بين ذراعيه، وتسقط معي كل الخرافات.
أعتق.. أتحرر.. أخيرا..
حينها، أدركت كل شيء..
ملكت حريتي، لكنه ملكني، ولكن تلك المرة، بفضله عليَّ، وعشقي له الذي اجتاحني كإعصار يضرب جزرا ناعسةً.
عرفت إجابة سؤالي الحائر: ما السبيل إلى الحرية؟ كيف نتخلص من العبودية؟
قبل أن يغمض عينيه تماما، غمغم في أذني، قائلا:
-اطمئني الآن، غدا أريكِ أصل الحياة.
ابتسمت شفتاي، وأنا أغفو في حِضنه كطفلة الوديعة.

*****

الفصل "٢٠"
أرض الغواية..

كان قد مر شهران على لقائنا الأخير، حين وجدت قدمي تسوقانني إليها، وأعاصير الشوق تكاد تقتلع آخر أبراج عقلي، وأسقط صريع عشقها الذي لم أشف منه قط. هي الأولى في حياتى وهي الأخيرة.. رغم ما آل إليه حالها، وهو أمر عسير على الرجل الشرقي الحر أن يتقبله، رغم ذلك.. لم أشف منها، لم أستطع نسيانها، لقاؤنا الأخير أكد لي أنها بالفعل تملكني، وهي لا تدري، رغم ذكائها الشديد الذي يصل إلى دهاء الثعالب فإنها لم تفهم يوما كم عشقتها؟! ولا زلت. أظن أن المرأة في العموم مهما بلغ بها الذكاء لا تفهم كيف يعشق الرجل؟ كيف تذوب روحه حين تتعانق مع أنثاه؟ لأنها ببساطة لا تفهم لغته. الأغلب في الرجال، أنه إذ أحب قل كلامه. وإذ أصابه سهم العشق نسي كل حروف الهجاء.

أردت أن أدق بابها، أجثوَ على ركبتيَّ طالبا الغفران والسماح لطول الهجر. كم أتوق للاعتراف بشوقي وعشقي لها، بأني لم أنسها، بأني مخلص أتعبد كل ليلة في محراب هواها.. ولم تدنس أي امرأة أخرى صلاتي وعشقي لها..

أردت أن أقوى على الاعتراف لها؟ والتخلي عن عادات الرجولة الذميمة في الصمت والهجر والمكابرة.. رغبت في ذلك وأكثر..

تمنيت لو استطعت تلبية طلبها، وبقينا معا..

لكن، هل أستطيع فعلا العودة والبقاء؟

هل ينتصر العشق؟ وأنسى رجولتي ؟!!

وعلى قدر شوقي ولهفتي للعودة، على قدر ما أعياني جواب أسئلتي الحائرة. لم أستغرب حين قادتني قدماي إلى هنا تحديدا، مقر عملها وأس الفساد.. ملهاها الليلي، عالمها الخاص.

حين دخلت، آثرت الجلوس بعيدا عن الأعين، واخترت الكرسي القصي في ركن هادئ على البار، أشاهد وأتابع كل شيء يحدث من بعيد. تابعت العروض الاستعراضية تلك التي تسبق عرضها الخاص، يعتبرها الجميع هنا مقبلات، فاتحة للشهية. "تجري ريق الزبون"، وتدغدغ أحاسيسه كي يصبح على أُهْبة كي يلتهم وليمتها الدسمة، على حد تعبير البارمان.

حين اعتلت المسرح، لم أملك أن أخفض نظري عنها، تعلقت بها كطفل ضائع وجد أمه لتوه. فتصلبت مفاصل أصابعه وهي مطبقة على طرف جلبابها.. تأبى الفراق. وبالمثل تصلبت عيوني عليها. ولم يكن الجمهور أفضل مني حالا.. الكل مشرئب العنق.. الأعين شاخصة تلاحقها أينما تميل بجسدها المحموم.
لم يكن جمالها هو سر سحرها، إنما حواء.. المرأة اللعوب القادرة التي بداخلها، تلك التي تفك سلاسل شرنقتها. وتطلق عواءَها على المسرح، في استعراض لا يخلو من كل شيء.. حقا يُدرس كفن من فنون الإغواء. تستعرض فيه كل ملكات أنوثتها. كالأفعى تتمايل على أنغام شيطانية، تمتزج الحركات بتأوهات غنائها الاستعراضي، لا تبرع في غناء القوافي، لا تجيد فن الطرب. لكنها حتما بارعة في العزف على أوتار الإغواء.
أدركت كيف تدير الصالة من على مسرحها، في لحظة تسدد نظراتها إلى الزبون المختار، وتشعره بنظراتها أنه الملك المبجل، وكل ما يأمر به يطاع.. وأن المسرح أُعد خصيصا من أجله هو. وحين يصل الزبون إلى قمة الانتشاء، ومن على صهوة المجد والعلاء، إذا بها تهوي به، تطرحه أرضا.. وهي تنبذه بنظرة. تتركه يهوي.. صريعا تحت قدميها، باكيا متضرعا، كي يعود إلى جنتها.
أشهد لها بالعبقرية. هي الأنثى اللعوب كما ينبغي لها أن تكون.
وقبل أن ينتهي الاستعراض، كان الحضور قد سكروا من خمر وجودها، وليس من المشروبات العطنة المغشوشة على الأرجح، التي يقدمها الملهى. وحين اقتحم المسرح عدد من الرجال، الكل طامعٌ في قبلة خاطفة أو لمسة. اشتعلت نيراني.. وتوقدت. كدت أن أنهض منصرفا. لكني مثلهم تماما صرت مخدر الإحساس، لا أقوى على فراقها. لم تحتج على مقتحمي المسرح بل تلوت أكثر، وتقصعت بين أيديهم المتلهفة إلى جسمها الناري. لم تتوقف الموسيقى، لم تشف غليلهم بل تركت العنان لجسمها كي يتم رقصته بأروع الحركات ثم سكت كل شيء فجأة حين اقتحم المسرح رجال الأمن ينتشلونها قبل أن تعم الفوضى. شيعت الجميع بقبلة في الهواء وهى ترحل محمولة على أكتاف صف من الرجال.
لم أصدق ما رأته عيناي.. !!

شعرت بالنيران تندفع إلى رأسي بقوة، ونار موحشة تنهش ما بقي من رفات القلب. لم تكن نار الهوى بل غيرة تغلي بين أضلعي. كم وددت لو أحرقت بها جميع الحضور، وهي معهم. لكني لم أملك إلا أن أبتلع مرارتي وغيرتي. وتجرعت كوب البيرة دفعة واحدة. وأنا أسأل نفسي:
"هل عشقي يكفي أن يكون شفيعا لها، وأنسى ماضيها.. و أنسى كل ما حدث لتوه، وأبدأ معها من جديد؟"
" هل تخمد نيران العشق نيران الغيرة؟!!"
لم يعد لدي أي ذرة شك في عدم قدرتي على الغفران. ستبقى مشاهد الليلة من رغبات الرجال محفورة بذاكرتي، وروائحهم العفنة عالقة بأنفاسي تنهش حاضري، وتحرمني النسيان. كنت أدفع الحساب حين استوقفني صوتها يقول في عتاب مائع:
-عيب عليك، هذا مكانك.
استدرت لأجدها تقف أمامي، لا يستر جسمها سوى القليل من القطع المبعثرة خيوطها هنا وهناك على رقعة جسدها الشاسع. خلفها حارس مفتول العضلات يلازمها كظلها. سحبتني من يدي، وتبعتها دون أن نتبادل كلمة واحدة. قادتني إلى مكتبها -مكتب المدير-. وتركنا الحارس على الباب. دُهشت من فخامة المكتب وأناقته المبالغ فيها، كأنه مكتب أثرى خرج لتوه من المتحف، بكراسيه الضخمة المذهبة، والتي لا تتجانس مطلقا مع جو الملهى.
أشارت لي كي أجلس. واختارت أن تجلس على رأس المكتب. كم رغبت في تلك اللحظة تحديدا لو أصفعها على وجهها نظير تعاليها الفارغ، ربما أكفر عنها خطاياها، أو أشفي قلبي من أفاعيلها.. !!.
لكني لم أفعل، جلست دون تعليق.
كدت أن أنطق وأقول لها قراري النهائي. لكن تراجعت. انتظرت أن أقول أي شيء، وحين يئست مني، سألتني:
-ما رأيك ؟
لم أستوعب مغزى سؤالها، واستفسرت:
-في ماذا على وجه التحديد؟
-في كل شيء؟

أجابت وهي تقف وتخطو عدة خطوات متجولة داخل المكتب، كأنها لبؤة في عرينها. أعرف أنها تنتظر مني الإقرار بتفوقها ومهاراتها. تتشوق لتلك اللحظة التي أقر لها فيها بالانتصار. وأتى جوابي عن قصد مخيبا لآمالها شديد الاقتضاب.

-جميل.

-فقط.

قالتها بنبرة ساخرة متهكمة. ثم أضافت:

-شكلك لا تعرف قيمته المالية؟!!

-أستطيع التخمين.

قلتها في هدوءٍ مصطنع. لم يدم طويلا، فسرعان ما انقلبت سحنتي، وأمسكت ذراعها في عنف، سائلا إياها:

-ماذا تريدين مني؟

-هل تريدين اعترافا مني بذكائك. أنا أشهد لك بالشطارة المطلقة، وقد أصبحتِ تملكين أشهر كباريه في مصر. أهذا ما تريدين سماعه؟!! أنت شديدة الغباء، لا تدركين قبح الوحل الذي هويتِ فيه.

أجابتني، وهي تخلص ذراعها من قبضة يدي:

-أنا التي من المفترض أن أسألك هذا السؤال، ماذا تريد أنت مني؟!! كل مرة تظهر ثم تتركني وحدى وتختفي، والآن تعاود الظهور. لماذا أتيت؟

-لأني..

كررتها عدة مرات، فقاطعتني قائلة:

-لأنك ماذا؟

-لأنى أحبك يا غبية.

اندفعت معترفا دون قصد على الإطلاق.

-وماذا بعد ذلك؟!!

باغتني سؤالها، وأربكني.

أجابت نيابة عني، قائلةً بنبرة ساخرة:

-أتيت كي تعاين المكان. وترى بعينيك مقدار الوساخة التي صرت عليها، أليس كذلك؟ وهل مازلت أستحق لقب "حرم هاشم بيه" أم لا؟!!

فوجئت بنفسي تقاطع كل هرائها :

-أنا موافق على طلبك.
بهتت من جوابي الذي لم تتوقعه مطلقا، أنا نفسي لم أتوقعه. كأني غبت ثم أفقت على صوتي يجيبها بالموافقة. ولا تفسير لديَّ سوى أني لم أعد أحتمل أن أرى ألمها وجرحها الغائر. أنا أهواها رغم كل شيء.

***

غادرت بي إلى بيتها، بعد أن ألغت باقي عروض الليلة. وقضيت الليلة أتعبد في محرابها، أشفي غليلها مني.. أترك لها فرصة للانتقام، والثأر لكرامتها المجروحة بسبب هروبي المستمر وتفلتي منها.
لوهلة، ظننت أن كل شيء بيننا قد هدأ، وأن الحرب الدائرة أخيرا قد وضعت أوزارها، وسأحيا في عالمها ملكا منفردا متوجا على عرش أنوثتها الطاغية. وسأجد الترياق المناسب كي أذيب ماضيها وأشفي ذاكرتي منه.
وحين اعتليتها، واعتليت قمة آمالي. إذا بهاتفها يرن رنينا متواصلا. لم أصدق أنها لبَّت النداء، أمسكت بالهاتف تجيب: "آلو، والله لك وحشة"..
تاركةً إياي أسقط من فوق قمتها خائبا خائرا بارد الإحساس. نهضت تاركا الفراش. التقطت بنطالي من على الأرض وارتديته. ثم خرجت إلى الشرفة وأشعلت سيجارتي. وبعد دقائق لحقت بي، بعدما أنهت الاتصال. وطوقتني من الخلف، حاولت استدراجي ثانية إلى الداخل. لكن مشاعري كانت قد بردت بالفعل، بل وسئمت منها بشدة، ولأول مرة ينتابني هذا الشعور حيالها.
وحين لم تجد مني رجاء، استسلمت وأشعلت هي الأخرى سيجارتها، أخذت منها عدة أنفاس متلاحقة ثم ألقت بها في الشارع بعصبية ثم التفتت إليَّ تقول:
-لا أفهم سبب غضبك الآن؟ هذا شغلي، ومؤكد أنك تتفهم ذلك.
-لا، أنا لا أتفهم أي شيء عدا أمرا واحدا، هو أنكِ سوف تتركين كل هذا الوحل كي نتزوج.
-قطعا لا. متى وعدتك بهذا؟
-هذا أمر بديهي، لا يحتاج إلى وعد أو تلميح.
-في عُرف من هذا الكلام؟! لن أترك شغلي.. عالمي.. دنيتي التي بنيتها.
-هذا كله مجرد وحل.. قاع.
-لكني أملكه، أنا ملكة هذا الوحل.

-إذن، أنت لا تحتاجين إلى زوج، أنت تبحثين عن..........

لم أستطع أن أنطق بالكلمة، وأسب حالي.

-ظننت أنك أتيت كي ترى هذا العالم بنفسك. حين قلت إنك موافق، حسبت أنك قبلت بهذا العالم معي.

-بالطبع لا. لا أنا ولا أي رجل حر يقبل بهذا. ومخبولة أنت إن ظننتِ العكس. أريد منك مبررا واحدا كي تستمري في هذا المستنقع؟ ولا أظن أن المال ينقصكِ.

-بالطبع لا.

-إذن، لماذا؟

-أنا لم أذهب إلى هذا الطريق من البداية بحثا عن المال. بل بدأ برغبة في الانتقام.. أنتقم منك، ومن أبي.. حتى من نفسي، ومن كل شيء حولي. لكن دون أن أدري وجدت نفسي ولذتي في هذا العالم..

قطعت كلامها فجأة، ثم أكلمت مترجية:

-هاشم، أرجوك.. حاول أن تنسى هذا العالم، تناسَ وجوده. أنا لك وملكك طوال اليوم، أذهب لشغلي بالليل، عمل كأي عمل. دعنا نجرب فترة.. قبل أن نتزوج رسميا.

-ريهام، أنت تطلبين المستحيل. هذا ضد طبيعة الرجل الحر. أنا لا أعرف كيف سأنسى أن هذا العفن هو ماضيكِ، فما بالكِ بأن يكون حاضرا معنا.. محال.

-أنت مدين لي بالكثير.

قالتها وقد تخلى صوتها عن نبرة الترجي، وتلون بنبرة العجرفة والتحدي. لكن في هذه المرة كنت قد حسمت موقفي:

إما أنا أو شغلك.-

دخلت وتبعتني. التقطت قميصي الملقى على الأريكة، وارتديته. حينها جنت، وصرخت فيَّ راجية متوسلة في انهيار:

-أرجوك، لا ترحل، أرجوك.. أحتاج إليكِ. سأموت من بعدك.

-أنتِ من اختار هذه المرة.

لم أكن أتخيل قط أن تأتي تلك اللحظة وأرى ريهام بكل عجرفتها التي تصل إلى حد السادية أحيانا، تنهار أمامي وتسقط على السجادة باكية متوسلة تتشبث ببنطالي. فوجئت برد فعلها العنيف.
لم يكن بيدي أن أعدل عن قراري. ولم أعد أحتمل الوضاعة والخسة التي وصلت لها.. ضيعتها حين تركتها لنفسها وهجرتها زمنا.. سأحمل ذنبها طوال العمر، ولا أقوى على البقاء قربها كي أكفره.
و من بين شهقات بكائها الحار، أدلت بالاعتراف:
-هذ عالمي، لا أدري كيف أكون بعيدة عنه؟!!.. ربما تستغرب حديثي، لكن تلك هي الحقيقة عارية. لكل واحد منا نقطة ضعف. وهذه هي نقطة ضعفي الوحيدة. وعزتي في الوقت ذاته. لا تسلب مني عالمي، هو مأوى، لا مكان لي بعده. إنه الهواء الذي أتنفسه.. شربة الخمر التي تسكرني، وتنسيني كل الهم. سأضيع من غيره.
سأعترف لك بكل شيء.. ما أنا فيه ليس بمرادي، غصب عني. إن بداخلي نارا وإعصارا لا يهدأ، لا يشبع.. لا يرتوي. حين يزأر بين ضلوعي، يضطرب كل كياني، يجعلني أتمايل، وأرقص وأتحايل.. أفعل أي شيء وكل شيء كي أوقع بهم. أصل لذروة النشوة لحظة ما يطيش صوابهم، ويركعون أمامي، وتحت قدميَّ حينها تهدأ عواصفي، وأشعر بالارتواء. إحساس لا أعرف كيف أصفه؟ يكفي أن أقول لك إنه النفس الذي أحيا به طيلة السنين الماضية، من أجل هذه اللحظة.. لحظة النشوة والانتصار عليهم أتحمل ساعات النهار الثقيلة فارغة المعنى تمر دون أن أفرغ طلقات مسدسي في رأسي.
أرجوك.. ابق بجواري. أنت الوحيد الذي عشقته بجد وبإخلاص. أعرف أن الوضع صعب عليك تقبله. تقبلني كما أنا.. واصبر عليَّ ولو بصورة مؤقتة، أرجوك. أنت مدين لي بهذا.
-نعم، مدين لك، لكنكِ صرتِ مريضة، عبدة لشهواتك. ميئوسا منك.
أجبتها بكل برود. وقلبي ينزف على حالها وحالي معا. ورغم أني شعرت بإجابتي سهما نفذ فيها بكل عنف، ليطعن كبريائها وعجرفتها وقلبها وكل آلام السنين في نفس الآن.. لكني لم أقو على العودة.. وتركتها صريعة تنزف بلا رحمة. عرفت أني أذبحها، وأجهز عليها بيديَّ. والآن أدعها لمصيرها، تقاسيه وحدها. وصلتْ إليَّ آخر صرخاتها وأنا أقرع الباب خلفي منصرفا:

-وأنت لست أفضل حالا منى، بل الأسوأ.
"معكِ كل الحق"، أجبتها في سري.

*****

الفصل "٢١"
الخطوة الثانية
"الجميع يتألم"

قبل خيوط الشمس الأولى.. قبل أن أسمع كلمات لسانه، كانت دقات قلبه هى الأسبق لإيقاظي، إذا بها ترتفع بالنداء وترن في أذنيَّ. وتململت كثيرا في حِضنه حين قال:

-هيا يا أميرتي، يجب أن ننطلق الآن.

لم أرغب في أن أغادره، لم أنل بعد قسطا وافرا، فأجبته ومازالت عالقة بين شباك النوم ودفء أحضانه:

-اتركني قليلا.

و شعرت بحرارة أنفاسه وهو ينحني على جبيني، ويطبع قبلة صباحية، ابتسمت لها دون أن أفتح عيوني، قائلة:

-لم أقتنع بعد.

فما كان منه إلا أن انهال على وجهي يقبل كل جزء فيه بقبلات محمومة الأنفاس، ثم همس قائلا:

-إذا لم تنهضي الآن، فستكون العواقب وخيمة.

قالها بنبرة تهديد ضاحكة. فضحكت وأنا أفتح عيني، وأستجيب ليده الممدودة كي ترفعني من على الأرض. ومع أول خيط لشروق الشمس، كنا بالفعل ننطلق بالسيارة. لم أسأله عن الوجهة، لم أحاوره في شيء، استسلمت لذراعيه اللتينِ أحاطاتَنِي بعناية، ونحن جالسان في المقاعد الخلفية للسيارة. ثم أغمضت عينيَّ لعلني أشبع من دفء حِضنه. ورحت في سُبات عميق. لم أدرِ بحالي إلا والسيارة توقفت، فتحت عينيَّ لأجد عينيه تستقبلانني بابتسامة، قائلا:

-صباح الخير.

بادلته التحية ونبرات الاستغراب تنقل كلمتي إليه، قائلة:

-هل غفوت؟!!

ضحك وهو يقول:

-نحن في الظهيرة الآن.
نهضت لأتأمل المحيط من حولي. كنا بداخل محطة بنزين على الطريق توقفنا كي نتزود بالوقود. وبالفعل قد اعتلت شمس الظهيرة كبد السماء. دعاني للإفطار في استراحة المحطة. وحين عادت السيارة إلى الطريق السريع تنهب الأرض تحت عجلاتها، لم ينتبني الفضول حول وجهتنا. التي قضينا أكثر من سبع ساعات في الطريق إليها، ولم نصل بعد. آثرت الاستمتاع بحالة السكون التي تغمرني الآن.. حالة التسليم التي أرخت أسلاك عقلى الشائكة الملتهبة بشرار الفكر. وتاهت عيناي في تفاصيل الطريق، تزور الأراضي الخضراء التي تلون جانبيه.
وبعد مرور ثلاث ساعات أخريات، أعلنت اللافتة الضخمة التي تحتل جانب الطريق أننا وصلنا إلى محافظة أُسْوان. وتوقفت السيارة بعد قليل أمام أحد مراسي البواخر الفندقية العائمة، التي تشتهر بها المحافظة.
ترجلنا من السيارة ونحن مازلنا في حالة الصمت، لكنه لم يفلتني قطٌّ من يده. كان في استقبالنا أحد موظفي العلاقات العامة في الباخرة، رحب بنا بشدة، وأولانا معاملة خاصة، وفي دقائق معدوة كنا بداخل الجناح الملكي.
و ما إن انصرف عنا الجميع، حتى غمرني في حِضنه.. اعتصرني بين ذراعيه، ومادت الأرض تحت قدميَّ. سألته:
-هل هذا حقيقي؟!!
-لا يهم.
قالها في يسر، بينما ذراعاه تزيد من ضغطها الحبيب على جسمي، وحرارة جسمه تتصاعد.. تلفني.. تزيد من دوران الأرض من حولي. حتى غرقنا في حالة اشتعال.. صهرتنا معا وأذابتني فيه، رحنا بعدها في سُبات عميق.

***

في صباح اليوم التالي.. بعد أن تناولنا الإفطار، صعدنا إلى سطح المركب كي نستمتع بالجو المشمس وعطر النيل الساحر. ومع شعاع الفجر الأول كانت الباخرة قد غادرت مرساها، وبدأت رحلتها إلى الأقْصُر. اجتاحني مزيج من الفرح والفخر الشديد وأنا أتابع حركات النزلاء من حولنا، عدد كبير من السياح بجنسياتهم المختلفة قد شكلوا الأغلبية.

مهما كنت قد سمعت من أشعار تتغزل في نيل أُسْوان وسحره، مهما حكوا لك عن منظره الخاطف وهو يتلألأ تحت ضياء الشمس، عن روائح الطيب التي تنبعث من ضفتيه، عن السكون الذي يسكن عيون أهله، عن البسمة الرائقة والضحكة الخالصة، عن.. وعن.. وألف عن غيرهم..... مهما قالوا لك عنه، فإنه لا شيء يُذكر أمام ما ستراه بنفسك حين تكون في حضرة النيل وبين شاطئيها. تشرع بفؤادك فوق صفحته، تحاكي أهله، تسمع صيحات الأطفال تنطلق من القرى الساكنة على ضفتيه تحيي العابرين وتلقي السلام على الساهرين.. إنها حالة لم تعرف الأقلام بعدُ كيف تسطرها.. !! هي حالة تعيشها وتتلبسك.

ضمني طارق وهو يقف بجواري قرب السياج، نتأمل النيل وسحره. ثم سألني:

-مبسوطة؟

-أكاد أطير من الفرحة، ما لا تعلمه أن تلك الرحلة كانت أحد أمنيات الطفولة.

-رائع، وماذا عن باقي الأمنيات؟ اعتبري نفسك وجدتِ مصباح علاء الدين، وأنا الجني. شبيك لبيك، عبدك وملك يديك.

قالها في شقاوة صبي، وهو يقلد صوت العفريت كما اعتدنا أن نشاهدها في التلفاز ونحن صغار. انطلقت ضحكاتي عالية، ثم توقفت فجأة، وسألته بنبرة جادة:

-كيف عرفت؟

-ماذا؟!!

-كيف عرفت أني صادقة، ولم آتِ لخداعك؟ أم أنك لم تتأكد من ذلك بعدُ؟

-عرفت من رائحتك.

لم أستوعب، ونظرت له في عدم فهم، فأجابني:

-للنقاء عطر مميز، ألم تسمعي من قبلُ عن رائحة الخوف؟

أومات له برأسي أن نعم، فتابع حديثه:

-في الحقيقة أنا لم أميزها في البداية إلا حين اقتربت منك بشدة ولامست بشرتك أول مرة.

شهقت من المفاجأة، وهي تقول:
-تقصد في الليلة التي حاولت الاعتداء عليَّ فيها؟
أطرق برأسه إلى الأرض، ووجهه احمر من الخجل.. وتابعت حديثي في اندهاش:
-ولهذا السبب توقفت؟!!
-بالضبط.
-إذن، ليست توسلاتي ولا دموعي هي من جعلتك تهرب ليلتها؟
-بالطبع لا. لكن رائحة البراءة التي زكمت أنفي حينها، والجمال الناعس الذي أطل من روحك ليلتها لم يدع لي مجالا للشك في أمرك. لم أكن لأفسدك أو أن أخدش اعتزازك بنفسك، مثل هذا النوع من الطهر، لا يستطيع أحد أن يمسسه بسوء أو أن يعبث به، مهما كان قد بلغ به الفساد. وإن كانت روحك الثائرة الغاضبة تثير أي رجل، عنادك يستفز الرجولة، ويرفع دوما راية التحدى، يدعو للعراك، والرجل لا يحب أن ينهزم مطلقا. خاصة من امرأة وقع في هواها. حينما يقدم للنيل منك لا يقصد بهذا كسرك ولا تقليم حريتك وإنما يريد منك أن تعترفي له بالتميز وبجدارته بك. دُرَّة، انت حالة مستعصية من النساء. نعم، هذا نوعك.
-وما أنواع النساء؟
-هناك الطيّعة اللينة، وهناك الغجرية الثائرة لمجرد الثورة.. تعبيرا عن تحطيم روحها.. لكنها خاوية بلا روح ولا جمال. أما أنت فثورتك على نفسك غضب للقيم، ولا أظن أنك أدركتِ ذلك بعدُ. ولا أظنك تعرفين قيمة ندرتك الثمينة.
-أعرف الآن معك.
قلتها ثم استطردت :
-ليتني مثلك، أجيد معرفة الناس حين أراهم.
-تعالي، سأعلمك.
-بجد؟
-ألم أقل لكِ إنى الجني؟!..
و خطف يدي كي يعود بنا إلى الطاولة على سطح المركب.

***

استهل حديثه، وقد اكتست ملامحه بالجدية والحزم كأنه معلم سيلقي درسه على تلاميذه، وقال:
-لكل امرئ منا ثلاثة أقنعة.. ثلاث حيوات نعيشها دون أن نشعر بذلك. نرتدي القناع المناسب على حسب المسرح الذي سنعتليه.. وأمام الجمهور المناسب. أولهم: حياتنا العامة أمام الناس، وفيها يرتدي المعظم القناع الأسطع.. الألمع.. بألوانه المبهرجة الخاطفة. وفي حياته الخاصة أمام الخواص.. دائرة الأمان.. الأهل والأحباب نرتدي قناعا آخر أقل كُلْفة.. أقل بهرجة أقل صخبا، أحيانا أكثر لؤما وفظاظة عن المعتاد، لكنه أريح للعقل والتفكير. وتبقى حياتنا الأخيرة حياتنا السرية، تلك التي لا يعرف عنها أحد شيئا سوانا. وفيها نتعرى من كل شيء.. نبكي عرينا.. نبكي القهر.. الألم الذي مر علينا.. السنين التي دكت عظامنا.. نبكي الحب المفقود.. والأكثر إيلاما من بكاء الماضي هو أننا نبكي حاضرنا المكبل بالخوف، ربما نتحمل ألم ما فات.. لكن قهر الحاضر وقيوده ؟!. وحين لا تحتمل النفس أن تتعرى وتواجه عريها، ترتدى القناع الأسوأ على الإطلاق "قناع الإنكار"؛ بداية الانهيار وكل الاضطرابات النفسية.
معرفة الناس هو أمر سطحي جدا.. لا يتخطى حاجز رؤية لون قناعه الصاخب الذي يصدره على مسرح الدنيا. لكنه لا يخبرنا شيئا عن الحقيقة، لا يبرز جمالهم الروحى، قناع ضحل، تكثر فيه الأصباغ الصناعية ويقل معه كل شيء طبيعي وعميق.
-أريد أن أرى الناس.. أن أنفذ إلى عالمهم الخاص، وليس فقط أن أقف على سطحهم.
-هذا فن، له قواعده الخاصة وخطواته، و ثمن باهظ ندفعه أيضًا. لكن ندفعه مؤخرا حين نجيده عن جدارة.
-وكيف أبدأ؟
-ألن تسألي في البداية عن الثمن؟!!
-لا، لن يفرق معي، ولن يغير في قراري.
-تلك هي فتاتى المستعصية، كنت متأكدا من إجابتك.
- إذن فلنبدأ.. الخطوة الثانية هي...
-وماذا عن الأولى؟!!

-أنسيت بهذه السرعة، أنتِ العالم.. أنت دُرَّة الخالق وأعجوبته هي خطوتك الأولى. محال أن تنسيها بعد ذلك، فهي على اسمك هه هه لا تهدري ذاتك ولاحياتك بأن تعيشي حياة لا تشبهك.
-أعدك، لن أنساها مطلقا.
-الخطوة الثانية الجميع يتألم، ليس هناك بشر خلق دون ألم، الجميع قلوبهم مثقلة بالآلام.. عرفوا ذلك أم أنكروا الأمر. أخفوه أم أعلنوا عن وجوده، وصرخوا في وجه المحن. تلك حقيقة كونية مسلم بها.. كل ما عليك فعله هو أن تعرفي أين موطن الألم الحقيقي، كي تنفدي إلى روح الآخر؟
اعتلت نظرات الاستغراب وتربعت على ملامح وجهي، وأظنه حين لمحها سكت عن الحديث، وابتسم كأي معلم حاذق يدرك جيدا ما يختبره تلميذه الآن، ويعتمل في نفسه..
-أعرف أنك تشعرين بأن الأمر شاق. لكن أنت تملكين قلبا نقيا؛ لذا فكل ما تحتاجين إليه هو الصبر، وكثير من التمرين. يجوز أنها أصعب قاعدة فيهم أثناء التطبيق، لكنها مفتاح للباقين. وكي تتقني تلك الخطوة، عليكِ بأربعة أمور: الصمت، كفي عن التفكير في نفسك وكأنك محور الكون، ثم استمعي للآخر جيدا، ماذا يقول؟ وماذا أخفي من الحديث؟ ولا تسمعي فقط إلى الكلمات بل شاهدي كيف يقولها.. لغة جسده. والأمر الرابع.. ثقي دوما في إحساسك الداخلي "حاستك السادسة". حينها سترين ألمه.. وذاته الحقيقية.
أنهى حديثه، ثم استدار كي يلقى بنظرة خاطفة على الزوجين اللذين جلسا على الطاولة المجاورة، ثم قال، وهو يومئ برأسه تجاههم :
-هيا إلى التطبيق. سنبدأ بهما. وتلك هي أصعب حالة، أن تحاولي رؤية شخص لا تعرفينه مسبقا. ومع ذلك يمكنك أن تخمني ألمه؟
عند تلك النقطة فتحت فاها من الدهشة، قائلة:
-أي ألم بالضبط؟!!!.. مظهرهما كأي زوجين عاديين، وربما يكونان في شهر العسل أيضًا؛ لأنهما سعيدان ويبتسمان طوال الوقت.
فضحك من كلامى ضحكة ساخرة وبصوت عالٍ، وعاد يكرر على مسامعى القاعدة الثانية الجميع يتألم. ثم أضاف:

-سأضرب لك مثالا بقصتهما: أولا هما ليسا في شهر العسل كما تقولين، وليسا كذلك سعداء كما تدعين.. لو تابعتِ المرأة، سترين أنها تحرك دبلة الزواج دوما في إصبعها في حركة عصبية دائمة. ولو كانت عروسة جديدة لكانت الدبلة سقطت من يدها بسهولة شديدة. لكن الدبلة لا تسقط بسبب أن المرأة اكتسبت بعض الوزن الزائد بعد الزواج. لذا الدبلة تبدو محشورة في إصبعها. تمام؟

سألني حتى يطمئن أنني أتابعه، فهززت له رأسي بالإيجاب والموافقة على النقطة السابقة. وأسترد حديثه يقول:

-ثانيا: المرأة مصابة بالاكتئاب على إثر خسارة طفلها. والأغلب أنهما هنا في أجازة استشفاء، يحاول فيها الزوج أن يريح أعصابها، ويستعيد علاقته معها.

-كيف عرفت أنها مصابة بالاكتئاب وأنها فقدت طفلها؟ هل سمعتهما يتحدثان في الأمر؟

-لا. الأمر بسيط. مصابة بالاكتئاب؛ لأن بعد الإفطار مباشرة رأيتها تأخذ حبة دواء، ولمحت اسمه حين وضعته على الطاولة أمامها.. "بروزاك" واحد من أشهر الأدوية لمعالجة الاكتئاب في العالم. أما عن فقدان الطفل، فهذا لوجود جرح حديث أسفل البطن يشير إلى موضع العملية القيصرية. لا أحد يخطىء الشكل المميز لهذا الجرح المميز. تحققت منه حين كانت..............

قطعت عبارته، وأكملتها بدلاً عنه في غيظ:

-ممددة على شيزلونج حمام السباحة، مفهوم يا فندم. تلك النقطة بالأخص أخذت بالي منها.

تابع حديثه، وهو يكتم ضحكته:

-ستجدين أنها لم تنزل إلى حمام السباحة رغم دعوات زوجها المستميتة كي تفعل. لكنَّها رفضت بحجة قراءة كتاب هام، لكنها في حقيقة الأمر لم تفتح الكتاب، وبقيت تراقب الأطفال الذين يلهون في الماء. إذا كانت أما حديثة، فهي لن تترك الرضيع. ولن تشتاق للأطفال لتلك الدرجة. وفي الوقت ذاته أبقت الكتاب، المرجع الضخم موضوعا على بطنها، وعادة يفعل ذلك من يعاني من الوحدة ومن الاحتياج إلى الحنان والعاطفة، ويضع أشياء على بطنه ويحتضن الوسادة ليلا.

-وماذا عن زوجها؟

فاستطرد حديثه، قائلا:
-رجل اجتماعي مرح محب للحياة والبساطة، أرجح أنه يحبها بشدة لكنه عاجز عن التعبير عن حقيقة مشاعره، والأصعب عليه شعوره بالعجز عن سعادتها. أظن هذا الشعور كافٍ لتعذيبه وقتله ببطء، خاصة أنه من النمط مرهف الإحساس. وربما لن يحتمل الوضع أكثر من ذلك. ويضطران إلى الانفصال. وهذه هي محاولتهما الأخيرة.
-و هل هذا عذر كافٍ للطلاق، أن زوجته تتألم؟!
-ليس لأنها تتألم، بل لأنه عاجز عن تخفيف هذا الألم عنها، عاجز عن إسعادها وهو يحبها. الرجال لا تحتمل هذا الشعور.
-و كيف تأكدت من حبه لها؟
-حينما نزل كي يسبح في حمام السباحة. تعرف إلى العديد من النساء، يشاركونه السباحة والمرح. لكنه كان يختلس النظرات طوال الوقت إلى زوجته. ليس بعين المذنب الذي يخشى العقاب بل بعين الحبيب الملهوف الذي يتفقد حبيبه. وفور أن تركت الكرسي حتى ترك كل شيء وصعد كي يلحق بها.
أنهى روايته عن الزوجين. ونظرة الظفر تملأ وجهه. ابتسمت له وأنا أصفق ثم وقفت كي أنحني أمامه، وأردفت :
-فعلا، تستحق الإعجاب الشديد، لم أكن أتوقع ذلك منك.
ثم حانت مني لحظة صمت قبل أن أضيف:
-هذا إن صح كل ما قد خمنت.
ضحك من تعليقي، وضحكت معه. ثم تابعت قائلة:
-أدهشتنى كثيرا، الآن سأختار لك واحدا آخر بنفسي. أظن أن أمر الزوجين كان هينا سهلا. ما رأيك في هذا العجوز الجالس هناك ضمن الفوج الألماني؟.
قلت عبارتي السابقة، وأنا أشير إلى عجوز يتصدر الطاولة المقابلة لنا، وسط فوج السياح الألماني. ورمقه طارق بنظرات تحدٍ طفولية مفتعلة..
-حسنا، موافق، لكن بعد عودتي من الحمام. سأعود في التو.
وافق على التحدي، ونهض منصرفا إلى الجناح بعد أن طبع قبلة خاطفة على جبيني.

عاد سريعا. لكنه توقف فجأة وهو يقترب من طاولتنا، كي يخرج سيجارا من العلبة. وراقبته يتقدم إلى الرجل العجوز طالبا منه الولاعة بعدما تظاهر بضياعها وهو يفتش في جيوبه. استجاب لطلبه في آلية و ناوله إياها من على الطاولة، دون أي كلام أو بادرة تغير في تعبيرات وجهه. ورأيت طارق يومئ برأسه في احترام ويغمغم ببعض الكلمات.
ابتسم في خبث وهو يقترب من طاولتنا. وحينما جلس سألني:
-مستعدة للانبهار؟!!
-هيا، ابدأ سريعا.
-رجل جاد جدا، يأتي العمل في مقدمة أولوياته في الحياة، كان يشغل منصبا إداريا رفيع المستوى في شركة بورش لتصنيع السيارات. رغم أنه على المعاش حاليا لكنه ما يزال لم ينفصل نفسيا عن العمل. هذا النمط عادة ما يعتبر أن البعد عن العمل موت. الأغلب أن أصدقاءه هم من أقنعوه كي يأتي معهم في هذه الرحلة، ليسترخي قليلا ويتعافى من صدمة الانفصال عن العمل. هكذا يظن الجميع حتى هو نفسه أنه مشتاق إلى العودة إليه. لكن الحقيقة أنه يحاول الهروب من فشله في تكوين عائلة. هذا موضع ألمه الحقيقى، وندمه الشديد.
-فسر ما قلت، أيها البروفيسور.
-لقد لاحظت الولاعة الباهظة من النظرة الأولى، استغربت وجودها في البداية؛ لأني متأكد أنه غير مدخن، وعلى الرغم من ذلك لم تفارقه في المطعم وهنا، وقد وضعها أمامه على الطاولة. ولم يستخدمها أصدقاؤه الذين كانوا يدخنون طوال الوقت. فعدت إلى الغرفة كي أحضر السيجار. وحين طلبت منه الولاعة، تردد لوهلة قبل أن يعطيها لي، دليلا على أهميتها البالغة وارتباطه الشديد بها. وحين لاحظت ماركة بورش محفورة عليها ومذيلة بإمضاء. أدركت أنها في الأغلب هدية تلقاها من رئيسه في العمل، حينما خرج على المعاش.
-ولماذا ليست هدية من زملائه؟

لن يوقع زملاؤه على الولاعة. لكن المدير يفعل؛ لأنه أعلى في السلطة، وإمضاؤه سيضيف معنى جوهريا لقيمة الولاعة، كرمز للإشادة به، واعترافا بجهده وتميزه. أما لو كان التوقيع من زميل مساوٍ له في الدرجة فلن يرتبط بها لهذا الحد، فبين الزملاء لا يخلو الجو من وجود مشاحنات ومشاعر التحدي والمنافسة.

أومأت له برأسي مسحورة بقوله ودقة التفاصيل التي يسردها. أعترف أنه يمتلك قدرة مدهشة على الملاحظة وقراءة المشهد وربط تفاصيله ببراعة مقنعة.

و تابع حديثه، قائلا:

-لم يكن بيده دبلة زواج ولا حتى آثر للخاتم كدليل أنه حاليا ليس متزوجا، ولم يفعل في الماضي القريب. فإذا كان متزوجا لفترة طويلة من حياته وتوفيت عنه زوجته مثلا، كان على الأرجح لن يخلع الدبلة من إصبعه تقديسا للعلاقة الطويلة وكذلك العادة، هذا النمط الجاد يعشق العادات ويلتزم بها. الذي أكد لى أنه يعاني بسبب حياته الأسرية كذلك، هو أنه يعاني حالة قولون عصبي مزمن. معدته منتفخة بالغازات وتوشك على الانفجار، حتى إنه لم يستطع أن يتمالك نفسه أمام غريب مثلي، وأطلق ريحا كريهة الرائحة بينما كنت أتحدث إليه.

-و القولون العصبي دليلا على........

سألته..

-على تراكم مشاعر نفسية سلبية، والميل إلى الانعزالية والافتقار إلى السعادة والعلاقات الناجحة مع الناس.

-و ربما مشاكل العمل وضغوطه كانت سبب المرض المزمن؟

-هذا خطأ شائع، القولون عادة ما يفصح عن حالة العواطف لدينا، وبالتالي المشاكل العاطفية، وتراكم المشاعر السلبية، الإحساس بالدونية أمام الآخرين، والإحباطات في علاقاتنا معهم، الخلاصة المشاعر هي السبب الرئيس في صحة القولون من مرضه.

شهقت في انبهار شديد به.

-لاحظي الكتاب الذي يقرأ فيه معظم الوقت، عن استراتيجيات العمل في الإدارة الحديثة. هذا رجل كل سلواه في عمله.. هو مصدر سعادته الوحيد. وأظن أنه يفكر جديا في البحث عن عمل آخر. في الوقت الذي يبذل أصدقاؤه قصارى جهدهم في دفعه نحو الارتباط العاطفي. هل أخذتِ بالك من السيدة التي تجلس في الكرسى المقابل له، تختلس النظر إليه في حب وتقدير، وهو يتجاهل نظراتها، ولا يعيرها أى اهتمام. إذن ألمه الحقيقى مصدره هو علاقته الأسرية سواء كانت مضطربة بشدة أو منعدمة كلية.

صفقت له تصفيقا حارا.

****

قضينا أسبوعين على ظهر الباخرة السياحية، وهي تنطلق في رحلات متواصلة ذهابا وإيابا بين أُسْوان والأقْصُر. وفي كل مرة تستقبل فوجا سياحيا جديدا، أمتع أسبوعين مرا عليَّ في حياتي. رأيت الناس فيهما كما لم أرَهم من قبل..

عالم بجنسيات متعددة من قارات مختلفة، يختلفون عن بعضهم البعض في كل شيء تقريبا؛ اللون، واللغة والعادات والفكر. لكن تتشابه قلوب الجميع، ويوحدهم الألم.

الجيمع يتألم.. تلك كانت خطوته الثانية.

*****

الفصل "٢٢"
"هل أخطأت؟"

ساد الهرج والمرج في أرجاء المؤسسة، ترك الموظفون أعمالهم، وتلصصوا خلف الأبواب الزجاجية، يحاولون اختلاس النظر للأروقة، للتأكد من حقيقة الإشاعة التي شاعت في الأجواء منذ لحظات معدودة. شكرية هانم بنفسها في المؤسسة، وهي في طريقها الآن لمكتبها. كان من الطبيعي أن يساور الجميع الدهشة بل والترقب المشبوب بالخوف في الآن نفسه حيال الخبر. فتلك هي المرة الأولى التي تطأ قدماها المؤسسة منذ عدة أعوام مضت، حين أعلنت للجميع في الحفل السنوى أن الأستاذ خالد محاميها هو مستشار عام المجموعة ويدها اليمنى- سيتولى تسيير الأعمال لحين عودة ابنها طارق الوريث الشرعى كي يتولى قيادة مؤسساته قريبا جدا. وحتى هذا الحين المستشار خالد هو رجلها الأول هنا، وستكتفي بمباشرة الأعمال من القصر نظرا لاعتلال صحتها. ومضت الأيام والأسابيع، وكرت أعواما بعد ذلك، ولم يظهر أي أثر لطارق، ولم يسمع عنه أحد خبرا. لم يكن أمامها بُدٌّ من فعل ذلك عقب ما اتجه طارق إلى مؤسسته الخيرية، وصارت وحدها لا تستطيع الصمود، وكانت تأمل أن يثير هذا الوضع حفيظته ويسرع كي يأخذ بزمام الأمور. لكن لا شيء قد بدر منه. وسلم الجميع بأن المستشار خالد هو القائد الفعلي للمجموعة لحين صدور إشعار آخر.

ولم يلبث أن سرت إشاعة وأقاويل حول حدوث مصاهرة بين العائلتين قريبا. وحين وصلت تلك الشائعات إلى شكرية هانم، لم تكن تملك ذرة شك واحدة في أن خالد نفسه هو المصدر. لازمت الصمت حيال الأمر، فلقد شغل الموضوع نفسه فكرها منذ فترة، ورأت أنه المخرج الأمثل للنجاة من تلك المعضلة التي أوقعها فيها ابنها. للأسف لم يرث من أمه شيئا عدا جمالها، عدا ذلك هو في نظرها مجرد عود أخضر طري، لا يمكن الاعتماد عليه في إدارة إمبراطورية كتلك التي ورثها عن أجداده ودفعت أمه عمرها كله في توطيدها ومضاعفة أعمالها، رغم أن الجميع كان يجزم بأنها ستفشل، وترقبوا على أحر من جمر ذلك اليوم العظيم يوم الانهيار الأكبر، حينما تسقط الإمبراطورة ويتقاسم الرعاع الأنصبة.

واتتها الضربة القاصمة من حيث لا تدري. لم تكن لتتخيلَ قطٌّ أن يأتي اليوم الذي لا تجد لها وريثا قادرا على قيادة هذا المجد ومواصلة نجاحاته. لم تكن تحسب لذلك الأمر أي حسبان، في أحسن تقدير لها بعينها الخبيرة لو بدأ اليوم طارق في تولي إدارة الأعمال بينما هي على وجه البسيطة، فربما يصبح قادرا على تزعم المشهد بعد ثلاث سنوات في أكثر التقديرات تفاؤلا. فما بالها وهو يرفض أن يبدأ هذا المران الشاق؟!!. غضبها الشديد من طارق يرجع إلى أنه لم يعِ بعد الدرس الأول في عالم الأعمال.

***

فور أن سمع المستشار خالد بالزيارة المفاجئة، حتى طار إلى مكتبها الذي يحتل دورا خاصا منعزلا في الطابق الأخير بالمبنى الإدارى، لم يستطع أن يتمالك خالد نفسه حتى تستدعيه- كما هو متوقع منها- وأسرع بالاتجاه إليها. ذهل حين منعه مدير مكتبها من الدخول، وتركه ينتظر بالخارج أكثر من ساعة وَفْقا لتعليمات الهانم.

و حين أُذن له بالدخول، لم يستطع أن يخفي دهشته لرؤية المدير المالي معها منفردا في اجتماع مغلق. ولمح بطرف عينيه أكوام الملفات المكدسة على منضدة الاجتماعات.

و حين ألقى خالد تحية متكلفة لزجة، لا تتماشى مع شخصيته الجادة الحازمة، فخرج تملقا ماسخا مبتذلا. تجاهلته تماما الهانم، وكذلك المدير المالي الذي أشارت له بالانصراف في الحال.

و عادت إلى مراجعة التقارير المالية للأعوام السابقة، لساعة أخرى؛ يراقبها خلالها خالد، وأعصابه تحترق.. حاول أن يشرع في الحديث معها، لكنها كانت تتجاهل وجوده تماما.

و بعد مرور الساعة، صدمته الهانم بتعليقها:

-أنت تسرقيننى ومازالت أنفاسي في الدنيا، إذن ماذا ستفعلين حين أموت؟

لوهلة كاد أن يصرخ منفعلا في وجهها، رافضا لتلك الإهانة والاتهام الخطير. لكنه أمسك لسانه وسكت في اللحظة المناسبة.

ثم اعتدل في جلسته وأشعل سيجارة على مهل وفي تؤدة، وبعد أن أخذ عدة أنفاس منها، نظر إلى عيني العجوز مباشرة، قائلا في ثقة:

-سيصبح كل شيء ملكا شرعيا لي.

فوجئت بالرد، لقد حضرت بنفسها طيلة أيام ماضية لتلك المواجهة، خمنت كل الردود الممكنة، وجهزت كل ردود الأفعال المناسبة. لكن تلك الإجابة، هذ الاعتراف الصريح كان آخر شيء يخطر لها على بال. وعقبت بعد فترة صمت:
-إذن أنت تعترف بالسرقة؟!
-هل هناك أحد يتهم بسرقة ماله!!!
رد ماكر خبيث، خرج في تلقائية منه وهو يسحب آخر نفس من سيجارته، ويطلق دخانها في الهواء. يتلذذ بمشاهدة العجوز الداهية غارقة في حيرتها، تبحث عن لسانها. لقد صفعتها ردوده وجرأته غير المتوقعة منه الآن. وحارت في أمره لماذا كشف عن أوراقه في ذلك الوقت تحديدا؟ وإلى أى مدى قد ضرب بأوتاده في أرضها.. وفي إمبراطورية مجدها؟!!
ثم استرد أنفاسه، وأضاف مخففا وطأة عباراته.
-أقصد مال أحفادى.
قالها وهو يميل بجسمه إلى الأمام تجاه المكتب، كمن أراد ألا يسمع أحد عبارته التالية لها، وتابع يقول:
-في المستقبل القريب جدا، أليس كذلك؟
نزل سؤاله عليها كصاعقة، أيقنت معه أنه أدهى وأمكر مما تصورت. بتلك الحيلة نجح في صرف الانتباه تماما عن تهمته المثبوتة قطعيا. ولم يحاول الدفاع بل هاجم، وهاجم بشراسة كذلك. وهو يعلم يقينا أن التوقيت الحالي في مصلحته إنما لاحقا لا يضمن كيف ستدور الدوائر؟. ودون أن يقصد بذر بذور الشك في قلب الهانم تجاهه والتخوف من أن طموحه قابل للتطرف، وأقرب للجشع. وحين يستشري هذا الداء به سيغدر بالجميع ويبتلع السفينة بمفرده. وساورتها الشكوك بأنه ليس هذا العراب المنتظر الذي يؤتمن على المؤسسة وعلى ابنها ذاته كما تمنت.
أسندت ظهرها إلى الكرسي، واعتدلت في جلستها كي تصبح أكثر راحة لجسدها المنهك. ودارت الطواحين برأسها بين غضبها الناري من اختلاساته المالية المدمغة وتهوره في التعامل مع الموردين والعملاء، حيث استبعاد ممنهج للموردين القدامى كافة، والذين حظوا بسابقة أعمال مشرفة مع المؤسسة، وملمون بكافة معايير جودة العمل التي تحرص عليها الهانم.

وفجأة يخسرون مناقصات التوريدات التي يتم الإعلان عنها. وترسو جميعها على شركتين مبهمتي الأصل حديثتي النشأة. لا شك عندها أنهما تابعان له، يريد فرض سيطرته المطلقة على جميع الأمور وفي وقت قياسي. حسبته أذكى من ذلك، سيتروى، ويعرف كيف ينتقي خطواته بعناية فائقة. رائحة الجشع تكاد تزكم أنفاسها بل صار عسيرا عليها ألا تجزم بأن هناك تلاعبا أعمق من ذلك بكثير يدور في الخفاء؟

أن يسرق فهذا أمر مقبول بل ومتوقع منه، لكن أن يكون جشعا غبيا فهذا سيؤدي بالجميع إلى التهلكة. فالجشع ذنب محتمل لكن الغباء؛ تلك كبيرة لا تغتفر.

" أكاد أسمع خطوات الكارثة تقترب أكثر فأكثر.. إلى أي مصير معتم سوف يقودنا غباؤك إليه؟".

حدثت الهانم نفسها بذلك. ثم غمغمت بصوت خفيض غير مسموع:

"سترك يارب".

آثرت في الفترة الراهنة ألا تثير جلبة وتهدئ الأمور معه، حتى تستطيع التفكير على مهل وبتؤدة في الخطوة القادمة.

قالت له في هدوء شديد:

-إذن أنت تعتبر أن مشروع المصاهرة بيننا يعطي لك الحق في اختلاس المال؟

-بالطبع لا. إن ما فعلته يصب تماما في مصلحة الشركة. أنا أخلق لنا شركات مكملة تلك التي نحتاج إليها دوما كي تخدِّم على أعمالنا، لماذا يذهب ربح للآخرين في حين أننا يمكننا الاستفادة من كل شيء لأنفسنا.

-إذن تلك الشركات تتبع المؤسسة الأم.

-في الخفاء نعم، أما في العلن فلا. حتى لا نُتهم بالاحتكار ونشعر باقي المنافسين بالتهديد الشديد حيال أعمالهم. من الرائع أن نجعل بعض أنشطتنا في الخفاء حتى لا يعلم المنافسون حجمنا الفعلي. هذه وجهة نظري..

أنهى حججه، وهو يستريح في المقعد. ويضع ساقا فوق ساق يملؤه الزهو وشعور الانتصار. تظاهرت الهانم بالاقتناع حتى تعزز هذا الزهو بداخله فيطمئن حيالها. وتمهل حالها فرصة لتدبير الأوضاع.

و حين ساد الصمت بينهما لفترة طويلة. استطرد في الحديث قائلا:

-متى سنفرح بالعروسين؟

أجابته في هدوء:
-نحن على اتفاقنا، بعد ٧ شهور من الآن. تكون المدة التي طلبها طارق كي يجهز نفسه قد انتهت. وبعدها نتمم الاتفاق ويتقدم رسميا للزواج من شاهيناز.
-تمام، لكن لا أخفي عليك قلقي من علاقته المتهورة مع البنت.. لا أذكر حتى اسمها.
-تقصد دُرَّة؟
-دُرَّة، أقنعتني أنها نزوة يحتاج إليها كي تحرك الحياة بداخله. مع الاحترام لحضرتك، لكن هذه تبريرات وتخاريف لا تقنع أحدا عاقلا. ومع ذلك قبلت بنزوته نزولا على رغبتك. لكني أخشى كثيرا من أن العواقب ستكون وخيمة على جميع الأطراف. أنا هنا أرهن كل جهد السنين وعمري وحياة ابنتي الوحيدة كذلك، وأعلقها بنتيجة تلك اللعبة السخفية.
- نحن لا نخل باتفاقنا مطلقا. وأظن أنك تعرفني جيدا، كلمتي كالسيف على رقبة الجميع. ونحن لا ننتظر أي نتائج.. النتيجة محسومة قبل البَدء والجميع يلعب وَفْقا لتلك الشروط.
- وأنا واثق من سيطرتك على الأوضاع. لكن لا أثق في ردود فعل طارق. خاصة أنه لم يتغير قِيدَ أُنْمُلة تجاه ابنتي، ولم يتخذ أي باردة تجاهها، والمفروض أنهما سيتزوجان بعد شهور معدودة. بل نسمع أنه غارق في العسل مع تلك المخبولة إياها.
- هذا جزء من اتفاقنا السابق، المتوقع.. إذن لا داعي للقلق. وسبق وشرحت لك وجهة نظري، دُرَّة هي أملنا الوحيد في استعادة طارق كإنسان، لولا ظهورها في حياته في ذلك التوقيت المثالي لكان تَمَكَّنَ منه الاكتئاب مرة أخرى. ولا نعرف حينها ماذا كان سيصبح مصيره، ومصيرنا كلنا معه!!. لا تجبرني على إعادة شرح الموقف وإعادة آراء الأطباء النفسيين على مسامعك. ابني كان يتفلت من بين أصابعى.. المسألة ليست أنه يرفض تسلم إرثه وإدارة أملاكه، بل المعنى الأخطر من وراء ذلك أنه يرفض الحياة ذاتها. وأنت تعلم كل هذا جيدا. هذه حيلتنا الأخيرة. ولا داعي لأن أذكرك بأن شاهيناز كان يُتوقع منها أن تلعب هذا الدور معه، لكنها فشلت في ذلك. وليس لأحد حق في الاعتراض.

على الرغم من أنها قد بدت صارمة واثقة مما تقول ومن قدرتها على إتمام اتفاقهم المسبق. فإن الشك بدأ يساروها حيال كل شيء. ولأول مرة بدأت تقلق بشدة وتعاتب نفسها.

" هل أخطأت حين ورطت طارق في الاتفاقين؟ "..

لم يكن هناك بديل أمامي. أرى ابنى يوشك على السقوط في براثن الاكتئاب الموحش، ربما بعدها يرتد عائدا بالتبعية إلى عالم الإدمان. خشيت أن تكون تلك المرة هى القاضية. ماذا كنت أفعل وأنا أرى وحيدي يذبل أمام عيني وينطفيء تدريجيا؟!! ربما أفلحت المؤسسة الخيرية في احتوائه وشغله بعض الوقت، لكن سرعان ما انطفأت حلاوتها، وخمدت زهوتها بعدما استتبت الأوضاع فيها. وعاد يفقد الدافع إلى الحياة.

إنه أمر متوارث يسري في رجال تلك العائلة، ربما لعنة ألقيت عليهم منذ سالف الزمن. في البداية لم أكن أستوعب كيف لرجل مثل الباشا يملك كل شيء، ومع ذلك يرفض الزواج قطعيا بل ويرفض الاقتراب من النساء ؟ عندما عايشته وأنا موظفة متواضعة في مكتبه عرفت أنه لا يدعي، بل بالفعل هو زاهد غير مقبل على الحياة. تشعر كأنه آلة صماء، مبرمجة مسبقا على التصرف والتحدث بطريقة مرسومة لها. يحيا فقط؛ لأنه مقدر له الحياة. وعرفت أن أباه كان كذلك أيضًا. وأنجبه في سن كبيرة حينما شعر بدنو الأجل وأراد له وريثا. لكن الفرق الوحيد بين طارق وأبيه. أن أباه كان يدرك أنه لا يملك إرثه، إنما إرثه هو الذي يملكه. رضي بقدره، وعاش حياته، وبنى سعادته الخاصة في الحفاظ على هذا الإرث، وصون اسم العائلة.

هكذا كان معظم حياته قبلي..

و أنا من اقتحمت حياته. ووضعت خطة محكمة كي أوقع به في حبائلي.. كي أنفض غبار الحياة من على روحه وأشعل فيه نار الدنيا.

أظن أن تلك هي وظيفة حواء ومهمتها الأولى في الحياة.

و الرجال أصناف، هناك أصحاب الاشتعال الذاتي. وهناك الهائمون السارحون بعيدا عن الدنيا. هذا الصنف الأخير يحتاج إلينا.. كي نعيده إلى الدنيا على نور شعلة هادية. وفي منتصف المسافة بين النوعين، يوجد النوع الطيني.. معتم الروح، رازحا في قاع الدنيا، يدمنها ويمقتها في الوقت نفسه.

دُرَّة، من النظرة الأولى، أدركت أنها هي المنشودة. وأظنها أفلحت في ذلك حتى الآن..
هي المقبلات.. فاتح الشهية لوجبة الحياة..
و أما عن الاتفاق الثاني، مع خالد. هل كان أمامي مخرج آخر؟
أشك تماما في ذلك. أمام ضعفك واضطرابك يا طارق، أمام عنادك، ورفضك للانصياع للدرس الأول في الأعمال- لم تترك لي حلا آخر.
"المال هو الذي يملكك، لا أنت مالكه. وأن الغرباء لن يكنزوه لك".

***

قطع حبل تفكير الهانم جرس الهاتف يدق. هاشم مجدي، مدير مكتب خدمة العملاء بالمؤسسة لديها يستئذن للدخول. أذنت له في عُجالة، فظنت أنه ربما على تواصل مع دُرَّة ويحمل أنباء جديدة منها. حين دخل وحياها. قاطعته في نفاد صبر، قائلة:
-هل لديك أي جديد؟
-لا شيء، يا شكرية هانم. بل أردت الاطمئنان منك على دُرَّة وأحوالها.
أتى جوابه مخيبا للآمال. وردت عليه في اقتضاب قائلة:
إنها بخير، وأظنها سعيدة. -
-وماذا عن طارق باشا؟
-وهو أيضا مبسوط بوجودها معه.
-أي أفلحت الخطة.
أرجو ذلك، لماذا تسأل أَ تريد باقي أتعابك الآن؟
لا، لم يعد يهمني الأمر.
حدقت إليه بنظرات الدهشة، واستغربت كثيرا عينيه. تلك التي لا تشبه على الاطلاق عيونه العابثة الانتهازية، وكأن شيئا ما بداخله قد تغير. لا يبدو أنه نفس الرجل اللعوب المشهور ب " زير النساء". هذا الذي استدعته لمكتبها، وطلبت منه البحث عن امرأة ترافق ابنها لفترة من الوقت. وحين عاد يقص عليها حكاية دُرَّة، ويرشحها بقوة، اقتنعت الهانم بأنها هي ضالتها.. وفتاتها المنشودة.. المرأة التي ستشاكس روح ابنها. وعدلت عن فكرة الفتاة اللعوب، بعدما أقنعها هاشم بأنها ستبوء بالفشل الذريع. بل وسيكون للباشا الصغير رد عنيف، لن تحمد عواقبه.

وحين لمعت عيناه بسؤالٍ، فهمته الهانم في التو. وأدركت معه سر زيارته الحقيقي. إنه يتشارك معها في التخوف نفسه الذي لا يجرؤ أحد على البوح به علنا:

"و ماذا بعد؟ "

"أتراهما سيلتزمان بالاتفاق حتى النهاية؟!!"

و رغم احتياج كليهما إلى البوح، وإلى كلمات تسكن الخوف بداخلهما ولو كذبا. إلا فإنهما في تلك اللحظة الراهنة آثرا الصمت. وغادر هاشم سريعا قبل أن يفلت لسان أحد بكلمة، يدق بها ناقوس الخطر.

*****

الفصل "٢٣"
الخطوة الثالثة "٣"
"الجميع نواياه طيبة"

إن أردت أن ترى الناس، ونقاء الجوهر، كل ما عليك فعله هو قطع تذكرة القطار المتجه إلى أُسْوان. ومنها أبحر مع تلك القلوب الحائرة التي قصدت تلك الواحة خصيصا من كل بقاع العالم كي تلقي بأحزانها في أحضان النيل الرحب. كي تستمد منه النقاء والنور. لا مكان آخر في العالم يشبهها. لأُسْوان طابع خاص مميز بها، إنها بلد تغريك بالحياة، راقصة بالمحبة، نابضة بالدفء، لناسها طابع خاص.. لجمال قلوبهم، وحلاوة بسمتهم طعم الشفاء..

بعد أن قضينا أسبوعين على متن الباخرة نبحر معها ذهابا وإيابا. استقر بنا المقام في جزيرة منعزلة، واحدة من جزر أُسْوان فائقة الجمال، هناك بعيدا عن أعين الناس، شُيِّد عليها فندق خاص. حين أطل من شرفة الجناح أرى على مرمى البصر حديقة النباتات، واحدة من أقدم الحدائق بالعالم وأندرها، تشغل جزيرة بأكلمها، وتمتد على مساحة ١٧ فدانا، وتضم أكثر من ٦٩٠ نوعا مختلفا من النباتات من أنحاء العالم. وهي أحد أشهر المزارت السياحية التي يقصدها الداني والقاصي كي يستنشق جمالها الباهر. حين قصدتها الملكة إليزبيث شهدت بروعتها الساحرة.

هناك..

لم يملك أحدنا نفسه أمام الآخر، تجرد كلانا تماما. وخلع طارق عنه عباءات الغموض وطبقات الإبهام، ليهمس لي في ساعة صفا، قائلا: "لماذا تأخرتِ عني كل هذا الوقت؟". أردت لحظتها لو أمتزجُ بأنفاسه، وأنعجن بأجزائه كي لا نفترق بعد الآن..

و انتبهت لما يجول بخواطري، وانتفضت من حِضنه فجأة. أسرعت كي أنفرد بنفسي، استغربني واستفهم عن الأمر. أجبته بابتسامة باهتة:

شأن من شئون النساء.

وحين انفردت بحالي. سألت نفسي:

"أليس هو حالتي المؤقتة تلك التي اكتشفها العالم من خلالها؟

أقرأ بعينيه ملامح الدنيا.. إنه يهديني أغلى ما في الحياة.. "خريطتها"..
مفتاح اللغز الذي يفك شفرة الدنيا. علمٌ من يجيده، يجد كل شيء آخر قد تمناه. إذن، ماذا تغير بداخلي الآن؟!! أشعر معه بإحساس مختلف. كيف أصبح عالمي الواقعي، لا، وحتى الافتراضي. عقدنا من البداية؟!!
لأول مرة يتسرب إلى قلبي خوف حقيقي، وأنا معه، يجعلني أتوقف وأسأل ماذا بعد عامنا؟ أين سنكون؟ " يا الله، هل معنى خوفي وسؤالي هذا أني بالفعل... " وأمسكت عن الكلمة، خشيت الاعتراف بها لنفسي.
ربما لأنه الأول؟ ربما لأنه غمرني، جعلني طفلته، أطوف في ملاهيه، وعيني ذاهلة ترقص مندهشة من فرط الانبهار؟!!..
لا، كاذبة أنا. هذه ليست حالة الحب الأول أو لحظات الانبهار التي تخبو بعد ذلك سريعا. بل هي حالة عشق مستعصية. ليس لأنه الأول، بل لأني طفلته. معه لا أخشى شيئا. لم أفهم حتى الآن كيف أغواني؟ كيف احتواني؟ كيف جعلني عارية أتحمم بعطره؟ أتوضأ بلهيب أنفاسه، أكتسي بعينيه. عشقته كما لم أفعل في حياتي. قبله، كنت كافرة بتلك المصطلحات، ظننتها بدعة اخترعها الشعراء كي يقتاتوا منها أرزاقهم، خدعة الكُتَّاب كي يسلوا قراءهم..
و بعدها، اتضح لي، أنها الحقيقة الأبدية التي يجحدها الفقراء والضعيفة قلوبهم، والذين يخشون الألم. ويهابون الحب الذي يجعلنا ضعفاء في أحضان عشاقنا، عرايا أمامهم. رغم الطاقة النارية المستأسدة التي يزودنا بها كي نناطح العالم نهارا ونصنع المستحيل. لكنها تخبو تماما في منتصف الليل، كي نعود مجرد ذرة خاضعة تسبح في مدار المعشوق. تهيم في كيانه.. لا ترجو بعد الليل نورا.
تذكرت مقولة أختي لي، حين سألتها: "هل أحبت من قبل؟"
أجابتني: محال.. لا، ولن أسعى له. ولا أتمناه مطلقا. يكفي أن أعيش حالته مع أغانى الحب وتنهيدات المطربين بينما قلبي سليم معافي بعيدا عن تلك الآلام ولوعتها. أنا قلبي ضعيف. لن يحتمل لهيبه ولوعته. فعرفت حينها أن ليس الجميع يسعى إلى ساحة الحب. كي يضع رأسه على مذبحه. يتوسل البقاء بين يدى المحبوب. بل الأغلب يفرون من ساحته، يريدون العيش في سلام، يقبلون الحالة الوسطية المائعة. لا حب ولاعشق.. لا جوع مفرط.. لا اشتهاء مهلك.. لا سعي نحو النجوم والأقمار.

يتخلون عن تلك الفوضى كلها، رغم أنهم يدركون أنهم بذلك يتركون ساحة الفرح الرنانة، الضحكة الخالصة التي تشق الصدر من عنفوان جلجلتها. تنازلوا بذلك عن العمق بكل حالاته. عمق الفرحة والسعادة، والعشق.. والطموح الذي يلهب المضاجع، ويؤرق الجفون.

راضون بالجلوس على شاطىء الدنيا يبللون الأقدام.. و لا يسبحون.

دفنت سؤالي وهاجسي بداخلي. وقضينا معًا شهرين في الجنة. استقلْنا بعدهما الطائرة كي تعود بنا إلى واقع القاهرة.

***

في صباح اليوم التالي لوصولنا.. شعرت بانقباض الروح، وأنا أدخل على شكرية هانم في جناحها الخاص. كان طارق قد سبقني إليها، ووعدته بالقدوم خلفه. لم ترحب بي كعادتها، بل تلافت أن تلتقي أعيننا. عرفت الضيفة الحاضرة معهما، وكانت تلك أول مرة أراها. قالت:

-شاهيناز هانم ابنة المستشار خالد، وخطيبة طارق.

صعقت، لم أصدق. وارتبكت كل أعضائي في الحال، وجهلت الرد والتصرف. ربما أومأت لهم، وربما لا. ربما قلت شيئا وربما لا. لكني من المؤكد أني قد انصرفت في التو مندفعة إلى الخارج. ولحق بي طارق، قبل رأسي، وقال:

- ليس الأمر كما تتصورين.

-و ماذا ينبغي لي أن أتصور في الأساس؟

-ممكن تنتظرينى في الحديقة الخاصة بنا، سألحق بك بعد قليل.

ثم طبع قبلة على جبهتي، وعاد إليهما. أطعته وانتظرته حيث أشار.

قتلني الانتظار، وأنا أترقب عودته بينما الهاجس الذي دفنته في أُسْوان، تعود له الحياة، ليطفو على السطح من جديد. " وماذا بعد؟!"

-تأخرت عليكِ.

لم أشعر به وهو قادم. أجبت وأنا أهز رأسى بالنفي:

-لا، على الإطلاق.

حاولت أن أبتسم كي أخفي كل شيء بداخلي.. ولم أعد أدري بوضوح ما بداخلي تحديدا كي أخفيه!!.. ماذا كنت أتوقع؟!!. نظرت إلى عينيه مفتعلة البسمة، لكنه لم يقل شيئا. طال الصمت بيننا حتى قطعه هو على حين غِرَّة، قائلا:

-هل مللتِ؟

لم أستوعب السؤال، فنظرت إليه مستغربة، فأضاف:

-من الدروس.

-بالطبع لا.

قلتها بنبرة هادئة، ويعلو شبح ابتسامة على وجهي. فأكمل:

-إذن، إليك الخطوة الثالثة.. "الجميع نواياه طيبة".

ضحكت تلك المرة ساخرة، وأنا أعقب:

-الجميع.. الجميع.

-بالطبع، نسبة ضئيلة جدا تُسْتَثْنَى من تلك القاعدة. وعادة هم السفاحون، مشاهير التاريخ من الديكتاتوريين، أصحاب النزعات النفسية والسادية الشاذة. حتى المجرمين تشملهم القاعدة.

-وكيف ذلك؟!!

-فكري في الأمر، المجرم مثلا كالسارق، لم يسرق بنية إيذاء الآخر إنما بنية جلب المال لنفسه. القاتل، ستجدين أنه قد قتل بدافع الخوف من شيء ما أو ربما للحفاظ على حياته، أو لمنع فضح أمره، رغبة في مال أكثر... أو أى سبب آخر من هذا القبيل، الذي يعود بالنفع عليه لا يقصد به في المقام الأول إلحاق الضرر بالآخرين. الجميع نواياه طيبة حتى لو أتت أفعاله سيئة.

-طيب وشاهيناز؟

سألته على حين غِرَّة. ولا أدري كيف استطاع تحوير الإجابة. وهو يجيب في بساطة، قائلا:

-شاهيناز، مثلا إحدى تلك الشخصيات التي تعيش فقط من أجل قضية واحدة، ألا وهي "المرآة".

-المرآة؟!!

كررتُها في استغراب شديد، وتابع يقول:

-نعم، شخصية مظهرية من الدرجة الرفيعة. نبتت لا يهمها شيء عدا كيف تبدو أمام الآخرين، كيف تتجمل بالمساحيق الزائفة، تخطف الأضواء من الجميع، كيف تحصل على كل شيء ساطعا. لا يهدأ له بال إلا لو شعرت بأن الجيمع يرمقونها بنظرات الحسد والغيرة الفتاكة.

هذا مرض لعين. مسكينة هى، تصرفاتها لئيمة، أفعالها دائما ما تكون بوجهين، لا تعرف كيف تبدو تلقائية أو كيف تعيش طبيعية.
مريضة.. نعم، بل وفي درجة متأخرة كذلك. يجوز أن نقول إنها وصلت لدرجة العبودية "عبودية المظاهر"، تسخر لها كل جهدها ليل نهار.
صمت قليلا ثم عاد ليستدرج حديثه:
-لكن نواياها طيبة. لا تقصد إيذاء الآخر، إنما إسعاد نفسها.
-حتى لو تسببت في إيذاء الناس تظل نواياها طيبة؟
سألتها وعلامات الامتعاض جلية على ملامحي. فأجاب:
-حتى لو فعلت ذلك، تسمى الأضرار حينها بالتكاليف العارضة. وتبقى هي نواياها طيبة.

*****

الفصل "٢٤"
الخطوة الرابعة "٤"
و أى سيدٍ قد اشتراك؟!!

يبدو أن كل المعجزات تحدث هذا العام، فلم يكد يمر شهر على زيارة الهانم للمؤسسة حتى ظهر النجم المنتظر أخيرا. ولأول مرة يراه الجميع. لم يتعرف إليها أحد، لكن الجميع يعرف جعفر، حارسه الخاص. و حين خطا إلى الداخل يؤمن القادم. فهم الكل أنه الباشا الصغير، المنتظر.. ودخلت معه امرأة فائقة الجمال راقية الذوق هكذا وصفها من رآها لباقي الزملاء. واشتعلت الشائعات تضرب في سماء المؤسسة كالبرق الخاطف. هناك من قال، أن تلك المرأة هي صديقته. وآخرون ظنوا أنها مستثمرة كبيرة ستشاركه. لكن أغلب الناس جزمت بأنها حبيبته. وهنا انفجر السؤال: وماذا عن شاهيناز الغندورة الدلوعة، ابنة الوطواط؟!!.. لم يستطع أحد إخفاء فرحته برؤية الباشا الصغير، وما تحمله تلك الزيارة من معانٍ، يظنون أنها الخير لهم. وكذلك فرحتهم برؤية.. المرأة الجميلة التي ترافقه. ودعوا الله أن تصدق الظنون وتكون هي المختارة. لعل هذا البلاء المدعو ب " المستشار خالد" يرحل من فوق أعناقهم، كي تصفو لهم السماء.

تفقدا الأدوار كافة، مرَّا على جميع المكاتب.

سلم على كل من صادفه عرفه بنفسه في تواضع جم، قائلا:

" طارق، وهذه دُرَّة هانم" يقولها وهو يشير في غاية الاحترام إلى دُرته الغالية.

تجولا النهار بطوله في الشركات، ومرَّا بالعديد من مصانعه. وانتهت الجولة في مصنع الهواء، مصنع تعبئة الغازات الصناعية.

حينها استهل طارق حديثه بحماس، قائلا:

-هنا تكمن عبقرية شكرية هانم. من على أرض هذا المصنع أثبتت جدارتها بإدارة كل شيء. هي صاحبة الفكرة، أنشأت أول وأكبر مصنع لتعبئة الغازات الطبية في مصر. حين عرضت المشروع على الباشا، استخف به وبحجمه في البداية، فقالت له: سترى بنفسك أرباح هذا المشروع، سيدر علينا أموالا طائلة. سأعبئ الهواء، وأبيعه للناس.

هو بالفعل كذلك. هنا يتم تعبئة الغازات "غاز الأكسيجين والاستيلين والنيتروجين " وتوريدها للمستشفيات في المقام الأول، وتأتي المصانع بعد ذلك. لعبتها في الوقت المناسب قرأت المشهد صح.. مصر وقتئذ كانت تدخل على توسعات كبرى في القطاع الطبي. درست احتياجات تلك المشروعات من صناعات مكملة، فكرت كيف ستأخذ نصيبها من التورتة. اختارت المجال الأقرب لخبرتها، تمتلك أدواته، تعرف كيف تدير مخاطره. وفعلتها، حققت أرباحا خرافية وقتها. لم يتصورها أحد في ذلك الوقت. البراعة لم تكن في فكرة المشروع وحده، بل في توقيت التنفيذ. شعارها الدائم "أن تبدأ، إذن ستوقد الجميع". وبعدها اعتزل الباشا المشهد، وترك لها الملعب.. كان قد أصابه الملل والضجر. ولم تعد الأعمال تثيره كالسابق. واكتفى بدور المستشار والزوج.

علقت دُرَّة في انبهار حقيقي، قائلة:

-إمبراطورة بالفعل.. استحقتها عن جدارة.

-هذا حقيقي.

قال عبارته السابقة ثم أطرق برأسه إلى الأرض. وبعد فترة طويلة من الصمت، استطرد في حديثه، قائلا:

-فن اصطياد المواهب. السر الحقيقي لصاحب أي مؤسسة ناجحة هو مدى إجادته لهذا الفن " فن اصطياد المواهب". أثناء دراستي الجامعية في أمريكا، كنت أتدرب في واحدة من كبرى الشركات هناك، ومررت بتلك الإدارة "إدارة الموارد البشرية". دورها الحقيقي تطبيق هذا الفن. اصطياد المواهب، والأهم هو الإبقاء عليها أطول فترة ممكنة. وكلما زادت الموهبة وعلا شأنها، كان من الأصعب الإمساك بها. لذا يبقى التحدي دائما أمام تلك الإدارة في كيفية ترويض المواهب، واحتجازها أطول فترة ممكنة؟ المديرون العباقرة وحدهم من ينجحون في ترويض المواهب وأسرهم في أقفاص داخل المؤسسات. المواهب هي من تصنع الطفرات في عالم الأعمال؛ لذا مهما ارتفعت الأجور التي يتقاضونها فهي لا تعد شيئا من الأرباح التي يدرونها على المكان.

رائع.-

-وما الرائع في ذلك؟

-لا أعرف، ماذا تقصد؟ أليس هذا يعد نجاحا؟!

-لمن تحديدا؟
-لكليهما.
-بالطبع لا. لصاحب المؤسسة. أكيد ناجح. أما الموهبة فيتحول إلى موظف مقابل استقرار مادي. يبيع أحلامه الخاصة ومشاريع كان يتشدق يوما ما أنه سيبنيها. أشك كثيرا في أن ذلك يعد نجاحا له. حين يصل إلى نهاية المطاف، ويتأمل رحلته، تصيبه الحسرة، ولا يفهم المحيطين به سببها. ربما يعيش في رخاء مالي معقول. الأولاد وقد التحقوا عادة بأفضل الجامعات. وهناك معاش تقاعدى محترم. لكن أحلامه الخاصة هل تحققت؟ أهدافه هو الشخصية، ماذا عنها؟ اسمه هل ظل لامعا كما أراد يوما ما؟. تلومه زوجته على الحزن غير المبرر في وجهة نظرها، تتآكله الحسرة وحده. مضى به قطار العمر، وهو يعمل كالثور يحرث في أرض الغير مقابل حفنة مال. باع أهدافه وكل شيء مقابل لاشيء في النهاية.
همهمت دُرَّة في فهم ما يقول. ودهشت كثيرا في أنها " كيف لم ترَ هذا الأمر من تلك الزاوية من قبل؟". سألته:
-ولماذا يقبلون حينها؟
-لأنهم يخافون. من يقبل منهم يكون دافعه الخوف. بعد أن ذاق لفترة رغد الحياة والعيشة اليسيرة، يصعب عليه القفز وبَدء مشروعه الخاص، يتعلل بالمستقبل المجهول، يسكن حلمه بدواء الأعذار الواهية. لكن من يقفز في التوقيت المناسب بعدما يكتسب الخبرة، وقبل أن ينال الخوف من جرأته. يفوز، أكيد سيتعب ويكد في البداية لكنه في نهاية المشوار، سيجد نفسه على قدم المساواة من رئيسه الأسبق- صاحب العمل ذاته. أو على الأقل صنع مجده الخاص، حلمه هو لا حلم الغير.
لكن ليس الجميع مخلوقين كي يبنوا مشاريع خاصة.
بالفعل، لكن كثيرا منهم خلقوا لذلك. انظري لهذا العامل.
قالها وهو يشير لأحد العمال البسطاء، والذي تشي ملامحه أنه تجاوز سن الخمسين عاما، اختاره من وسط عشرات العمال الذين قد اصطفوا على نفس خط الإنتاج. وقال:

تظنين أنه عامل بسيط، إنسان بلا أحلام خاصة. ويظن صاحب العمل أنه ليس من حقه الجرأة من الأساس على الحلم. بل وينبغي على هذا العامل البسيط أن يكتفي بأنه نال شرف العمل لدى صاحب المقام الرفيع. وما أدراك أنه لم يكن صاحب ورشة في يوم ما.. مديرها، رئيس مجلس إدارة حياته؟.. يأمر وينهى. وإذا بأزمة مالية طاحنة أطاحت به، لتدفنه هنا. وحتى حين تحسن الوضع معه، خاف.. خشي أن يعود لحلمه، وورشته، فتعصف الريح به من جديد.

الخوف أمر طبيعي خلقنا به جميعا، لكن هل الخوف هو من يملي علينا حياتنا.. ويصنع قرارتنا ؟!. حين يراجع المرء حياته، يتأمل أدواره فيها كافة، سواء كان زوجا/ زوجة، كموظف، كصديق، كابن/ ابنة... وكل شيء آخر.

عليه أن يسأل نفسه: لماذا أنا هنا بالتحديد؟

لو لم يجد إجابة واضحة.. إذن الإجابة هي الخوف من المجهول.

لو وجد إجابة واهية.. إذن إنه الخوف..

لو كانت دون مشاعر فياضة نابعة بحق من الوجدان، تخرج كلمات مرسلة واهية.. إذن هو الخوف هو السيد الذي صنع القرار في دنياه.

إن كان مازال تائها في الحياة..

إن كان يعمل ليل نهار مخلصا، دون حياة خاصة..

إن كان بلا أهداف خاصة من الأساس..

إن كان جامدا واقفا في موقعه، بلا حراك.. إذن إنه الخوف..

فتشى عن سيده.. حينها سترين موطن آلامه.

طبيعي أن نخاف، لكن لم نُخلق كي يقرر الخوف لنا. وحين نفعل ذلك يكون هو السيد.. ونحن العبيد.

و تلك هي الخطوة الرابعة "٤" " أى سيدٍ قد اشتراك؟!! ".

اندفعت بسؤالها له:

-وماذا عنك؟ أى سيدٍ قد اشتراك أنت؟!!.

صمت لبرهة قصيرة، قبل أن يجيب:

-أنا لست أفضل من الآخرين. -لا تعتبر نفسك أفضل من الغير.

ثم استرد بعضا من أنفاسه، وأكمل جملته بنبرة جادة حاسمة:

-تلك هي الخطوة الأخيرة.

الفصل "٢٥"
الختام

حينما استوحش بي الشك، أسرعت كي أتأكد. وكانت صدمتي. فزعت منها.
لم أدرِ هل أفرح لهذا الخبر؟ أم أنعي حظي؟
كيف أخفيه عنه؟ بل بالأحرى، كيف أخبره به؟
ما الحل؟
دخل عليَّ طارق دون أن أشعر به. فوجئت به أمامى يحدق بنظراته في اختبار الحمل الذي لازلت أمسك به في يدى. تسمر لوهلة، ثم جلس بجوارى قبل أن يسألني:
-ما الأمر؟
-لاشيء.
هكذا أجبته. لم يستوعب، عاد سؤاله:
-ما نتيجة الاختبار؟
لم أجبه. ونهضت مبتعدة. فخطف الاختبار من يدى، حملق فيه، ثم قال:
-هل هذا معناه أنك حامل؟
-انصرف الآن، أرجوك.
-دُرَّة، أجيبي عن سؤالي.
انخرطت في بكاء حار، فضمني إلى صدره، هامسا في أذني:
-مبارك علينا، لماذا البكاء وأنت تحملين ولي العهد المنتظر؟!
فعلا صوت بكائي أكثر، قائلة له في تراخٍ:
-أرجوك، اتركني لحالي
زاد من ضغطه على أضلعي، شعرت به يغرسني بين ثناياه، قائلا:
-أنت روحي التي أتنفس بها الدنيا. هل سئمتِ مني لهذا الحد؟
وصمت طويلا، يهدهدني كطفلته الصغيرة، ثم همس يطمئنني:
-أنا رجلك. شئتِ أم أبيتِ.
ولم يتركني حتى غفوت.

***

استيقظت في منتصف الليل على صوت زعيق وصراخ قادم من جناح طارق. نهضت من الفراش متجهة إليه. طرقت الباب، وحين لم يجبني أحد، دخلت لأجد شكرية هانم معه. كان جالسا أمامها كتلميذ يطرق إلى الأرض بنظراته، وهي مستأسدة أمامه. ما إن لمحتني حتى صرخت في وجهي:

-انتهى هذا الفيلم الهندي الساقط. وهذا الجنين سينزل في الحال، هل تفهمين ذلك؟

ذهلت مما أسمع. وتسمرت للحظات. حاول أن يجادلها. فأخرسته، قائلة:

-لن أعيد كلامي مرة ثانية. كفاك أنانية. تذكر أنها ليست حياتك وحدك هي التي على المحك هنا، بل هناك أكثر من عشرة آلاف موظف حياته في خطر. هذا قدرك، ارض به. أما هي، فهي من جلبت ذلك على نفسها. وانتهى الموضوع.

اندفعت جارية من أمام ثورتها، أغلقت الباب خلفي بإحكام، أخرجت هاتفي وطلبت هاشم في الحال، وخوف شديد يتملكني منها.. خوف حقيقي. ربما ليس على نفسي، بل على الروح الأخرى التي أحملها في كنفي. جعلت قلبي يتذوق الخوف لأول مرة. وتسللت هاربة دون أن يشعر بي أحد، تتستر على الخادمة.

***

في المستشفى، اقتحم طارق غرفتي في المستشفى، فزع هاشم فور أن رآه.. ارتبك، فأشار له بالخروج، فجرى هاشم في الحال مبتعدا، أغلق الباب خلفه. حينها سقط طارق باكيا على السرير، يمسك بي بكلتا يديه. صارخا:

-كيف جرؤتِ على الهروب مني؟ كيف هنت عليكِ كي تذبحينني كالشاه؟

خرجت من فمي دون تفكير:

-خفت.

-ألست برجلكِ!!

-خفت منك أنت أكثر.

رفع عينيه إلى عينيَّ، يرمقني بنظرات عتاب، يكاد لا يصدق ما يسمع. ثم اندفع يقبل رأسي ويدي، ودموعه تغسل وجهه ووجهى معا. معتذرا عما حدث، عن كل شيء ألم بي. أجبته في هدوء:

-لم يعد يفيد بشيء.

-بل يفيد يا دُرَّة.
و ساد الصمت بيننا، ثم قطعه بسؤاله بعدما هدأت أنفاسه المضطربة:
-لم تسأليني حتى الآن عن الثمن الذي يغرمه من يرى الناس على حقيقتهم؟
أطلقت تنهيدة حارة من صدري، وأنا أجيبه:
-لم يعد يهمني أن أعرف.
-بل يهم. يهم يا دُرَّة. من علمني لم يقل لي هذا. لم يحذرني من أنني حين سأرى الناس وأرى حقيقتهم، سأشعر كأن آلامهم ألمي. لم يحذرني من أني سأجمد في موقعي. هذا ما حدث معي، لم أستطع الحراك. لم أعرف كيف أتقدم ولا أتسبب في أذى غيري، كيف أدير ولا أجور على أحد. خفت حينها، كنت صغيرا أراهم ذئابا تتكاتل على قصعة، ينهشون الناس فتتضخم ثرواتهم. يعيثون في الأرض فسادا فينالون النياشين والأوسمة البراقة. الفساد هو الذي يهبط على الناس من عالم الأكابر، وليس الذي يطل برأسه من الجحور كي يخطف لقمة من شدة الجوع. لم أرد أن أكون واحدا منهم، لم أعرف كيف أحمي نفسي من الانزلاق في عالمهم.
أجبته بهدوء عكس انفعاله الشديد، دون تعاطف:
-ليس جميعهم فاسدين.
-لكن الوسط نفسه قميء. إن لم أكن صخرة راسخة سأتوه في أروقتهم الضالة. لا تلوميني، لقد خشيت على نفسي من الضياع. لكن حين رأيتك من الوهلة الأولى عرفت أنك ستكونين لي سراجا منيرا، كلما جنحت ستعيدينني إلى الطريق. لقد ولدت على يديك. كل ما كان ينقصني كي أعيش هو قلبك النابض في حشاي.
-إذن، لماذا اعتديت عليَّ في ليلة تعارفنا الأولى، إذا كنت فعلا صادقا معي وكنت تدرك ماهيتي من البداية؟!
-خشيت أن أصدق أنك حقيقية. خشيت على نفسي من الصدمة إن كنت مخطئا. دُرَّة، أنت أجمل من أن تكوني حقيقة. أروع من أن تكوني إنسية، تسيرين وسط البشر كأنك عادية. سامحيني على كل شيء.
سالت الدموع على وجنتي دون صوت، وأشحت ببصري بعيدا عنه، قائلة:
-أظنها النهاية!!
أجابني وهو يقبل يدي:

-نهاية عقدنا المؤقت. وبداية حياتنا معًا.
جثا على ركبتيه أمام فراشها. مخرجا من جيبه علبة قطيفة حمراء، فتحها وهو يقدمها لها، قائلا:
-تتزوجيني؟.

البداية.

السيرة الذاتية للكاتبة:

- ❖ تخرجت في كلية طب وجراحة الفم والأسنان- قصر العيني-
- ❖ عملت بمهنة طب الأسنان لمدة خمس سنوات حتي أسست مركز أسنان.
- ❖ تحولت إلي دراسة العلوم الإنسانية والنفسية والعمل بمجال التدريب والتنمية الذاتية.
- ❖ حاصلة علي دبلومة في العلوم التربوية من كلية الدراسات العليا للعلوم التربوبة –جامعة القاهرة-
- ❖ حاصلة علي دبلومة في الإرشاد النفسي كلية الدراسات العليا للعلوم التربوبة –جامعة القاهرة-.
- ❖ حاصلة علي دبلومة اعداد المدرب المحترف المعتمد **professional Certified Trainer PCT** من الجامعة الأمريكية بالقاهرة **AUC** .
- ❖ حاصلة علي دبلومة إدارة الجودة الشاملة في المستشفيات من الجامعة الأمريكية بالقاهرة **AUC**
- ❖ إبتكرت برنامج تدريبي فريد "العادات ٩ للرشاقة" برنامج تعديل سلوكي يشمل العقل والمشاعر والتغذية معا.

للتواصل مع الكاتب:

فيس بوك: - Dr Alyaa Helalد/ علياء هلال

الإيميل : Showme.uropinion@gmail.com

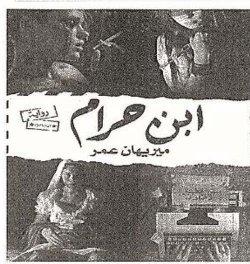
إصدارات الدار



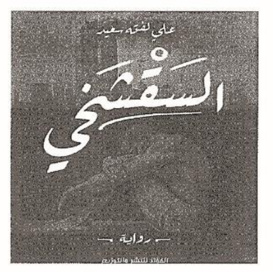

احمد حسني
يوميات 2
رحالة


رامي حمدي
رواية


نسمة عاطف
للأطفال وبس
الفؤاد للنشر والتوزيع


رواية
ابن حرام
ميريهان عمر

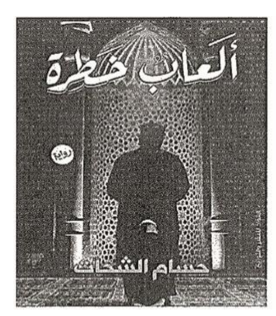

رباب فؤاد
أزمة ثقة
رواية
الفؤاد للنشر والتوزيع


رواية
الفؤاد للنشر والتوزيع


اللعب تحت السرير
رواية
د. محمد الشحات
الفؤاد للنشر والتوزيع


المصنع
رواية
كريم أحمد


تذكرتين سفر
محمد حمودة


ألعاب خطرة
رواية
حسام الشحات


شمس بين الضباب
خبايا جمهورية يناير
محمود امام
الورد اللي فتح في جناين مصر


الفيل مرزوق
رحلة مع حواديت المحروسة
يرويها
محمود امام


للنشر و التوزيع